الهيئة العامة لقصور الثقافة

آفاق عالمية

32

دميان



تأليف : هرمان هيسّه

ترجمة : عبده الريس

آفاق
عالمية

رواية فاتنة كتبها الروائى العالمى هرمان هيسه « نوبل للآداب ١٩٤٦ » ، يعتبرها الأديب العالمى « توماس مان » قصيدة نثر مدهشة وهى قصة شاب تعبر عن أزمة جيل بأكمله .

يختتم توماس مان تقديمه للطبعة الأمريكية من هذه الرواية بقوله : « فى نهاية الرواية والزمن – هو عام ١٩١٤ – يقول دميان لصديقه سنكلير : ستكون حرب ، ولكنك سترى ياسنكلير أنها ليست سوى البداية ، ربما تكون حرباً كبيرة . . . كبيرة جداً ولكن ذلك أيضا ليس سوى البدايه . الجديد يبدأ ، والجديد سيكون مرعباً لمن يتعلقون بالماضى ، وأنت . . ماذا ستفعل ؟

الإجابة الصحيحه عن السؤال هى : الوقوف
الجديد دون التضحية بالقديم .

ولربما كان أفضل من خدموا الجديد ووقفوا
وهيسه نموذج لذلك – هم الذين يعرفون و
ويحملونه معهم إلى الجديد القادم »

(توماس مان – إبريل ١٩٤٧)

الثمن: جنيهان

الشركة الدولية للطباعة

الهيئـــة العامة
لقصور الثقافة

آفاق عالمية
فبراير ٢٠٠٤
٣٢

دميان

تأليف : هرمان هيسه
ترجمة : عبده الريس

آفاق عالمية : سلسلة شهرية تعنى بنشر ترجمات مختارة

المراسلات : باسم رئيس التحرير على العنوان التالى :
١٦ أ ش أمين سامى - القصر العينى - رقم بريدى : ١١٥٦١

الهيئة العامة لقصور الثقافة

آفاق عالمية
دميان
هرمان هيسه

- ترجمة : عبده الريس
- تصميم الغلاف : محمد بغدادى
- لوحة الغلاف للفنان العالمى : سيزان
(١٨٣٩ - ١٩٠٦)
- المراجعة اللغوية : عبد الحميد عيسى غازى
- الطبعة الأولى : فبراير ٢٠٠٤

رقم الإيداع : ٢٠٠٤/٤٧٤٩
الترقيم الدولى :
I.S.B.N: 977 - 305 - 695 - 3

- الطباعة والتنفيذ :

الشركة الدولية للطباعة

المنطقة الصناعية الثانية قطعة ١٣٩
شارع ٣٩ - مدينة ٦ أكتوبر
ت : ٨٣٣٨٢٤٠ - ٨٣٣٨٢٤٢ - ٨٣٣٨٢٤٤
e-mail: pic@6oct.ie-eg.com

دميان / قصة صبا إميل سينكلير

أردت فقط أن أحاول العيش
فى توافق مع التلقينات التى صدرت عن طبيعتى .
لماذا كان ذلك صعباً للغاية ؟

توطئة

لا أستطيع أن أروى قصتى دون الرجوع مسافةً طويلةً إلى الوراء . ولو كان ممكناً لرجعت أبعد من ذلك حتى السنوات الأولى من طفولتى ، وما قبلها إلى ماضى الأسلاف البعيد .

عندما يكتب الروائيون قصصهم يميلون إلى تبنى موقف شبه إلهى إزاء موضوعهم ، متظاهرين باستيعاب كلىّ للقصة « حياة شخص » التى يستطيعون بناءً على ذلك أن يسردوها كقدرة الله نفسه ، لا شئ يحول بينهم وبين الحقيقة العارية ، فالمعنى الكلى للقصة يتجلى فى كل تفصيلة ، وأنا قليل القدرة على فعل هذا قدرة الروائى على فعله . على الرغم من أن قصتى مهمة بالنسبة لى أكثر من أهمية قصة أىّ واحد منهم إلى نفسه لكونها قصتى ؛ إنها قصة رجل ليس مبتدعاً ، أو قصة رجل متاح وجوده ، أو رجل مبالغ فى وصفه ، ولا هو من ناحية أخرى رمز مفتقد ، لكنها قصة كائن فريد من لحم ودم .

على أن الذى يتشكل منه الكائن البشرى الحى والحقيقى يبدو أقل فهماً اليوم أكثر من أىّ وقتٍ مضى ، والرجال « كل واحد من أولئك الذين يمثلون تجربةً ثرية وفريدة على ساحة الطبيعة » استنفدوا على ذلك بالجملة هذه الأيام .

إذا لم يكن كل منا أكثر من مجرد كائن بشرى مفرد ، إذا كان بوسع رصاصة واحدة أن تقضى على وجود أىّ منا مرةً وللأبد ، سوف تفقد رواية القصص أىَّ طائل من ورائها . بيد أن كل شخص أكثر من مجرد نفسه هو أيضاً يمثل ذلك الكائن الإستثنائى .

إن اللحظة الخاصة جداً والدائمة الدلالة واللافتة أيضاً تلك التى تتقاطع عندها ظواهر العالم يحدث ذلك على هذا النحو مرةً واحدة ولا تتكرر أبداً . لهذا السبب تكتسب قصة كل شخص أهميتها وأبديتها وقدسيتها ، لهذا السبب يكون كل شخص طالما يعيش وينفّذ إرادة الطبيعة يكون رائعاً وجديراً بكل اعتبار .

أما وقد حلّت الروح فى جسد كل فرد ، فبداخل كل إنسان يشقى العالم ، وبداخل كل شخص مسيح مشدود على الصليب .

إن ندرةً من الناس هذه الأيام يعرفون ما هو الإنسان ، والكثير من الناس يدركون هذا الجهل ويموتون أكثر سهولة بسببه بنفس الطريقة التى سأموت بها أكثر سهولة حالما أنتهى من هذه القصة . إننى لا أعتبر نفسى أقل جهلاً من غالبية الناس لقد كنت ومازلت مجرد باحث ، لكننى توقفت عن سؤال النجوم والكتب وبدأت أصغى إلى التعاليم التى يهمس بها لى دمى . إن قصتى ليست قصة ممتعة ؛ فهى ليست قصة جميلة أو منسجمة كدأب القصص المبتكرة ،إن قصتى لها مذاق من الهراء والفوضى ، من

الأحلام والجنون مثل حياة كل الرجال الذين يتوقفون عن خداع أنفسهم .

إن حياة كل إنسان تمثل طريقاً نحو نفسه ، تمثل محاولةً فى طريق كبير ، التنويه عن ممر . وليس ثمة رجل كان مرةً نفسه كليةً وبشكل تام . رغم ذلك يكافح الجميع كى يصبحوا واحداً فى حالةِ خرقاء ، والآخر فى حالة أكثر استجلاءً ، كلٌ على قدر استطاعته .

إن كل شخص يحمل آثار ولادته - اللزوجة وقشور البيض - لماضيه البدائى يحملها معه إلى نهاية أيامه .

البعض لا يصبحون أبداً آدميين ، بل يبقون ضفادع وسحالى ونملاً ، البعض آدميون فوق الخصر وسمك فيما أسفل . الكل يمثل مغامرة على مسرح الطبيعة فى خلق الإنسان . إننا جميعاً نشترك فى نفس الأصل ، أمهاتنا . فنحن جميعاً ندخل من نفس الباب . لكن كلنا - تجارب الأعماق - يناضل من أجل نصيبه الخاص . إننا نستطيع أن نفهم بعضنا البعض ؛ لكن كلاً منا قادر أن يفسّر نفسه لنفسه وحده دون غيره .

ساحتان

يجب أن أبدأ قصتى بتجربة لى عندما كنت فى العاشرة ، أذهب إلى المدرسة اللاتينية لمدينتنا الصغيرة .

مازال طيب الأشياء الكثيرة من ذلك الزمن يثور ويعلونى بمسحة من حزن : الأزقة المظلمة والأزقة المضاءة بعناية ، المنازل والأبراج ، الأجراس والواجهات ، الغرف الأنيقة والمريحة ، الدافئة والباعثة على الاسترخاء ، الغرف الحبلى بالأسرار . كل شئ يفوح بعطر الأُلفة الدافئة ، الخادمات ، الأدوية المنزلية ، الفاكهة المجففة .

إن ساحتىَ النهار والليل عالمان مختلفان ، ينبعثان من قطبين متقابلين ، مختلطين أثناء ذلك الزمن ، كان منزل أبوىّ يشكّل إحدى الساحتين ، غير أن حدودها كانت بالفعل أكثر ضيقاً ، تضم أبوىّ فى واقع الحال . كانت عبارة عن ساحة من الإشراق والوضوح والنظافة ، المحادثات اللطيفة ، الأيدى المغسولة ، الملابس النظيفة ، العادات الطيبة . هذا هو العالم الذى تتردد فيه تراتيل الصباح ويُحتفل فيه بعيد الميلاد . كانت الخطوط المستقيمة والممرات تُفضى إلى المستقبل : كان هناك الواجب والإثم ، الضمير الفاسد والاعتراف ، الصفح والقرارات الصائبة ،

المودة ، المهابة ، الحكمة وكلمات الإنجيل إذا أراد المرء حياة نقية ومنظمة على المرء أن يتأكد أنه قد تحالف مع هذا العالم .

على أن الساحة الأخرى التى تخطت نصف منزلنا كانت مختلفة تماماً : كانت تفوح برائحة مختلفة ، تتكلم لغة مختلفة ، تعد بأشياء مختلفة ، وتتطلب أشياء مختلفة . شمل هذا العالم الثانى الخادمات والعمال ، حكايات الأشباح ، إشاعات القيل والقال . كانت هذه الساحة محكومة بخليط صاخب من الأشياء المريعة والخلابة والمرعبة والغامضة بما فيها من السلخانات والسجون ، المدمنين ، النسوة السوقيات ، الأبقار التى تلد عجولاً والخيول التى تهبط إلى موتها ، حكايات السرقة والقتل والإنتحار . كل هذه الأشياء الهمجية والقاسية ، الآسرة والبشعة حولنا يمكن أن توجد فى الزقاق القادم ، فى المنزل التالى . رجال الشرطة والمومسات ، المدمنون الذين يضربون زوجاتهم . أمواج الفتيات الصغيرات التى تتدفق من المصانع ليلاً ، العجائز اللواتى يُقلدونك رقية ومن ثم تشعر بالمرض ، اللصوص المختبئون فى الأحراش ، الحرّاقون الذين تعتقلهم شرطة البلدية . كل مكان فى هذاالعالم المضطرم كان يثور وينفث رائحته فى شتى الأرجاء إلا فى غرف أبوينا وكان ذلك حسناً . كان رائعاً أن السكينة والنظام ، الهدوء والضمير السليم ، التسامح والمحبة كانت تسود فى هذه الساحة ، وكان رائعاً أن البقية تواجدت أيضاً ، غوغاء الصخب المؤلم والجهامة

والعنف والتى بوسع المرء أن يفر منها بقفزة واحدة إلى حضن أمه .

كانت غريبة تلك الطريقة التى جاورت بها الساحتان بعضهما البعض ، فكم كانتا متلاصقتين ! فمثلاً عندما كانت خادمتنا « لينا » تجلس معنا بجانب باب غرفة الجلوس ، وتُضفى صوتها الصافى على الترنيمة ويداها الناصعتان معقودتان على مريلتها المسترسلة . كانت عندئذ تنتمى كأبى وأمى إلينا ، إلى هؤلاء الذين يسكنون فى النور والصلاح ، ولكن بعد ذلك فى المطبخ أو فى سقيفة الحطب عندما كانت تحكى لى قصة « عقلة الإصبع الذى بدون رأس » ، أو عندما تجادلت مع الجارات عند الجزار ، كانت تصير شخصاً آخر ينتمى لعالم آخر يغلفها بالغموض . وهكذا كان الحال مع كل شئ ، وكان ذلك يتجلى معى شخصياً .

كنت أنتمى بلاشك إلى عالم النور والصلاح ، فقد كنت ابن أبى وأمى . ولكن حيثما انعطفت وعيت العالم الآخر ، وانخرطتُ فيه أيضاً على الرغم من غرابته بالنسبة للعالم الأول وضجته بالهلع والضمير الفاسد .

لقد فضلت بالفعل العيش فى الساحة المحرمة مراراً ، وتكراراً . بدت العودة إلى ساحة النور شيئاً ضرورياً وطيباً كما كان يجب . بدت إلى حدٍ ما أشبه بالعودة إلى شئ أقل جمالاً ، شئ على الأحرى رتيب وممل . أحياناً كنت على يقين تام أن قدرى أن

أصبح مثل أبى وأمى حصيفاً وصالحاً على قدر ما أكون منظماً ورفيع المقام مثلهما . لكن بدا هذا الهدف صعب المنال ، والوصول إليه كان يعنى الإنتظام فى حضور المدارس التى لا تنتهى والمذاكرة واجتياز الإختبارات والامتحانات . وهذا الطريق كان يجتاز العالم الآخر المظلم .

لم يكن مستحيلاً على الإطلاق أن يظل المرء جزءاً من هذا العالم وينخرط فيه . كانت هناك قصص عن الأولاد الذين ضلوا ، قصص قرأتها بشغف . كانت تصور العودة للمنزل على أنها شعور عظيم بالراحة . وكشئ غريب أننى شعرت باقتناع أن هذا دون غيره كان الصواب ، كان الأفضل ، كان الشئ الذى أبحث عنه . لم يزل جانب القصة الواقع بين الشر والضلال أكثر جاذبية بشكل كبير – لو كان لى أن أعترف بذلك – أحياناً لم أرغب للابن الضال (*) أن يتوب ويوجد مرة ثانية ولكن لم يجرؤ المرء أن يعتقد هذا ، ومن باب أولى لا يجهر به ، لكنه كان رغبة كامنة فقط على نحو ما كهاجس داخلى ، كاحتمال فى أعماق وعى المرء . عندما صورتُ الشيطان لنفسى استطعتُ بسهولة أن أتخيله فى آخر الشارع ، متنكراً أو غير متنكر ، أو أتخيله فى السوق ، أو فى

(*) قصة الابن الضال : إنجيل لوقا اصحاح ١٥ ، الآيات من ١١ : ٣٢ .

حانة ، لكن لم أتخيله أبداً معنا فى المنزل . كانت أخواتى ينتمين إلى عالم النور . كثيراً ما بدا لى أن لهنّ صلة طبيعية أوثق بأبى وأمى ؛ كنّ أفضل ، أفضل أخلاقاً ، لهنّ أخطاء أقل من أخطائى ، كانت لهنّ أخطاؤهنّ بالطبع ؛ فقد كانت لهنّ لحظاتهنّ السيئة لكنها لم تبد بالغة الأثر عليهنّ كما بدت علىّ ، فالذين هم على صلة بالشر غالباً ما أصبحوا جائرين جداً ومزعجين ، كذلك بالنسبة للذين بدا لهم العالم المظلم أكثر قرباً .

كانت أخواتى مثل والدىّ ، كنّ بالطبع وادعات ، يحظين بالإحترام ؛ إذا تشاجرتُ معهنّ ، دائماً ما كنت ألوم نفسى فيما بعد ، أشعر بأننى المحرّض ، الطرف الذى يجب أن يطلب الصفح .

ضايقت والدىّ فضلاً عن مضايقة أخواتى . كانت هناك أسرار كنت أفضل أن أبوح بها لأصغر حدث عن أن أبوح بها لأخواتى . فى الأيام الهادئة ، حين لم يزعجنى ضميرى ، كان من الباعث غالباً على السرور أن ألعب معهنّ ، حتى أكون طيباً ومهذباً مثلهنّ وحتى أرى نفسى فى نور النبل ، ذلك ما يجب أنه بدا مثل أن تكون ملاكاً !

كانت هذه أرفع منزلة يمكن للمرء أن يفكر فيها ، ولكن كم كانت نادرةً هذه الأوقات ! غالباً عند اللعب أو عمل نشاط غير مؤذٍ . غدوت جموحاً وعنيداً لذا كنت صعباً جداً على أخواتى .

الشقاء والمشاجرات دفعت بى إلى غضب متأجج إلى حد أننى أضحيتُ فظاً ، قلتُ وفعلتُ أشياء فظيعة حجَّرت قلبى بمجرد أن قلتها ، ثم توالت ساعات غير سائغة من الأسف العميق والندم . كانت اللحظة الموجعة عندما توسلتُ من أجل المغفرة لأكون متبوعاً مرةً ثانية بأشعة النور والسعادة الهادئة الخالصة الممتنة .

ذهبتُ إلى المدرسة اللاتينية ، كان فى فصلى ابن العمدة وابن الحراجى ؛ زارنى كلاهما فى المنزل بين الحين والآخر ، وعلى الرغم من أنهما كانا عنيدين تماماً إلا أن كليهما كان عضواً فى العالم الطيب والشرعى . لم يعن هذا أنه لم يكن لى أى تعامل مع بعض أولاد الجيران الذين كانوا يذهبون إلى المدرسة العامة والذين كنا نزدريهم . أحدهم يجب أن أبدأ به قصتى .

فى أثناء إحدى الأجازات كنت - وقت ناهزتُ العاشرة بقليل - أتجول واثنان من أولاد الجيران عندما انضم إلينا ابن الترزى ؛ ولد كبير من المدرسة العامة ، قوى وضخم الجسم ، كان أبوه سكيراً والعائلة برمتها لها سمعة سيئة . لقد سمعت كثيراً عن « فرانز كرومر » وكنت خائفاً منه ، لم أحب مطلقاً ذلك الذى تقدم نحونا . كانت عاداته بالفعل عادات رجل ، كان يقلد مشية وكلاء عمال المصنع الصغار . تحت زعامته نزلنا إلى حافة النهر بجانب القنطرة واختبأنا تحت مدخلها الأول . لم يكن الشق الضيق بين قوس القنطرة والمياة الكسولة السارية مُغطى سوى

بالنفايا وقطع الشظايا ، ولفائف متشابكة من سلك صدئ وأشياء تافهة آخرى . أحياناً يمكن للمرء أن يلتقط شيئاً نافعاً من هنا . أصدر « فرانز كرومر » تعليماته لنا بتمشيط المنطقة وإطلاعه على ما وجدنا فكان إما أن يضعه فى جيبه أو يلقيه فى النهر . كلفنا « فرانز كرومر » بمهمة البحث عن الأشياء المصنوعة من الرصاص والنحاس والقصدير ، كذلك المشط القديم المصنوع من قرن الحيوان . أحسست بالارتباك الشديد فى وجوده ، ليس فقط لأننى عرفت أن أبى لم يكن ليرضى عن وجودى فى رفقته ، ولكن لأننى ببساطة كنت خائفاً من « فرانز » نفسه ، على الرغم من أننى كنت سعيداً لأنه بدا راضياً عنى ويعاملنى مثل الآخرين . أعطى فرانز التعليمات ونحن أطعنا . بدا الأمر وكأنها عادة قديمة على الرغم من أنها كانت المرة الأولى التى أنضم فيها إليه .

بعد برهة جلسنا . بصق « فرانز كرومر » فى الماء وبدا كأنه رجل ؛ كان يبصق من فجوة بين أسنانه ويصيب كل شئ يصوب نحوه . دار حديث وراح الولدان يتفاخران ويغدقان الثناء على نفسيهما بشتى أنواع الخدع وبطولات التلاميذ التى قاما بها . ظللت ساكناً حتى أننى خشيتُ أن يلاحظنى أحد ، لأن سكوتى ربما يتسبب بشكل خاص فى غضب « فرانز كرومر » ، شعرتُ أن صاحبىَ قد بدءا يتجنبانى فى نفس اللحظة التى انضم إلينا فيها « فرانز كرومر » . بدوت غريباً بينهم ، أدركتُ أن طريقتى وملابسى جلبت نوعاً من التحدى . وكولدٍ من مدرسة لاتينية

والابن المدلل لأب ميسور الحال ، سيكون من المستحيل على « فرانز كرومر » أن يستسيغني كذلك الإثنان الآخران . شعرتُ بشدة أنهم على وشك أن يتبرأوا مني ويتركوني .

أخيرا وبدافع الخوف الخالص ، أخذتُ أروى قصة بدورى ، إخترعتُ حكاية طويلة قمتُ فيها بدور البطل قلت ، فى بستان بالقرب من الطاحونة سرقت وصديقاً ذات ليلة ملء كيس عن آخره بالتفاح ، لم يكن تفاحاً عادياً على الإطلاق ولكن تفاح من النوع الفاخر . كان الخوف فى هذه اللحظة هو الذى جعلنى أبحث عن ملجأ لى فى هذه القصة . . إختراع القصص وروايتها تهيأ لى بشكل تلقائى . وحتى لا أقع على الفور فى السكوت مرة أخرى ، وربما أغدو متورطاً فى شئ سئ ، قدمتُ عرضاً كاملاً فى قدراتى الحكائية ، أكملت ، أحدنا كان عليه أن يراقب بينما الآخر تسلق الشجرة وأسقط التفاح ، بيد أن الكيس أصبح ثقيلاً جداً لذلك اضطررنا أن نفتحه ثانيةً ونخلف نصف التفاح . لكننا رجعنا بعد نصف ساعة وأحضرنا الباقى .

عندما انتهيتُ من حكايتى ترقبت استحساناً إلى حد ما . فلقد تحمستُ إلى موضوعى عند نهاية الحكاية وكنتُ منجرفاً بطلاقتى . ظل الولدان الأصغران صامتين ، مترقبين ، لكن « فرانز كرومر » نظر إلىّ بحدة من خلال عينين ضيقتين ، وسأل بلهجة مهددة :

- هل هذا حقيقى ؟

- قلت : نعم .
- حقاً وصدقاً .
- نعم حقاً وصدقاً ، أصررت بعناد بينما كنت أختنق من داخلى بالخوف .
- هل تقسم على هذا ؟
- غدوت خائفاً جداً لكننى قلتُ على الفور نعم .
- إذن قل : أقسم بالله وبنعمة روحى .
- قلت : أقسم بالله وبنعمة روحى . قال : حسنٌ ، ثم ابتعد .

إعتقدت أن كل شىء أصبح على ما يرام ، وكنت سعيداً عندما قام وقفل عائداً .

عندما عاودنا الصعود إلى القنطرة قلتُ فى تردد بأنه علىّ أن أرجع للمنزل بمفردى .

- لا يجب عليك أن تكون متعجلاً بهذه السرعة ، ضحك « فرانز » . كلانا ذاهب فى نفس الاتجاه أليس كذلك ؟

مشى فرانز الهوينى ، ولم أقدر على الفرار ؛ كان يمشى بالفعل فى اتجاه منزلى . عندما وقفنا أمام المنزل ورأيت الباب الأمامى ومطرقة الباب النحاسية الكبيرة ، والشمس فى الشبابيك والستارة فى غرفة أمى ، زفرتُ زفرة ارتياح . فتحتُ الباب بسرعة وانسللت إلى الداخل وعندما أوشكت أن أصفق الباب غالقاً إياه . تسحب « فرانز كرومر » من خلفى . وقف بجانبى فى

الممر البارد المكسو بالبلاط ؛ كان مضاءً بشباك واحد فقط مواجه للفناء ، تقدم نحوى ثم قال برفق :

- لا تكن فى عجلة شديدة من أمرك يا هذا .

نظرتُ إليه فى رعب ، كانت قبضته على ذراعى أشبه بملزمة حداد * تساءلت ما الذى يمكن أن يدور فى عقله ، وهل يريد أن يؤذينى . حاولت أن أقرر ماذا لو أصرخ الآن ، أصرخ بقوة وبحدة يمكن أن ينزل شخص من أعلى بسرعة تكفى لإنقاذى . لكننى أقلعت عن الفكرة سألته : ما الأمر ؟ ماذا تريد ؟

- ليس كثيراً . . فقط أردت أن أسألك عن شئ ، لا يجب أن يسمعه الآخران .

- أوه ، حقاً ؟ لا أظن أن هناك أى شئ يمكن أن أقوله لك ، تعرف ، أننى يجب أن أصعد .

سأل « فرانز كرومر » برفق : أنت تعرف من صاحب البستان القريب من الطاحونة ، ألا تعرف ؟

- لست متأكداً ، الطحان ، أعتقد .

لف « فرانز » ذراعه حولى وجذبنى نحوه بإحكام فأُرغمتُ على النظر فى وجهه من بُعد بوصات ، كانت عيناه شريرتين ، يبتسم بمكر ، بينما كان وجهه يفيض بالقسوة والشعور بالقوة .

- حسنٌ يمكننى أن أخبرك بالتأكيد من صاحب ذلك البستان ، لقد عرفت منذ بعض الوقت أن شخصاً ما قد سرق

تفاحاً من هناك و وأن الرجل صاحب البستان قال أنه سيعطى ماركين لأىّ شخص سوف يخبره من سرق التفاح .

صحتُ فجأة : أوه يا إلهى ، أنت لن تخبره ، أليس كذلك ؟

أدركت أنه من العبث أن أستغيث بروح النُبل لديه ، لقد أتى من العالم الآخر حيث لا تمثل له الوشاية أىّ جريرة . أدركتُ هذا بشدة ، إن ناس العالم الآخر لم يكونوا مثلنا فى هذه الامور .

- ألا تقل شيئاً ، ضحك كرومر : أيها الفتى ماذا تحسبنى ؟ هل تعتقد أننى صاحب دار لسك النقود ، إننى فقير ، ليس لى أب غنى مثل أبيك ، ولو كان بوسعى أن أربح ماركين أربحهما ما استطعت إليهما سبيلاً . ربما أيضاً يمنحنى المزيد .

فجأة فك ذراعه من حولى . لم يعد الممر يفوح برائحة الطمأنينة والأمان ، بدأ العالم من حولى فى التداعى . سوف يشى بى للشرطة ! أصبحت مجرماً ، ولسوف يبلغ أبى بذلك ، ربما أيضا تأتى الشرطة للقبض علىّ . هددنى الخوف من الشوشرة . كل الأشياء الكريهة والخطيرة اتحدت ضدى . إنه لم يعن شيئاً لأننى لم أسرق شيئاً . لقد أقسمتُ بالفعل ! انبجست الدموع فى عينى . أدركتُ أننى يجب أن أجرى صفقة ، فتشت بيأس فى كل جيوبى ليس ثم تفاحة واحدة ، ليس ثم مطواة ، لم يكن معى أىّ شئ على الإطلاق . فكرت فى ساعتى ، ساعة فضية قديمة معطلة إرتديتها لمجرد اللهو بها كانت لجدتى .

خلعتها بسرعة . قلت : إسمع يا كرومر لا تبلّغ عنى . لن يكون عدلاً إذا فعلت . سأُعطيك ساعتى كهدية . هاهى انظر ، من ناحية أخرى ليس لدىّ أى شئ آخر على الإطلاق . يمكنك أن تأخذها ، إنها من الفضة والعقارب ، حسنٌ ثمة خلل طفيف بها ، يجب أن تستصلحها .

إبتسم كرومر ووزن الساعة فى كفهِ ، نظرتُ إلى يده وشعرت كم كانت وحشية لى وعدائية على نحو خبيث ، كيف تسللت إلى حياتى وأمنى .

قلت فى تردد : إنها من الفضة .

قال بازدراء : أنا لا أُعير اهتماماً إلى فضتك وساعتك القديمة ، إذهب واستصلحها بنفسك .

صحتُ مرتعشاً خوفاً من أن يفر : لكن يافرانز ، لحظةً ، لما لا تأخذها ، إنها فعلاً من الفضة بالأمانة . ليس لدى أىّ شئ آخر .

رمقنى بنظرة ازدراء لا مبالية : حسنٌ أنت تعرف لمن يمكننى أن أذهب أو يمكننى أيضاً الذهاب إلى الشرطة . . . إننى على « معرفةٍ » وثيقة بالشاويش .

إستدار كما لو كان يهم بالإنصراف . تعلقتُ بكمه ، لا يمكننى أن أدعه يذهب ، لقد آثرت أن أموت عن معاناة ما يمكن أن يحدث لو انصرف على هذه الحال .

تضرعتُ إليه بصوت مبحوح مستحثاً إياه :

- لا تقدم على أىّ حماقة ، أنت فقط تمزح أليس كذلك ؟
- نعم أنا أمزح لكنها من الممكن أن تنقلب إلى مزحة مكلفة .
- فقط أخبرنى ما المفروض أن أفعل ؟ سوف أفعل أىّ شئ تطلبه منى .

تفحصنى بإمعان بعينين ضيقتين وضحك ثانية .

قال بدعابة زائفة : لا تكن غبياً إلى هذا الحد ، أنت تعرف علاوة على أن أمامى فرصة أن أربح ماركين فإننى لست رجلاً غنياً حتى أستطيع أن أتكبد ضياعهما ، ولكنك غنى . أنت حتى لديك ساعة ، كل ما يجب عليك فعله أن تعطينى ماركين ، عندئذٍ سوف يصبح كل شئٍ على ما يرام .

فهمت منطقه . لكن ماركين ! إنه مبلغ كبير وغير متاح على حد سواء مثل عشرة ، مثل مئة ، مثل ألف إننى لا أمتلك بفنِّج (*) واحد . كانت هناك حصالة خنزيرية احتفظت بها أمى لأجلى . عندما كان الأقارب يأتون لزيارتنا كانوا يضعون فيها خمسة أو عشرة بفنِّجات . كان هذا كل ما أملك . لم يكن لى أى مكافأة فى ذلك الزمن .

قلت بحزن : ليس بحوزتى أى نقود ، ليس بحوزتى أى نقود على الإطلاق ولكن سأعطيك أىّ شئٍ آخر بحوزتى ، عندى كتاب كاوبوى وعساكر معدنية وبوصلة . . انتظر سوف أجلبها لك .

(*) المارك : مئة بفنِّج .

فقط أصدر كرومر بفمه صوتاً ساخراً . ثم بصق على الأرضية .

قال بصوت أجش : تستطيع أن تحتفظ بحثالتك . بوصلة ! لا تغضبنى ! سمعتُ ، إننى فى إثر النقود .

– ولكن ليس بحوزتى أىّ نقود ، إننى لا أتحصل على شيءٍ منها ، ليس بوسعى شئ .

– حسنٌ ، إذن سوف تحضر لى الماركين غداً . سوف أنتظرك بعد المدرسة بالقرب من ساحة السوق . هذا كل ما فى الأمر . وسوف ترى ما سيحدث إذا لم تحضرها .

– ولكن كيف لى أن أحصل عليها إذا لم يكن بحوزتى أىّ نقود ؟

– يوجد وفرة من المال فى بيتكم . هذا شأنك ، غداً بعد المدرسة وها أنا أقول لك إذا لم تحضرها معك . . . رمقنى بنظرةٍ مربكة . بصق مرةً أخرى ، وتوارى مثل شبح . لم يكن بوسعى حتى الصعود إلى أعلى . تحطمت حياتى . فكرت فى الهروب بلا عودة أو إغراق نفسى ولكن لم يمكننى أن أتصور أىّ شيءٍ من هذا بوضوح . جلست القرفصاء فى الظلام على الدرجة السفلى من السلم ، مسلماً نفسى للشقاء .

ذلك المكان حيث وجدتنى « لينا » أبكى عندما نزلت بالسلة لإحضار الحطب . توسلت إليها ألا تنطق بكلمة ، ثم صعدتُ لأعلى . إلى يمين الباب الزجاجى عُلِقت قبعة أبى ومظلة أمى ؛ اللذين منحانى الإحساس بالألفة والارتياح ، حياهما قلبى بامتنان كما كان يجب أن يحيى الابن الضال « الذى عاد » شكل ورائحة

الغرف القديمة المألوفة ، لكن كل هذا غاب عنى فى هذه اللحظة . كله خصّ عالم أبى و أمى الصافى والمشع بالنور ، وأنا مذنب ومنغمس حتى النخاع فى عالم غريب ، تورطت فى مخاطرات ، تورطت فى الخطيئة وكنت مهدداً بعدو ، مُهدداً بالأخطار والخوف والخزى .

إن القبعة والمظلة وأرضية الحجر الرملى التى كنت مولعاً بها ، اللوحة الكبيرة فوق دولاب الصالة ، صوت أختى الكبرى الذى يتهادى من غرفة الجلوس ، كانت كلها أكثر تأثيراً و أكثر تأنقاً ، أكثر بهجةً من أى وقت مضى ، لكتها لم تعد ملجأ ولم تعد شيئاً يمكننى الاعتماد عليه ، لقد تحولت إلى تأنيب صارخ ، لم يعد أىّ منها ملكى ، لم يعد بوسعى أن أشارك فى بهجتها الوادعة . لقد أمست قدماى موحلتين . لم يكن بوسعى حتى أن أنظفهما فى « المشّاية » ؛ أنى ذهبت تبعنى ظلام لا يعرف عنه عالم المنزل أىّ شئ . كم كانت لى العديد من الأسرار ، كم كنت خائفاً ، لكن كل ذلك كان لهو أطفال بالمقارنة بما جلبته معى إلى البيت هذا اليوم . لقد لازمنى سوء طالع . كان يمد يده نحوى لذلك ليس بوسع حتى أمى أن تحمينى ، باعتبار أنه لم يكن مسموحاً لها أن تعرف . أياً كانت جريمتى السرقة أو الكذب « ألم أقسم يميناً كاذبة بالرب وبكل شئ مقدس » أياً كانت فليست ذا بال ، فخطيئتى لم تكن تحديداً هذه أو تلك لكن خطيئتى تمخضت من تعاقدى مع الشيطان . لماذا تماديت ؟ لماذا أطعت كرومر أفضل مما

أطعت أبى ؟ لماذا اخترعت القصة « مفخماً » نفسى عن طريق الجريمة ، وكأنه فعل بطولى ؟ لقد أوقعنى الشيطان فى براثنه . كان العدو يتعقبنى .

فى غضون ذلك لم أكن خائفاً جداً مما سيحدث غداً مثلما كنت خائفاً من الحقيقة المروّعة وهى أن طريقى من الآن فصاعداً سوف يمضى أبعد وأبعد منحدراً فى الظلام . شعرت بشدة أن آثاماً جديدة كان لزاماً عليها أن تنبثق من هذا الإثم ، وأن وجودى بين أخواتى محيياً والدىّ ومقبلاً إياهم كان خدعة ، لذا كنت أعيش خدعة مختبئة فى قرارة نفسى . خفق الأمل والثقة هنيهةً بداخلى عندما تفرست فى قبعة أبى ، سوف أخبره بكل شئ وسوف أرضى بحكمه وعقابه ، سوف أجعل منه كاهن اعترافى ومخلصى . سيتطلب الأمر مجرد كفّارة ، الشئ الذى أديته كثيراً ، ساعة شاقة ومريرة ، الإلتماس الصعب والمحزن للمغفرة . كم بدا ذلك جميلاً ومغرياً ! ولكن لم يكن مجدياً . كنت أعرف أننى لن أفعل هذا . كنت أعرف أننى الآن لدى ما أخفيه ، لدى خطيئة كان يجب أن أكفّر عنها على انفراد . ربما وقفت فى مفترق الطرق ، ربما أصبح مكانى الآن وللأبد بين الأشرار . أتقاسم أسرارهم ، أعتمد عليهم ، أطيعهم ، ينبغى أن أكون واحداً من صنفهم . لقد قمت بدور البطل ، يجب أن أتحمل التوابع . كنت سعيداً عندما وبخنى أبى بسبب الحذاء الموحل . صرف انتباهه

هذا الحذاء فتجنب الموضوع الأساسى وهيأنى لتحمل اللوم الذى أستطيع أن أنقله خفيةً إلى الإثم الآخر ، الإثم الأكثر خطورة .

غلبنى شعور جديد عند هذه اللحظة ، شعور لدغنى على نحوٍ سار : شعرت بالتعالى على أبى ! أحياناً كنت أشعر بالإشمئزاز التام من جهله . فانتقاده لى بسبب الحذاء الموحل بدا تافهاً « آه لو تسنى لك أن تعرف » خطرت فى ذهنى كأنما مثلتُ هناك كمجرم يتم استجوابه بتهمة سرقة رغيف خبز فى حين أن الجريمة الفعلية هى القتل .

شعور كريه وعدائى لكنه قوى وجذاب بشدة ، شعور ربطنى أكثر من أى شيءٍ آخر بسرى وخطيئتى . إعتقدتُ أن كرومر ربما قد ذهب الآن للشرطة وأبلغ عنى ، تلك العواصف الرعدية كانت تتشكل فوق رأسى ، بينما استمر الجميع طوال الوقت يعاملوننى كطفل صغير . كانت هذه اللحظة الأكثر مغزىً وثباتاً للتجربة برمتها . كانت أول شرخ فى صورة أبى المقدسة ، كانت أول صدع فى الأعمدة التى دعمت طفولتى ، والتى يجب أن يقوضها كل فرد قبل أن يتمكن من أن يكون نفسه . إن الخط الباطنى والأساسى لقدرنا يتشكل من تجارب خفية جداً . إن مثل هذه الشروخ والشقوق تبزغ معاً مرةً ثانية ، تُرأب وتُنسى . لكنها تظل تحيا وتنزف فى أكثر الأعماق سرية .

شعرت على الفور برهبة شديدة من هذا الشعور الوافد ذلك

أن بوسعى أن أخر أمام أبى أُقبل قدميه ملتمساً الصفح . لكن المرء لا يستطيع أن يعتذر عن شئ أساسى والطفل يشعر بذلك ويعرفه ، فضلاً عن أنه يعرفه بعمق مثل أىّ حكيم .

شعرت بأهمية أن أولى بعض التفكير لوضعى الجديد . لأتأمل ما سأفعله غداً . لكننى لم أجدالوقت . فقد كنت مشغولاً طوال المساء لاعتيادى تغيير النظام فى غرفة المعيشة ؛ ساعة الحائط والمنضدة ، الكتاب المقدس والمرآة ، المكتبة والصور على الحائط كانت تعطى لى ظهرها . أرغمت أن أراقب برجفة فى صدرى كيف كان يمسى عالمى وحياتى الهادئة السعيدة والخالية من الهم فى عداد الماضى ، كيف كانت تنسلخ عنى .

أُجبرت على إدراك كيف كنت أغدو مصفداً ومشدوداً بجذور جديدة إلى الخارج ، إلى الظلام ، إلى عالم غريب . تذوقت للمرة الأولى فى حياتى طعم الموت ، وكان الموت طعمه لاذعاً ، فى مقابل الموت ثمة ميلاد ، ثمة خوف ورهبة من تجديد مروِّع . كنت سعيداً عندما استلقيت أخيراً فى فراشى ، قبيل ذلك ، وكعذاب أخير لى . كان علىّ أن اتحمل صلوات المساء . أنشدنا ترتيلة من التراتيل التى أحبها . شعرت بعدم القدرة على الإنضمام إليهم . كذلك أغاظتنى كل نغمة . عندما ترنم أبى بالبركة وختم بـ « الرب فى معيتنا » شئ ما تكسر بداخلى ، ثم أُخرجت للأبد من هذه الدائرة الحميمة . كانت نعمة الله بصحبة كل منهم ، لكنها لم تعد بصحبتى .

أحسست بالبرودة وبإجهاد عميق ، ثم تركتهم . عندما تمددت فى فراشى لبرهة ، متدثراً بدفئه وأمانه . عاد قلبى المرتجف فى اضطراب مرة أخرى وحلّق بفزع فوق ما أصبح الآن فى عداد الماضى . قالت لى أمى كعادتها « طابت ليلتك » كان مازال بإمكانى أن أسمع خطواتها تتردد فى الغرفة الأخرى ؛ مازال وهج الشمعة ينير الشق فى الباب . فى هذه اللحظة كنت أعتقد أنها سوف تعود مرة أخرى . لقد شعرت بشئٍ ما ، سوف تمنحنى قبلة وتسأل ، تسأل بعطف والبُشرى فى صوتها ، عندئذٍ سوف أبكى ، ثم تتلاشى الغُصة فى حلقى ، ثم أُطوقها بذراعىّ ، عندئذٍ سيكون كل شئ على ما يرام ؛ سأكون آمناً ! وحتى بعدما أظلم الشق فى الباب ظللت أُصغى وكنت متأكداً أن هذا ببساطة كان يجب أن يحدث . ثم عدت إلى متاعبى وجهاً لوجه مع عدوى . تمكنت من تخيله بوضوح ، إحدى عينيه مغمضة نصف إغماضة ، فمه يتلوى إلى إبتسامة وحشية ، بينما أنا أُحدق فيه أصبحت أكثر وأكثر اقتناعاً بما هو حتمى ، وأصبح هو أضخم وأكثر بشاعة بينما كانت عينه الشريرة تومض ببريق شيطانى . كان بجانبى تماماً حتى شعرت بالنعاس . رغم ذلك لم أحلم به أو بما حدث ذلك اليوم . حلمتُ بدلاً من ذلك بأننى كنت أتهادى بصحبة أبوىّ وأخواتى بقارب محاطاً بالأمان التام ونشوة الإجازة . استيقظت فى منتصف الليل ببقايا طعم السعادة فى فمى . كان مازال بوسعى رؤية فساتين الصيف البيضاء لأخواتى تتلألأ فى

الشمس عندما شعرتُ أننى خارج الجنة ، عائداً إلى الواقع ، مرة ثانية وجهاً لوجه مع العدو ، مع عينه الشريرة . فى الصباح عندما أقبلت أمى تصيح بأن الوقت تأخر ولماذا أنا باقٍ فى السرير ، بدوتُ مريضاً عندما سألتنى إذا كان ثمة مكروه ، تقيأت . بدا هذا مكسباً ، فلقد أحببت أن أكون متوعكاً ، أحببتُ أن يُسمح لى بالرقاد فى السرير طوال الصباح ، أشرب شاى البابونج ، أُصغى إلى أمى وهى ترتب الغرف الأخرى وإلى « لينا » وهى تتعامل مع الجزار فى مدخل البيت . إن الصباحات المنقطعة عن المدرسة بدت ساحرة مثل حكاية حورية ؛ فالشمس التى كانت تلهو فى الحجرة لم تكن نفس الشمس التى أُغلقت دونها المدرسة حينما كانت الظلال الخضراء منخفضة ، رغم ذلك يمنحنى هذا أيضاً البهجة هذا اليوم ؛ فلقد اعتراه شئ ما . لو تسنى لى أن أموت ! ولكن كالغالب فيما مضى ، كنت متوعكاً بعض الشئ وكان ذلك بسبب قلة الحيلة ، إن مرضى منعنى من المدرسة ولكن لم يمنعنى من « فرانز كرومر » الذى سيكون فى انتظارى فى الحادية عشرة بالسوق وبدلاً من أن تخفف عنى ودية أمى كانت أذىً مزعج . تظاهرت بالاستغراق فى النوم مرة ثانية حتى أُترك بمفردى لأفكر ، ولكن لم يتسن لى أن أرى مخرجاً . فى الحادية عشرة كان علىّ أن أكون بالسوق . فى العاشرة قمت بإرتداء ملابسى فى هدوء قلت : إننى تحسنت . كانت الإجابة كالعادة فى هذه الظروف : إما أن أعود للسرير على الفور أو يجب علىّ أن أكون بعد الظهر بالمدرسة .

قلت : سأذهب على الرحب إلى المدرسة . لقد توصلت إلى خطة . لم أستطع أن أقابل كرومر صفر اليدين . كان لابد أن أتمكن من الحصالة الخنزيرية . كنت أعرف أنها لم تكن تحوى ما يكفى على الإطلاق رغم أنه كان مبلغاً معتبراً ، أدركت أن شيئاً ما أفضل من لا شئ وأن كرومر يمكن أن يرضيه هذا المبلغ على الأقل . زحفتُ بالجورب فقط فى قدمى متلصصاً إلى حجرة أمى وأخذت الحصالة من مكتبها ، رغم ذلك لم يساو هذا نصف ما تعرضت له بالأمس مع « فرانز كرومر » . دق قلبى بسرعة شعرت أننى كدت أختنق . لم تفتر عزيمتى عندما اكتشفت بعدما نزلت أن الحصالة مغلقة ، كان فسخها يسيراً ، مجرد فض شبكة الصفيح ؛ ومع ذلك آلمنى كسرها . . الآن فقط قد اقترفت بالفعل سرقة . لقد استرقت حتى ذلك الحين مكعبات السكر أو بعض الفاكهة ، لكن هذه السرقة كانت أكثر خطورة ، رغم أن النقود التى سرقتها كانت نقودى الخاصة . أدركت كم كنت على مقربة خطوة واحدة من كرومر وعالمه . كيف كان كل شئ ينحدر بى تدريجياً .

بدأت أشعر بالصلف ؛ نفسى ومن بعدى الطوفان ! لا عودة بعد الآن . عددت النقود باضطراب ، كانت تبدو فى الحصالة أكثر بكثير ، لكنها استقرت فى كفى قليلةً على نحوٍ مخيّب ، خمسة وستون بفنّج . خبأت الصندوق فى الأرض ، أمسكت النقود ، أطبقت عليها كفى ، وخطوت خارج المنزل ، شعرت أننى أكثر

اختلافاً من أى وقت مضى ، عندما رحت أجتاز البوابة ظننت أن شخصاً ما ينادى علىّ من فوق لكننى ابتعدت بسرعة .

كان مازال أمامى فسحة من الوقت . تسللت من مسلك ملتوٍ خلال الأزقة الصغيرة للمدينة المختلفة ، تحت سماء مكفهرة لم أر مثلها من قبل ، متجاوزاً البيوت المحدقة والناس الذين يتفرسون فىّ بارتياب . ثم تبادر إلى ذهنى أن زميلاً من المدرسة قد وجد ذات مرة طالراً (*) فى سوق الماشية . كنت سأركع مرحباً على ركبتىّ وأصلى من أجل أن يحقق الرب المعجزة ويجعلنى أجد لقية مشابهة . لكننى قد صادرت حقىّ فى الصلاة . وعلى أية حال سيتطلب إصلاح الحصالة معجزة ثانية .

تعرف علىّ « فرانز كرومر » من بعيد ، رغم ذلك أقبل نحوى دون اندفاع وبدا كأنه لا يعرفنى . عندما اقترب منى ، أشار إلى على نحوٍ آمر أن أتبعه ، ودون أن يلتفت إلتفاتة واحدة إلى الوراء مشى بهدوء فى « ستروجاس » وعبر جسر مشاة صغير حتى توقف أمام بناية جديدة فى الضواحى . لم يكن ثمة عمال فى المكان ، كانت الحوائط عارية ، الأبواب والشبابيك فارغة . نظر كرومر حوله ، ثم اجتاز المدخل إلى المنزل وتبعته . خطا خلف حائط ، أعطانى إشارة وبسط يده .

سأل بوقاحة : هل احضرتها ؟

(*) الطالر : عملة ألمانية فضية توالى اصدارها من القرن ١٥ : ١٩ .

أخرجت كفى المطبقة من جيبى وأفرغت نقودى فى كفه الممتدة المستوية . أخذ فى عدّها وقبل تصلصل آخر قطعة بفنّج نظر إلى قائلاً :- تلك خمسة وستون بفنّج .

قلت باضطراب :- نعم ذلك كل ما لدى . أعرف أنه غير كاف لكنه كل ما لدى .

راح يعنفنى برفق .

- اعتقدت أنك أكثر مهارة من ذلك . مع الرجال الشرفاء يتحتم عليك أن تنجز المهام كما يجب . أنا لا أريد أن أغتصب منك شيئاً ؛ ذلك ليس المبلغ المتفق عليه . أنت تعلم ذلك . أعد بنساتك . إن الشخص الآخر - أنت تعرف من - لن يحاول أن يخفض الثمن . إنه يدفع جيداً .

- ولكننى ببساطة ليس لدى بفنّج آخر . هذا كل ما كان فى الحصالة .

- هذا شأنك . لكننى لم أشأ أن أتسبب فى شقائك . أنت مدين لى بمارك وخمسة وثلاثين بفنّج . متى يمكننى أن أحصل عليها .

- أوه ، سوف تحصل عليها بالتأكيد يا كرومر أنا فقط لست أدرى حالياً متى . ربما سأحصل على المزيد غداً . أو بعد غد . أنت تفهم أليس كذلك ؛ إننى لم أستطع أن أتفوّه بكلمة لأبى عن هذا .

- هذا ليس شأنى . إننى لست فى معزل عن أن أتسبب لك

فى أىّ ضرر ، أنت تعلم أنه يمكننى أن أحصل على نقودى قبل الغداء إذا أردت ، وأنا فقير بينما ترتدى أنت ملابس ثمينة وتتغذى أفضل منى لكننى لن أقول أىّ شئ . يمكننى الإنتظار قليلاً . سأُصفر لك بعد غد . هل تعرف كيف تكون صفارتى . ألا تعرف ؟

أسمعنى إياها . لقد سمعتها من قبل .

قلت : نعم ، أعرفها .

تركنى كأنه لم يرنى أبداً من قبل . لقد كانت مجرد صفقة عمل بين كل منا لا شئ أكثر من ذلك .

أعتقد أن صفارة كرومر سوف ترعبنى إلى اليوم ! لو سمعتها فجأة مرةً ثانية . من الآن فصاعداً كان علىّ أن أسمعها مراراً ، بدا لى وكأننى أسمعها طيلة الوقت . ليس ثمة مكان أنفرد فيه بنفسى أو لعبة فردية ، ولا نشاط أو تفكير لم تخترقة هذه الصفارة . الصفارة التى جعلتنى عبداً لكرومر ، والتى أصبحت قدرى .

كنت أتردد على حديقة الزهور الصغيرة لدينا ، حيث كنت مولعاً بأصائل الخريف تلك اللطيفة والمفعمة بالألوان . وبرغبة فردية دفعتنى مرة أخرى للعب الألعاب الطفولية لسنواتى المبكرة . كنت ألعب إلى حدٍ ما دور شخص أصغر منى ، شخص لم يزل طيباً وطلقاً ، بريئاً وآمناً .

ورغم ذلك فى غمرة هذا الملاذ « متوقع دائماً ومع ذلك

مباغت على نحوٍ رهيب » كانت تنطلق صفارة كرومر من مكان ما ، مدمرة اللعبة ، ومحطمةً أوهامى . عندئذٍ يكون علىّ أن أُغادر الحديقة وأتبع معذبى إلى أماكن شريرة وكريهة حيث يجب أن أعطيه دفعة من مواردى الضئيلة وأترك نفسى مكرهاً على الدفع . استمر المسلسل برمته عدة اسابيع ، لكنها بدت بالنسبة لى مثل سنوات ، مثل أبد .

نادراً ما كنت أحصل على نقود ، على الأكثر خمسة أو عشرة بفنجات مسروقة من على طاولة المطبخ عندما كانت « لينا » تترك سلة السوق مهملة هناك .

عنفنى كرومر مزايداً فى ازدراء كل مرة . كنت أغشه ، حارماً إياه مما كان شرعياً له ، كنت أسرق منه متسبباً فى بؤسه ! لم أشعر فى حياتى أبداً بمثل هذا الكرب ، لم أشعر بيأس أكثر من هذا ، واستعباد أكثر من هذا .

ملأتُ الحصالة الخنزيرية بنقود اللعب ووضعتها فى مكتب أمى . لم يسأل أحد عنها لكن إحتمال أن يسألوا لم يغادر أبداً مخيلتى .

الشئ الذى أخافنى أكثر حتى من صفارة كرومر الوحشية خطوات أمى المتسارعة نحوى .

- أليست قادمة لتتحرى عن الحصالة الخنزيرية ؟

قابلتُ معذبى مرات عديدة خاوى الوفاض ، لذا بدأ يجد

وسائل أخرى لتعذيبى واستغلالى . اضطررتُ أن أعمل لحسابه . كان عليه أن يقوم بمهام شتى لوالده ، لزم أن أقوم بها عنه . أو كان يطلب منى أن أؤدى عمل بطولى وصعب مثل أن أحجل لمدة عشر دقائق على ساق واحدة أو أشبك قصاصة ورق على معطف عابر سبيل .

استفضت فى هذه العذابات ليالٍ عديدة فى أحلامى ونمت مبللاً بفعل الكوابيس .

غدوت بالفعل مريضاً لفترة . رحت أتقيأ مراراً وراحت تنتابنى قشعريرة متكررة ، ومع ذلك كنت أصطلى فى الليل وأعرق . شعرتْ أمى أن بى شيئاً ما ، شيئاً يستدعى التأمل بشدة .

كان هذا يعذبنى فقط كلما لم أتمكن من الإستجابة للبوح لها .

ذات ليلة بعد ما أويت إلى الفراش ، أحضرت لى قطعة من الشيكولاته ذكرتنى بالسنوات السابقة فيما مضى ، آه لو كنت ولداً طيباً كنت تلقيت مثل هذه المكافآت قبل أن يغلبنى النوم . الآن ، وقفت هناك وقدمت لى قطعة الشيكولاتة . كان المشهد محزناً جداً حيث لم أتمكن سوى من هز رأسى . سألتنى ماذا اعترانى وخللت أصابعها فى شعرى . كل ما استطعت الإجابة به هو « كلا ، كلا ، لا أريد أى شئ » . وضعت الشيكولاتة على الكومودينو وانصرفتْ ، فى الصباح التالى عندما أرادت أن تستفسر

عن سلوكى فى الليلة الماضية تظاهرتُ بأننى نسيت الواقعة برمتها .

حدث أن أحضرت الطبيب الذى فحصنى وأوصى بحمّامات باردة فى الصباح . كانت حالتى آنذاك أشبه بالجنون ، عشت على استحياء وسْط الهدوء المنظم لمنزلنا ، فى معاناة ، مثل شبح ، لم أشارك فى حياة الآخرين ، أهملتُ نفسى ساعة من الزمن . أما بالنسبة لأبى الذى انزعج كثيراً وسألنى ما الخطب ، فقد كنت متبلداً تماماً .

قابيل

جاء خلاصى من مصدر غير متوقع بالمرة ، عاد فى نفس الوقت على حياتى بعنصر جديد أخذ يؤثر عليها حتى ذلك اليوم .

أُدرج ولد مستجد فى مدرستنا ، كان الإبن الوحيد لأرملة ثرية قدمت لتعيش فى بلدتنا ، كان يرتدى شريطة حداد على كمه ، ويبدو أكبر منى بعدة سنوات ، تحدد له أن يكون بالصف الأعلى من صفى . لم أستطع أن أمنع نفسى من ملاحظته . كذا لم يستطع أىّ واحد أيضاً . بدا هذا الولد اللافت أكبر كثيراً من مظهره ، فى الواقع لم يلفت انتباه أياً منا كولد على الإطلاق ، إذ كان يبدو بالمقارنة لنا غريباً وناضجاً كرجل أو على الأحرى كسيد نبيل . لم يكن محبوباً ، ولم يشارك فى ألعابنا ، ولم يشارك فى مشاجراتنا العامة . ولم يجز على إعجاب الطلاب سوى لهجته الواثقة الثابتة تجاه المدرسين ، وكان يدعى ما كس دميان .

فى أحد الأيام – وكما يحدث أحياناً – إنضم فصل إضافى إلى فصلنا الواسع لسبب أو لآخر . كان هذا فصل دميان . كنا نتناول نحن الطلبة الأصغر نصاً من الكتاب المقدس ، فى حين كان على الصف الأعلى أن يكتب مقالاً . وبينما كنا نتلقن قصة قابيل

وهابيل . ظللت أتخطف النظر إلى دميان الذى إنطوى وجهه على سحر خاص بالنسبة لى . فرأيت وجهاً مشرقاً دالاً على الذكاء ، وجهاً حازماً على نحو فريد وقد انثنى باهتمام ودأب على عمله .

لم يبد البته كطالب يؤدى واجبه المطلوب منه ، ولكن بدا إلى حد ما كعالم يبحث فى مسألته الخاصة . لا يسعنى القول أنه ترك انطباعاً محبباً فى نفسى ، بل على النقيض كان لدىَّ شعور عدائى تجاهه فلقد بدا فائقاً ومنفرداً ، واثق الطبع إلى حد الإستفزاز ، وقد منحته عيناه سيماء البالغين تلك التى لا يحبها الأطفال ، حزيناً بعض الشئ مصحوباً بمسحة من سخرية . ومع ذلك لم يكن بوسعى سوى النظر إليه دون أن ألقى بالاً إذا ما كنت أحبه أو أبغضه ، غير أنه لو تصادف ونظر فى اتجاهى كنت أحول عينى فى ذعر . عندما أعاود التفكير فى هذا اليوم ، وفيما كان عليه من مظاهر الطلبة آنذاك ، لا يسعنى سوى القول أنه كان مختلفاً بكل معنى الكلمة عن جميع الآخرين ، كان نفسه كليةً . بشخصية نسيج وحدها جعلته لافتاً للنظر رغم أنه كان يبذل قصارى جهده حتى لا يكون ملفتاً .

كان طبعه واحتماله طبع واحتمال أمير تنكر بين حفنة من صبيان المزرعة باذلاً جهداً ليبدو واحداً منهم . ذات مرة ، كان يمشى خلفى فى طريقى إلى البيت قادمين من المدرسة ، وبعدما انعطف الآخرون لحق بى قائلاً : أهلاً

حتى طريقته فى التحية رغم أنه حاول أن يقلد لهجتنا المدرسية ، كانت طريقة شخص مهذب وبالغ على نحو جلىّ

سألنى : هل لنا أن نمشى معاً قليلاً .

شعرت بالإنشراح وأومأت برأسى . ثم وصفت له أين أقيم . قال مبتسماً : أوه ، هناك ، أعرف المنزل ، يوجد شئ غريب فوق المدخل استرعى انتباهى على الفور .

لم أعرف إرتجالاً ماذا كان يقصد ، واندهشت لأنه على ما يبدو كان يعرف منزلنا أفضل مما أعرفه أنا نفسى . فأصل قوس المدخل كان يحمل بلاشك شيئاً أشبه بشعار النبالة لكنه زال مع مرور الوقت وأعيد طلاؤه مراراً . على حد علمى ، لم يكن له أى شأن بنا أو بعائلتنا .

قلت بتحفظ : لا أعرف أى شئ عنه ، إنه طائر أو شئ من هذا القبيل ولابد أنه قديم بعض الشئ . المفروض أن المنزل كان جزءاً من الدير فى وقت ما .

أومأ برأسه : ذلك ممكن تماماً ، ألق عليه نظرة جيدة ! إن مثل هذه الأشياء يمكن أن تكون مثيرة بالفعل . أعتقد أنه باشق .

واصلنا السير ، شعرتُ بالإرتباك . فجأة ضحك دميان وكأنما جال بخاطره شئ مضحك .

إستطرد فى الكلام : بالمناسبة ، عندما ضمنا فصل واحد ، هل تروق لك قصة قابيل صاحب تلك العلامة على جبينه ؟

كلا لم ترق لى . فقد كان من النادر أن أحب أى شئ علينا أن نتعلمه لكننى لم أجرؤ على التصريح بذلك . لشعورى بأننى كنت مخاطباً من قبل شخص بالغ .

قلت : لا أتذكر القصة جيداً .

ربت دميان على ظهرى قائلاً :

- لست مضطراً أن تتظاهر علىّ . فالقصة فى الواقع مميزة بالفعل ، إنها أكثر تميزاً إلى حد بعيد من معظم القصص التى تعلمناها فى المدرسة . غير أن أستاذك لم يتناولها بالتفصيل التام . لقد ذكر فقط الأشياء العادية فيما يتعلق بالرب والخطيئة وهلم جرا .

لكننى أعتقد - قاطع نفسه - وسأل بإبتسامة :

- هل يثير هذا إهتمامك على الإطلاق ؟

- إستمر فى الحديث : حسن ، أعتقد أن المرء يمكنه أن يضفى على هذه القصة المتعلقة بقابيل تفسيراً مختلفاً بعض الشئ ، إن معظم القصص التى نتعلمها ، أنا على يقين أنها صحيحة تماماً وحقيقية ، لكن المرء يمكن أن يرى كلاً منها من زاوية مختلفة تماماً عن تلك التى يرى منها المدرسون ، وفى أغلب الأحوال تصبح بدورها أكثر وضوحاً .

على سبيل المثال ، إن المرء لا يمكنه أن يتقبل بالمرة هذا القابيل والعلامة التى على جبينه بنفس الطريقة التى شُرحت لنا ألا

تتفق معى أنه من الممكن بالفعل لشخص ما أن يقتل أخاه بحجر وأن يصيبه الذعر ويتوب . ولكن أن يمنح فى مقابل ذلك وسام خاص على جبينه ، علامة تحميه وتلقى الخوف من الرب فى قلوب الآخرين ، أليس هذا غريباً بعض الشئ .

قلت باهتمام : بالطبع . بدأت الفكرة تستهوينى .

– ولكن ما هى الطريقة الأخرى هنالك لتفسير القصة ؟

ربت على كتفى .

– إنها بسيطة تماماً ! إن أول عنصر فى القصة ، كان البداية الفعلية وهو العلامة ، ثمة شخص بشئ فى وجهه يخيف الآخرين ، فهم لا يجرؤون أن يمرروا أياديهم عليه ، فلقد حظى بإعجابهم ، هو وأولاده .

نستطيع أن نخمن – بل نستطيع أن نكون على يقين قام – أنها ليست علامة على جبينه تشبه خاتم البريد ، فالحياة ليست بمثل هذا الوضوح والمباشرة ، أغلب الظن أنه كان يلفت انتباه الناس على أنه مشئوم نوعاً ما وربما يشيع فى نظرته شئ من الفطنة والجرأة أكثر قليلاً مما اعتاد عليه الناس .

كان هذا الرجل جباراً بحيث لم تكن لتقترب منه سوى بشئ من الرهبة . فهو موسوم بعلامة لك أن تفسرها حسبما شئت . والناس دائماً يريدون ما يتلاءم معهم ويضعهم فى المكان المناسب . لقد خافوا من أبناء قابيل . إذ كانوا يحملون علامة .

وبالتالى لم يفسروا العلامة للسبب الذى كانت من أجله - علامة تميز - ولكن على العكس من ذلك قالوا أن هؤلاء الأشخاص الموسومين بالعلامة غرباء كثيراً وبالفعل كانوا كذلك . فالناس من ذوى الشجاعة والشخصية دائماً ما يبدون مشئومين بالنسبة للبقية .

كان من العار أن تتجول سلالة الشجعان والمشئومين بحرية لذا نسبوا إلى هذه الطائفة لقب وأسطورة لينتقموا منهم وليعوضوا المرات العديدة التى شعروا فيها بالخوف ، هل فطنت لذلك ؟

- نعم - هكذا - فى هذه الحالة لم يكن قابيل شريراً قط ، والقصة التى وردت فى التوراه غير صحيحة فى الوا قع برمتها .

- نعم ولا . فمثل هذه القصص الموغلة فى القدم حقيقية فى الغالب بيد أنها لا تُسجل على الدوام بشكل دقيق ، ودائماً لا تُفسر تفسيرات صحيحة ، خلاصة الأمر ، أن قابيل كان شخصاً لا بأس به وهذه القصة أُلصقت به لا لشئ إلا لأن الناس كانوا خائفين . فالقصة ببساطة كانت إشاعة ، شئ يثرثر فيه الناس ، وكانت صحيحة فيما يخص أنهم حملوا شيئاً من قبيل العلامة وكانوا مختلفين عن معظم الناس .

إعترتنى الدهشة وسألته مبهوراً : وهل تعتقد أن مسألة قتله لأخيه غير حقيقة أيضاً ؟

- أوه إنها حقيقية بلاشك . فالرجل القوى قضى على رجل

ضعيف . إنه من غير المؤكد هل هو أخوه بالفعل . ولكن لا يهم . فكل الناس فى النهاية إخوة . . . وبالتالى قضى رجل قوى على رجل ضعيف . ربما كان بالفعل عمل جرئ وربما لم يكن . على أية حال من الآن فصاعداً كل الضعفاء الآخرين كانوا خائفين منه ، وكانوا يشتكون بمرارة ولو سألتهم لماذا لا تتحولون وتقضون عليه بدوركم ؟ لا يردون « بسبب أننا جبناء » وفى المقابل أنت لا تستطيع ، فلديه علامة ، « لقد وسمه الرب » يجب أن تبدأ الخدعة بطرقة كتلك - أوه جسن ، أرى أننى أخرتك معى ، إلى اللقاء الآن ، إنعطف فى « ألتجاس » وتركنى واقفاً هناك أكثر حيرة مما كنت فى حياتى وبمجرد أن ذهب بدا كل شئ قاله لا يُصدق . قابيل شخص نبيل ، هابيل جبان ! علامة قابيل علامة تميز . إن ما قاله دميان كان سخفاً ، كان سباً لله وشراً ، كيف عدل الله فى هذه الحالة ؟ ألم يتقبل قربان هابيل ؟ ألم يحب هابيل ؟ كلا إن ما قاله دميان كان الجنون بعينه . أعتقد أنه أراد أن يجعل منى أضحوكة ويفقدنى ثباتى . صحيح أنه ذكى ويحسن التحدث ، لكنه لن يستطيع أن يفعل ذلك . ليس معى .

لم أول فى حياتى قط مثل هذا القدر من التفكير فى قصة بالكتاب المقدس أو أى قصة أخرى . ولم يكن فرانز كرومر يغيب عن بالى مدة طويلة بشكل كلى . لمدة ساعات أو لمساء كامل فى واقع الأمر .

فى البيت عاودت قراءة القصة كما وردت فى الكتاب المقدس . كانت موجزة لا يكتنفها غموض . لقد صيغت بالفعل للبحث عن معنى خفى بعينه على غرار ذلك يستطيع أن يصرح كل قاتل أنه كان حبيب الله . كلا إن ما قاله دميان هراء . غير أن ما أسعدنى هو السهولة والجرأة التى استطاع أن يقول بها مثل هذه الأشياء ، وكأن كل شئ كان بديهياً ، ثم هذه النظرة التى فى عينيه .

ومع ذلك كان ثمة ما يعترينى بشدة ، كانت حياتى فى اضطراب هائل ، لقد عشتُ فى عالم مأمون ونظيف ، وكنت نفسى أشبه بقابيل . الآن انغمست إلى رأسى فى العالم الآخر ، لقد سقطتُ وهبطتُ إلى الحضيض . . . رغم أنه لم يكن خطئى بشكل أساسى ! كيف لى أن آخذ ذلك فى الاعتبار ؟ الآن ومضت بداخلى ذكرى للحظة أوشكت أن تتركنى خامد الأنفاس . فى هذا المساء المشئوم ، عندما حل شقائى ، كان ثمة ما يتعلق بأبى . أدركت حقيقته وحقيقة عالمه المؤلف من النور والحكمة ولم أشعر سوى بازدراء هذا العالم . نعم ، فى تلك اللحظة أنا ، الذى كان قابيل وحمل العلامة تصورت أن هذه العلامة لم تكن علامة عار ، وأنه نتيجة لشرورى وسوء طالعى ارتقيت عن أبى ، عن الأتقياء والبررة . لم أجرب اللحظة بهذا الشكل ، بهذه الأفكار المشروحة على نحو واضح بيد أن كل هذا كان فى طياتها ، لقد كانت مصدر

انبعاث الإنفعالات ، والدوافع الغريبة التى آلمتنى ومع ذلك ملأتنى بالزهو فى الوقت ذاته . عندما تفكرت كيف تحدث دميان بغرابة عن الشجعان والجبناء ، وما كان من معنى غير عادى أضفاه على العلامة التى حملها قابيل على جبينه ، وكيف كانت عيناه ، عيناه الناضجتان اللافتتان تومضان . لمع السؤال فى ذهنى إذا ما كان دميان نفسه أشبه بقابيل ، لماذا يدافع عن قابيل إذا لم يكن يشعر بصلة نحوه . وعلام تكون له مثل هذه النظرة المتفرسة القوية . لماذا يتحدث بازدراء شديد عن « الآخرين » ، عن المتهيبين ، الذين هم الورعة الحقيقيون ، المختارون من قبل الرب .

لم أستطع أن أخلص بهذه الأفكار إلى أى استنتاج . لقد سقط حجر فى البئر ، وكان البئر روح صباى . ولأمد طويل جداً شكلت مسألة قابيل ، قتل الأخ والعلامة نقطة انطلاق لكل محاولاتى للفهم ، نقطة انطلاق لشكوكى وانتقادى . لاحظتُ أن دميان مارس تأثيراً مماثلاً على الطلبة الآخرين . لم أخبر أياً منهم عن تفسيره لقصة قابيل بيد أنهم بدوا مهتمين به أيضاً . على أية حال ، كانت العديد من الشائعات تدور حول الولد الوافد . آه لو تسنى لى فقط أن أتذكرها جميعاً الآن لألقت كل واحدة بعض الضوء عليه وأمكن تفسيرها .

بادئ ذى بدء أتذكر أن أم دميان أُشيع أنها ثرية ، كذلك زُعم

أنها لم تكن تذهب هى ولا ابنها إلى الكنيسة أبداً . أعزت إحدى القصص ذلك إلى أنهما كانا يدينان باليهودية . غير أنهما ربما كانا مسلمين سراً على حد السواء . ثم كانت هذه المهارة الجسدية الأسطورية لماكس دميان . غير أن هذا يمكن التأكد منه . . حينما عيره أقوى ولد فى فصله ناعتاً إياه بالجبان عندما رفض دميان أن يرجع لينازله ، لقد أذله دميان ، قال هؤلاء الذين حضروا أن دميان أمسك الولد بيد واحدة من رقبته وأخذ يضغط حتى اصفر لونه ، بعد ذلك انزوى الولد بعيداً ولم يتمكن من استعمال يده على مدار أسبوع كامل . ذات مساء إدعى بعض الأولاد أنه مات لفترة من الزمن كان كل شئ يتم تصديقه . بما فى ذلك الإدعاءات المفرطة . ثم بدا كل شخص وكأنه قد نال كفايته من دميان ، على الرغم من أن الكثير من الشائعات الجانبية لم يعاود الإزدهار ! أعنى أن بعض الأولاد قد أشاعوا أن دميان كان على علاقة بالفتيات ولذا فهو يعرف كل شئ .

فى غضون ذلك أخذت وجهتى مع كرومر سبيلاً لامناص منه . لأنه حتى عندما كان يتركنى وشأنى أياماًعديدة كنت لا أزال مرتبطاً به . لقد استوطن أحلامى وما فشل أن يمارسه علىّ فى الواقع كان خيالى يسمح له أن يفعله معى فى تلك الأحلام التى كنت عبداً له فيها . لقد كنت حالماً عظيماً على الدوام . ففى الأحلام أغدو أكثر حيوية مما فى الوا قع ، وهذه الأطياف كانت

تستنزف عافيتى وطاقتى . ثمة كابوس متكرر كان كرومر فيه يواصل الإساءة إلىّ . كان يبصق ويجثم فوقى ، الشئ السئ ، أنه كان يحرضنى على ارتكاب أكثر الجرائم بشاعة ، أو بالأحرى لم يكن يحرضنى كثيراً لأنه كان يلجئنى إلى ذلك عن طريق قوة الإقناع المحض . أسوأ هذه الأحلام ذلك الذى استيقظت منه مذعوراً . كان علىّ أن أقوم بقتل أبى ، شحذ كرومر سكيناً ، ووضعها فى يدى ، ثم وقفنا خلف بعض الأشجار فى طريق وتربصنا لشخص ما . لم أكن أعرف من هو . بيد أنه عندما أقبل هذا الشخص وقرص كرومر ذراعى ليوعز إلىّ أن هذا هو الشخص الذى على طعنه كان أبى وعندئذ كنت قد استيقظت .

كنت مازلت أربط بين هذه الأحداث وقصة قابيل وهابيل ، رغم ذلك كنت أفكر قليلاً فى دميان . عندما عاود الإقتراب منى للمرة الأولى كان ذلك على نحو واضح من الغرابة . أيضاً فى حلم . لأننى كنت مازلت أحلم بأننى أتعذب . ومع ذلك فى هذه المرة كان دميان هو الذى جثم فوقى - كان هذا جديداً كلية وترك إنطباعاً عميقاً فى نفسى - إن كل ما قاومته وكل ما كان معاناة لى عندما كان كرومر معذبى كنت أقاسيه بسعادة على أيدى دميان بإحساس هو مزيج من النشوة والخوف على حد السواء . حلمت بهذا الحلم مرتين . ثم استرد كرومر مكانه القديم .

لقد عجزت أعواماً عن التمييز بين ما كنت ألاقيه فى هذه

الأحلام وما كنت ألاقيه فى الواقع . أياً كان الأمر ، فلقد استمرت العلاقة السيئة بكرومر ولم تنته على أية حال حتى بعد ما دفعت أخيراً دينى عن طريق الكثير من السرقات الحقيرة كلا ، لقد علم الآن بشأن هذه السرقات الجديدة منذ أن كان يسألنى كل مرة من أين لى بهذه النقود . فأصبحت أكثر عبودية له مما كنت فى حياتى . هددنى كثيراً بأن يخبر أبى بكل شئ . بيد أنه حتى عندئذ كان خوفى أقل كثيراً من أسفى العميق لأننى لم أقم بإخبار أبى بنفسى منذ البداية .

فى غضون ذلك وعلى الرغم من تعاستى ، لم أكن آسفاً على كل ما حدث على الأقل ليس طوال الوقت ، وأحياناً كنت أشعر أيضاً أن كل شئ يجب أن يحدث كما كان يحدث . لقد كنت فى يدىّ القدر وكان من العبث أن أحاول الفرار .

كان والدىّ أيضاً مكروبين على ما يبدو بسبب الحالة التى كنت عليها . لقد استولت علىّ روح غريبة ، ولم أعد أتلاءم وسط عشيرتنا بحميمية شديدة مرة أخرى ، ومع ذلك كان ينتابنى شوق جامح للعودة إليهم كالعودة إلى الفردوس المفقود . لقد عاملتنى أمى على وجه الخصوص كمعتل أكثر منى كوغد ، لكن مكانتى الحقيقية بين العائلة كانت هى تلك التى استطعت أن أكون بها أفضل تقييماً من خلال موقف أخواتى . كان موقفهن واحداً من المواقف المفرطة فى التسامح والذى أُعتبرت من خلاله أشبه

بمجنون يرثى لحاله مما يعتب عليه . ولكن رغم ذلك به مس من الشيطان . صلين بحماس غير عادى لأجلى وكنت فى منتهى التعاسة عندما أدركت عدم جدوى هذه الصلوات . كثيراً ما شعرتُ بحاجة ملحة للراحة ، لمصارحة حقيقية ، ومع ذلك أدركتُ سلفاً أننى لن أستطيع أن أبوح لأمى وأبى وأشرح كل شئ كما ينبغى ، عرفت أن كل ما قلته كانا يتقبلانه من باب التعاطف ولذا كانا يوافقان ، ويرثيان لحالى أيضاً . لكنهما لم يفهما ، فلقد اعتبرا الأمر برمته انحرافاً وقتياً بينما كان فى الحقيقة قدرى . أعرف أن بعض الناس لن يصدقوا أن طفلاً ناهز العاشرة بقليل مهيأ للشعور بمثل هذه الأحاسيس فإننى لا أسوق قصتى إليهم ، إذ أسوق قصتى لهؤلاء الذين لديهم معرفة أفضل بالإنسان . إن الشخص البالغ الذى تعلم أن يترجم جزءاً من مشاعره إلى إهتمامات يلاحظ غياب هذه الإهتمامات لدى الطفل ولذا يمضى إلى تصديق أن الطفل يفتقر إلى هذه التجارب بدوره . ومع ذلك فقلما شعرتُ فى حياتى وعانيت بشدة مثلما عانيتُ فى ذلك الوقت .

فى أحد الايام كانت تمطر وكان كرومر قد أمرنى أن أقابله فى « برجبلاتز » وهناك كنت أقف منتظراً ، مجرجراً قدمى بين أوراق الكستناء المبتلة والتى كانت لا تزال تتساقط من الأشجار السوداء المبللة . لم يكن معى نقود غير أننى تمكنت من إدخار قطعتى كعك وأحضرتهما معى بحيث أتمكن من إعطاء كرومر شيئاً على الأقل .

إعتدت آنذاك أن أقف فى ركن منتظراً إياه ، لفترة طويلة جداً فى أغلب الأمر ، ولقد رضيت بهذا بنفس الطريقة التى يتعلم بها المرء أن يتحمل ما لا مناص منه . أخيراً لاح كرومر . لم يمكث طويلاً . لكزنى فى صدرى بضع مرات ، ضحك ، أخذ الكعك . قدم لى سيجارة حقيرة « لم اقبلها بأية حال » وكان ودوداً أكثر من العادة .

قال بلا مبالاة قبل أن ينصرف : آه قبل أن أنسى ، يمكنك أن تحضر أختك معك فى المرة القادمة ، الأخت الكبرى ، ما إسمها ؟

لم أكترث بما يقصده . ولم أرد عليه . تطلعت إليه فحسب مندهشاً .

« ألا تفهم ؟ عليك أن تحضر أختك »

كلا يا كرومر ، هذا مستحيل ، لم يكن ليسمح لى بذلك . ثم أنها لن تأتى على أية حال .

لقد إستعددت لحيلته الجديدة أو ذريعته . فكثيراً ما كان يفعل هذا ، أى يطلب منى أشياء مستحيلة ، يخيفنى ويحقرنى ، ثم شيئاً فشيئاً يعرض صفقة كمخرج ، وكان علىّ أن أخلص نفسى من ابتزازه ببعض النقود أو بهدية .

فى هذه المرة كان الأمر مختلفاً تماماً . ولم يبد أن رفضى قد أغضبه على الإطلاق .

قال فى لهجة عملية : حسن ، على أية حال فكر جيداً فى

ذلك إننى أود أن ألتقى بأختك . سوف نجد طريقة فى أحد هذه الأيام . يمكنك ببساطة أن تأخذها معك فى جولة ، عندئذ يتسنى لى أن أنضم إليكما . سوف أعطى لك صفارة غداً . ثم يمكننا التحدث فى هذا باستفاضة بعض الشئ . وبعدما انصرف تكشَّف لى فجأة بعضاً من طبيعة طلبه . كنت مازلت إلى حد ما لا أعرف عن هذه الأمور لكننى عرفتُ عن طريق القيل والقال أن الأولاد والبنات عندما يكبرون يكونون مهيئين لفعل أشياء جد غامضة ومقززة ومحرمة معاً .

والآن قد افترضت أن . . فجأة إلتمع فى رأسى كم كان طلبه فظيعاً ! أدركت على الفور أننى لم أكن لأفعل . ولكن ماذا سيحدث عندئذ ؟ أى قصاص سيقتصه كرومر منى . لم أقدم على التفكير فى هذا . فكانت بداية عذاب جديد لى . سرت بلا عزاء ، عبر ميدان موحش ، يداى فى جيبى . فى انتظارى عذابات قصوى وشديدة . فجأة نادانى صوت قوى وبشوش أُخذت وبدأتُ فى الفرار . شخص ما كان فى أعقابى . ثم أمسكت يد بى بلطف من خلفى . لقد كان ماكس دميان .

قلت باهتزاز : أوه إنه أنت ، لقد أصبتنى بصدمة مروعة .

نظر إلى بازدراء وأبداً لم تكن نظرته أكثر نضجاً وترفعاً ، نظرة شخص يستطيع أن يستشف ما بداخلى . لم نكن قد تحدثنا معاً من فترة طويلة .

قال بأسلوبه المهذب ومع ذلك كان حاسماً .

- إننى مشفق لأجلك ، إسمع لا يمكنك أن تترك نفسك خائفاً هكذا .

- حسن ، المرء لا يمكنه دائماً تجنب ذلك .

- هكذا يبدو الأمر ، لكن انظر . إذا توانيت أمام شخص ما لم يلحق بك أذى ، عندئذ يبدأ ذلك الشخص فى التفكير . تعتريه الدهشة ويغدو فضولياً ، ويعتقد أنك مضطرب بشكل ملحوظ ، ويصل إلى استنتاج أن الناس يكونون دائماً فى مثل هذه الحالة ، عندما يموتون فى جلدهم . الجبناء خائفون على الدوام ، لكنك لست جباناً . أليس كذلك ؟ مؤكد أنك لست بطلاً أيضاً . هناك أشياء أنت خائف منها وبعض الناس أيضاً . وهذا لا يجب أن يحدث ، لا ينبغى أبداً أن تخشى من الناس . فأنت لست خائفاً منى ، أم تُراك خائف ؟

- أوه . كلا ، كلا على الإطلاق .

- تمام . لكن هناك أُناساً تخشى منهم .

- لا أعرف . . لماذا لا تتركنى وشأنى ؟

إستمر يخطو فى توافق معى . وقد أسرعتُ فى الخطى بقصد الهروب وشعرت به ينظر إلى من جانبى .

بدأ ثانية ، فلنفترض أننى لا أقصد أن أُلحق بك أى أذى . على أية حال لست فى حاجة للخوف منى . أود أن أجرب عليك

مجرد تجربة . ربما تكون مسلية وربما أيضاً تتعلم منها شيئاً . الآن خذ بالك - كما ترى ، إننى أحياناً - أمارس حيلة تسمى قراءة الأفكار . ليس لها دخل بالسحر الأسود لكنك لو لم تكن تعرف كيف تؤدى من شأنها أن تبدو غريبة . يمكنك حتى أن تذهل بها الناس . . فلنوليها الآن محاولة . حسن ، أنا أحبك ، أو أنا مهتم بك وأود أن أكشف عما يعتمل بداخلك . لقد اتخذت بالفعل الخطوة الأولى فى هذا الطريق : أعنى أننى قد أخفتك ، ولذلك أنت مضطرب . لابد أن هناك أشياء وأناساً أنت خائف منهم . إذا كنت خائفاً من شخص ما ، فأغلب الظن أن هذا الشخص لديه ما يدينك . على سبيل المثال ، أنت ارتكبت خطأ ما وكان ذلك الشخص على دراية به . . لقد تمكن منك . هل وصلك ذلك ؟ واضح جداً ، أليس كذلك ؟ منعدم الحيلة تطلعتُ إلى وجهه الذى كان جاداً وموحياً بالذكاء كدأبه دائماً ومع ذلك إفتقرت صرامته المتقطعة إلى الرقة ، ثمة نزاهة أو شئ من هذا القبيل كان فى طياتها . لقد كنت أعي بالكاد ما يحدث لى :

وقف أمامى كساحر ، وعاود السؤال : هل وصلك هذا ؟

أومأتُ برأسى عاجزاً عن الكلام .

- لقد أخبرتُك ، أن قراءة أفكار الناس تبدو غريبة لكنها بديهية تماماً . على سبيل المثال يمكننى أن أخبرك بشىء من الدقة ما الذى اعتقدته بشأنى عندما أخبرتك بقصة قابيل وهابيل .

حسن ، هذا ليس الوقت المناسب للتحدث فى ذلك . أعتقد أيضاً أنه ربما تكون قد حلمت بى مرة . لكن فلنطرح ذلك جانباً أيضاً . أنت ذكى ومعظم الناس أغبياء . وأنا أفضل التحدث إلى شخص ذكى من الآن فصاعداً ، شخص ما يُمكننى أن أثق فيه . أنت لا تمانع ، أليس كذلك ؟

- بالطبع لا ، لكننى لا أفهم .

- فلنستمر فى تجربتنا المسلية . لقد اكتشفنا إذن أن الفتى « س » من السهل إخافته - إنه خائف من شخص ما - محتمل أنه يتقاسم سراً مع هذا الشخص الآخر ، سراً يجعله مرتبكاً . هل يتوافق هذا إلى حد ما مع الواقع ؟

وكأننى فى حلم ، أذعنتُ إلى صوته وتأثيره . بدا صوته كأنه ينبعث من قرارة نفسى وقد اطلع على كل شئ . هل كان يعرف كل شئ أكثر وضوحاً وأفضل منى أنا نفسى ؟

ربَّت دميان بثبات على كتفى .

إذن كان ذلك ما فى الأمر ؟ لقد إعتقدت أن هذا محتمل .

- الآن سؤال واحد فقط . هل يتسنى لك أن تعرف إسم الولد الذى تركك هناك فى برجبلاتز ؟

لقد روعت . إذ اقترب من سرى .

« أى ولد ؟ لم يكن ثمة ولد غيرى »

ضحك . « هيا ما إسمه »

همست : هل تعنى فرانز كرومر ؟

أومأ إلى إيماءة رضا

ممتاز أنت على ما يرام ، الآن سنصبح أصدقاء . بيد أننى أولا ينبغى على أن أخبرك بشئ . إن هذا الكرومر أو أياً يكون إسمه وجهه يُنبئنى أنه وغد من الدرجة الأولى .

تنهدت : نعم ، إنه شرير تماماً ، لكنه لا يجب أن يعلم عن هذا كرامة لله . لا يجب أن يكتشف أى شئ ، هل تعرفه ؟ هل يعرفك ؟

« إطمئن لقد رحل . وهو لا يعرفنى ، ليس بعد . لكننى أحب أن أقابله . إنه يذهب إلى المدرسة العامة .

أليس كذلك ؟

« نعم »

« فى أى صف ؟ »

« الخامس . لكن لا تخبره بشئ . أرجوك »

« لا تقلق لن يحدث لك شئ . أعتقد أنك لا تريد أن تخبرنى بالمزيد عن هذا الكرومر »

« لا أستطيع »

ظل صامتاً لبرهة .

قال : خسارة كبيرة ، يُمكننا أن ننقل مسرح التجربة أبعد . لكننى لا أُريد أن أُزعجك كلية . من ناحية ثانية أنت تعرف أليس

كذلك ؟ إن خوفك منه لا أساس له من الصحة ، إن مثل هذا الخوف يدمرنا كُلية . يجب عليك أن تتخلص منه ، ينبغى عليك ببساطة أن تفعل . إذا أردت اللجوء إلى شخص مخلص ، أنت تفهم هذا . أليس كذلك ؟

– بالتأكيد ، أنت على حق تماماً .. ولكن الأمر جد معقد .. أنت ليس لديك فكرة .

– لقد رأيت أننى أعرف بالفعل بضعة أشياء عنك ، أبعد مما كنت تتخيل .

هل تدين له بأى نقود ؟

– نعم ، هذا أيضاً ، لكنه ليس لب الموضوع . لا أستطيع أن أُخبرك إننى فقط لا أستطيع .

– هل يفى بالغرض إذا أعطيتك مقدار ما تدين له ؟

– كلا ليس هذا ما فى الأمر . وأنت .. عدنى ألا تخبر أى شخص عن هذا ، كلمة واحدة .

– يمكنك أن تثق بى يا سينكلير يمكنك أن تُفضى لى بسرك وقتاً آخر .

صحت : مطلقاً

– كما تحب . كل ما قصدته أنه ربما تخبرنى فى وقت آخر . طواعية بالطبع فأنت لا تعتقد أننى سأعاملك بطريقة كرومر ، أليس كذلك ؟

– أوه ، كلا بالطبع ، ولكن ما الذى تعرفه عن ذلك على أية حال ؟

– لا شئ مطلقاً ، لقد تفكرت فقط فى هذا ولم أكن لأفعله بطريقة كرومر ، يمكنك أن تكون متأكداً من ذلك ، فضلاً عن أنك لا تدين لى بأى شئ .

ظللنا صامتين فترة وبدأتُ فى الهدوء ، ومع ذلك ألفيتُ معلومات دميان برمتها أكثر تعقيداً . « أنا عائد إلى البيت الآن » قال وأحكم معطفه حول نفسه فى المطر « هناك فقط شئ آخر أود أن أنصحك به قبل أن نفترق . . عليك أن تتخلص من هذا الوغد ! إذا لم يكن من طريقه لعمل ذلك ، اقتله ، سيكون من دواعى إعجابى وسرورى إذا فعلت ! يسرنى أيضاً أن أقدم لك يد العون » .

تكررت فجأة أمامى قصة قابيل ، وعاودنى الخوف وطفق كل شئ يبدو مشئوماً فبدأت أنشج بالبكاء . لقد كنت محاطاً بالكثير للغاية مما لم أكن أفهمه .

إبتسم ماكس دميان : حسن . عد إلى البيت . سوف نصل إلى طريقة ، رغم أن قتله سيكون أبسط الطرق . إن أبسط طريقة فى مثل هذه الحالات هى الأفضل دائماً . إن صديقك كرومر ليس أحسن صديق تحظى به .

تلمست طريقى إلى البيت وبدا لى كأننى كنتُ بعيداً عنه طيلة عام .

كان كل شئ يبدو مختلفاً . شيئاً ما أشبه بالمستقبل . أشبه بالأمل يفصلنى الآن عن كرومر . لم أعد وحيداً . الآن فقط أدركتُ بالفعل كم كنت منعزلاً على نحو كريه مع سرى أسابيع عديدة . وفى الحال تذكرت فكرة واتتنى مراراً من قبل . وهى أن مجرد الإعتراف إلى والدى كان سيخفف من عبئى لكنه لم يكن ليخلصنى منه تماماً . الآن أوشكت أن أصارح شخصاً آخر . . شخصاً غريب الأطوار وكان الشعور بالإرتياح أشبه بالنسيم العليل .

رغم ذلك كان خوفى أبعد من أن يُقهر وكنت أستعد لسلسلة طويلة من المشاحنات المروعة مع عدوى . لهذا السبب كان من الواضح أن تأخذ هذه المسائل مثل هذه المرحلة من التريث والحذر ليوم ، ليومين ، لأسبوع كامل لم يكن ثمة صدى لصفارة كرومر قرب منزلنا لقد أقدمت بصعوبة على أن أصدق هذا ومكثت باستمرار فى إنتظار اللحظة التى فجأة على الأقل يُنتظر فيها أن يعاود الظهور . لكن بدا وكأنه اختفى .

رفضت أن أومن بحريتى الجديدة غير واثق منها . إلى أن هرعت أخيراً إلى فرانز كرومر . عندما رآنى تراجع وارتعد وجهه ثم إبتعد حتى يتجنب مقابلتى . لقد كانت لحظة غير مسبوقة بالنسبة لى . إن عدوى يفر منى وشيطانى يهابنى .

فى أحد الأيام هرولت إلى دميان . كان فى انتظارى أمام المدرسة .

قلت : أهلاً .

– صباح الخير يا سينكلير . أردت فقط أن أعرف كيف تسير الأمور . كرومر لم يعد يضايقك . أليس كذلك ؟

– هل هذا من صنيعك ؟ كيف نجحت فى هذا ؟ لا أفهم هذا مطلقاً ، فلقد ظل بعيداً تماماً .

– حسن ، إذا عاود الظهور – لا أعتقد أنه سيفعل ، لكنه قاس تماماً – فقط أخبره ألا ينسى ماكس دميان .

– ولكن ما العلاقة ؟ هل افتعلت مشاجرة وأوسعته ضرباً ؟

– كلا . ليست طريقتى فى تسوية الأمور . فقط تحدثت إليه كما تحدثت إليك واستطعت أن أُظهر له أن من مصلحته أن يتركك وشأنك .

– أتمنى ألا تكون قد دفعت له أى نقود ؟

– كلا تلك طريقتك .

لقد تفادى كل أسئلتى تاركاً إياى بنفس الشعور المضطرب الذى كان لدىَّ فيما قبل تجاهه أقصد ذلك الخليط الغريب من العرفان والرهبة ، الإعجاب والخوف ، التعاطف والرفض الداخلى .

قررت أن أبحث عنه وأتحدث بالتفصيل عن كل هذه الأمور ، ناهيك عن مسالة قابيل ولكن لم تمض الأمور على هذا النحو .

العرفان ليس بالفضيلة التى أومن بها ، وبالنسبة لى يبدو من قبيل الرياء أن أنتظرها من طفل . وهكذا لم يدهشنى كثيراً عدم عرفانى التام نحو دميان . وليس لدى شك اليوم مطلقاً أننى كنت سأمرض وأدمر حياتى لو لم يخلصنى من براثن كرومر . حتى فى ذلك الحين كنت أدرك أن هذا التحرير كان الخبرة العظمى فى حياتى ، لكننى تخليت عن المحرر نفسه بمجرد أن حقق معجزته . كما أسلفت ، لم يدهشنى عدم العرفان غير أن ما أدهشنى حقاً فى استرجاعى للأحداث هو افتقارى إلى الفضول . كيف تسنى لى أن أواصل العيش يوماً واحداً دون أن أحاول الإقتراب من السر الذى افتضحه لى دميان ؟ كيف لم أكن أريد أن أعرف المزيد عن قابيل . المزيد عن كرومر ، المزيد عن موهبة دميان فى قراءة أفكار الناس ؟

من الصعب تصديق هذا ولكنه ما حدث . ألفيت نفسى فجأة وقد خرجت من متاهة شيطانية . مرة ثانية رأيت الدنيا من أمامى مشرقة ومفعمة بالمرح ولم أعد أخضع لنوبات الخوف الخانق . لقد انفك السحر ، ولم أعد ملعوناً ومعذباً . لقد أصبحت تلميذاً مرة ثانية . وحاولت بكل كينونتى إستعادة توازنها بسرعة على قدر الإمكان لأعلن عصيانى وأنسى الأشياء الشريرة التى كانت تهددنى والتى كنت أمضى فى معرفتها . لقد تسرب مسلسل الخطيئة والرعب من ذاكرتى بسرعة هائلة ودون أن يخلف أى ندوب ظاهرة أو آثار غائرة .

على أننى اليوم استطعتُ أن أفهم لماذا بذلت جهدى لأنسى منقذى بسرعة شديدة . لقد لذتُ بالفرار من وادى الإبتلاء ومن عبوديتى الكريهة لكرومر وبكل الجهد الذى كان لدى تصرف نفسى الجريحة : أعنى عائداً إلى حيث كنت سعيداً وراض ، عائداً إلى الفردوس المفقود الذى كانت أبوابه تتفتح الآن لى ، عائداً إلى عالم أبى وأمى المضىء والخالى من الهم ، عائداً إلى أخواتى ، إلى شذى النظافة وطاعة قابيل .

وبالفعل ، فى ذلك اليوم وبعد حديثى القصير مع دميان . عندما إقتنعت تماماً فى النهاية باستعادتى لحريتى ولم أعد خائفاً من معاودة فقدانها ، فعلت ما أردت أن أفعله مراراً وعلى نحو يائس فيما مضى .

لقد اعترفت .. قصدت أمى ، أطلعتها على الحصالة المكسورة المملوءة بنقود اللعب . أخبرتها كم من الوقت ألزمت نفسى عن طريق خطيئة من صنع يدى بمعذب شرير . لم تفهم كل شىء لكنها رأت سيمائى المختلفة ولاحظت التغير فى نبرة صوتى فأدركت أننى تماثلت للشفاء .

ثم بدأ الإحتفال بعودتى إلى الحظيرة ، عودة الابن الضال . أخذتنى أمى إلى أبى ، تكررت القصة ، كانت هناك أسئلة وعلامات اندهاش ، خلل كلا الأبوين أصابعهما فى شعرى وزفرا زفرة إرتياح بعد فترة طويلة من الإضطهاد . أصبح كل شىء

مبهجاً . سار كل شئ كما كانت تحكى القصص التى قرأتها ، لقد انحل كل شئ من تلقاء نفسه فى توافق رائع . لقد خدرت نفسى فى التشبع بأننى قد استعدت راحة بالى وثقة والدىّ ، لقد أصبحت أفضل ولد نموذجى فى البيت ، ولعبت مع أخواتى أكثر من أى وقت فى حياتى . أنشدت أثناء أوقات التعبد كل ترانيمى المحببة بحماس شخص تم إنقاذه ، شخص قد اهتدى ، لقد انبعثت من سويداء قلبى ولم يكن ثمة ما يعتريها .

لم يكن كل شئ يعود بالتتابع . وهذه هى الحقيقة التى تسببت بالفعل فى إهمالى لدميان . لقد حدث أن صارحتُه . وكانت المصارحة أقل تعاطفاً ومؤثرة بيد أنها كانت مثمرة إلى حد بعيد . لقد عدت إلى سابق عهدى ، إلى عالم الجنة . لم يكن هذا عالم دميان . فلم يكن له أن يعيش فى هذا العالم أبداً - فهو أيضاً - على الرغم من اختلافه عن كرورمر كان محرضاً ، فهو أيضاً كان يمثل رابطة بالعالم الثانى الشرير الذى لم أعد أريد أن يكون لى صلة به . لم أكن أريد التضحية بهابيل من أجل مجد قابيل ليس فقط الآن بعد ما أصبحت مرة أخرى هابيل ، كانت هذه هى الأسباب الخارجية . أما الأسباب الداخلية من ناحية أخرى كانت كمايلى : لقد تحررت من كرومر ومن أيدى الشيطان ولكن بدون قوة أو جهد منى . لقد حاولت اجتياز متاهة العالم بيد أن الطريق إتضح أنه وعر جداً علىّ ، الآن خلصتنى تلك اليد الصديقة

فتراجعت دون أن ألتفت إلى اليسار أو اليمين إنما مباشرة إلى حضن أمى وإلى سكينة الأتقياء ، إلى مأوى الطفولة . حوَّلت نفسى إلى شخص أصغر ، أكثر تبعية وأكثر طفولة مما كنت . كان علىَّ أن أُبدل إعتمادى على كرومر بشخص جديد ، لأننى كنت غير قادر على السير بمفردى . وهكذا فى عماء بصيرتى اخترت أن أعتمد على أبى وأمى ، فى عالم النور القديم المدلل ، رغم أننى كنت أعرف من الآن أنه لم يكن العالم الأوحد .

لو لم أنح هذا المنحى لكان على أن أعتمد على دميان وأعهد بنفسى إليه . لذلك لم أفعل هذا فى الوقت الذى كان يبدو فيه وكأنه نتيجة لشكى فى أفكار دميان الغريبة المقنعة ، بينما كان فى الواقع بسبب خوفى . لأن دميان كان سيكون أكثر قوة إلى حد بعيد من والدىّ ، كان سيحاول أن يجعلنى أكثر إستقلالية باستخدام الإقناع والإرشاد والسخرية والإستهزاء . اليوم أدرك أنه لا شئ فى العالم أكثر كراهة للإنسان من أن يسلك السبيل الذى يفضى به إلى نفسه .

بعد ستة شهور لم أستطع أن اقاوم الإغراء فسألت أبى أثناء جولة ماذا على المرء أن يصنع إزاء حقيقة أن بعض الناس اعتبروا أن قابيل شخصاً أفضل من هابيل . إندهش كثيراً وأوضح أن هذا كان تفسيراً يفتقر إلى المصدر كلية ، ولقد ظهر بالفعل إبان عصور العهد القديم وكانت تقوم بتعليمه عدد من النِحل ، كانت إحداها

تُسمى بـ « القبالة » بيد أن هذا المذهب الأخرق كان مجرد محاولة من جانب الشيطان لطمث إيماننا . لأنه إذا صدَّق المرء أن قابيل كان مصيباً وأن هابيل كان على خطأ لترتب على ذلك أن الله قد اقترف خطأ ، بعبارة أخرى أن إله الكتاب المقدس لم يكن الإله الحقيقي والأوحد لكنه إله مزيف ، لقد علم القبالة ووعظوا بشيء من هذا القبيل ، غير أن هذا التخريف إختفى من على وجه الأرض من قديم الأزل ، وكان فقط مندهشاً من أن زميلاً لي بالمدرسة ينبغي أن يكون على علم بهذا ، وحذرني بشدة من اعتناق مثل هذه الأفكار .

بين اللصوص

لو أردت لاستطعت أن أسترجع العديد من اللحظات الناعمة : الإحساس بالحماية الذى منحه لى والدىّ ، طبيعتى الودودة ، العيش فى بساطة حياةً مرحة وراضية وسط بيئة لطيفة . بيد أن اهتمامى ينصب على الخطوات التى اتخذتها لكى أصل إلى نفسى . فكل لحظات الهدوء وجزر السلام التى كنت أشعر بسحرها أتركها الآن خلف ظهرى فى مكان بعيد ومسحور . ولن أطلب أن أطأ قط بقدمى هناك مرة ثانية .

لهذا السبب « على قدر ما استكنتُ فى طفولتى » سوف أركز على الأشياء التى داهمتها من الخارج تلك التى كانت جديدة والتى كانت تدفعنى للأمام أو تجبرنى على التوقف ، كانت هذه الدوافع تفد دائما من العالم الآخر ، مصحوبة بالخوف والإكراه والضمير الفاسد ، كانت ثورية على الدوام وتهدد السكينة التى كنتُ أسعد بمواصلة العيش فيها .

ثم أقبلت هذه السنوات التى أجبرت من خلالها على إدراك وجود دافع بداخلى كان عليه أن يجعل من نفسه ضئيلاً ومتوارياً عن عالم النور . إحساس اليقظة البطيئة لجنسيتى الخاصة بى

والذى كان ينتابنى كما ينتاب كل شخص باعتباره عدواً وإرهابياً ، وباعتباره شيئاً مُحرما ، مغرياً وآثماً . إن ما كان فضولى يبحث عنه ، إن ما كانت تتفتق عنه الأحلام والشهوة والخوف « السر العظيم للبلوغ » لم يكن يتناسب برمته مع « مأوى طفولتى » لقد تصرفت مثل أى شخص . فرحت أعيش الحياة المزدوجة لطفل لم يعد طفلاً ، فراحت ذاتى الخجلى تحيا فى خضم العالم المعتاد ، الرسمى . فلقد أنكرتُ العالم الجديد الذى كان يتفتق بداخلى . جنباً إلى جنب مع ذلك كنت أعيش فى عالم من الأحلام والدوافع والرغبات لطبيعة سفلية ، حيث بنت نفسى الخجلى عبرها قناطرها الهشة ، لأن عالم الطفولة كان يتداعى بداخلى .

كان أبوىّ مثل معظم الآباء ليس بوسعهم تقديم يد العون فى هذه المشكلة الجديدة المتعلقة بالبلوغ ، والتى لم تظهر قط دلالة عليها . كل ما فعلاه أنهما كانا يحملان على عاتقيهما دعم محاولاتى اليائسة لرفض الواقع ومواصلة العيش فى عالم الطفولة الذى أصبح أكثر وأكثر زيفاً .

ليس لدى أدنى فكرة إذا ما كان الآباء فى استطاعتهم تقديم المعونة ، وأنا لا أُلقى باللوم على والدىّ ، فلقد كان شأنى أنا فى أن أتفاهم مع نفسى وأن أتلمس طريقى الخاص ، ومثل معظم الأطفال حسنى التربية أسأتُ التصرف .

إن كل شخص يجتاز هذه الأزمة . وبالنسبة للشخص

العادى ، فهذه هى المرحلة التى تتحول عندها حاجات حياته الخاصة إلى أكثر الصراعات عنفاً مع البيئة . حيث يكون لزاماً على الطريق من أمامه أن يتم البحث عنه بأكثر الوسائل قسوة . العديد من الناس لا يجربون الموت والولادة من جديد - الذى يعد قدرنا - سوى هذه المرة على مدار حياتهم بطولها فتغدو طفولتهم حفرة ، تأخذ فى الإنهيار شيئاً فشيئاً ، وكل ما يحبونه يتخلى عنهم وفجأة يشعرون بأنهم محاطين بالوحشة والبلادة المميتة للكون. كثيرون يعلقون للأبد فى هذه الأزمة . ويظلون بقية حياتهم متمسكين بالماضى المنصرم ، وحلم الفردوس المفقود الذى يعد أسوأ الأحلام وأشدها قسوة .

فلأرجع إلى قصتى . إن الأحاسيس ، وصور الحلم التى تؤذن بنهاية طفولتى كثيرة جداً لدرجة روايتها بالجملة . غير أن الشئ المهم أن العالم المظلم ، العالم الآخر عاود الظهور . فما كانه فرانز كرومر يوماً ما أصبح جزاءاً منى الآن .

لقد مرت عدة سنوات على حكايتى مع كرومر . ذلك الزمن المؤسف الذى كان يرشح بالخطيئة ، يقر الآن بعيداً فى الماضى ، وبدا كأنه كابوس قصير انقضى سريعاً .

لقد انقضى وقت طويل منذ أن خرج فرانز كرومر من حياتى . قلما كنت أنتبه إليه عندما كان يصدف لى أن أقابله فى الشارع . الشخصية الأخرى المهمة فى مأساتى الصغيرة هى ماكس دميان . فلم يكن ليخرج من حياتى أبداً مرة ثانية .

ومع ذلك ظل فحسب فترة طويلة عند أطرافها البعيدة ، يمكن رؤيته غير أنه خارج حيز المدى المؤثر . إلا أنه راح يقترب شيئاً فشيئاً معاوداً بث القوة والتأثير .

إننى أحاول أن أرى ما يمكننى أن أتذكره من دميان آنذاك . من الجائز تماماً أننى لم أكن قد تحدثت معه مرة واحدة طيلة عام كامل أو يزيد ، لقد كنت أتحاشاه وهو لم يفرض نفسه علىَّ بأية حال . فى المناسبات النادرة التى تقابلنا فيها ، كان فحسب يومئ إلىّ ، أحياناً كان ذلك يبدو بدوره وكأن صداقتنا أضحت مشوبة بالسخرية أو بانتقاد لاذع . بيد أنه ربما تهيأ لى هذا . فالتجربة التى تقاسمناها والتأثير الغريب الذى مارسه علىَّ آنذاك نسيه كلٌ منا على ما يبدو .

يمكننى إسترجاع كيف كان يبدو وها أنا الآن أبدأ فى التذكر ، أستطيع أن أرى أنه لم يكن جد بعيداً عنى على أية حال وأننى كنتُ بالفعل ألاحظه . يمكننى أن أراه فى طريقه إلى المدرسة ، بمفرده أو مع شلة من الطلبة الأكبر ، كذلك أراه غريباً ، وحيداً وصامتاً وشارداً بينهم مثل كوكب منفصل محاط بهالة تخصه ، وبقانون لنفسه . لم يرق لأحد ولم يكن أحد على علاقة حميمة به باستثناء أمه ، حتى هذه العلاقة بدورها لم تكن من قبيل علاقة بطفل بل علاقة بشخص بالغ . عندما يتسنى للمدرسين كانوا يتركونه دون متابعة . فلقد كان طالباً ذكياً بيد أنه لم يتجشم مشقة خاصة لإدخال السرور على الآخرين . بين الحين

والآخر كنا نسمع بكلمة ما أو تعليقٍ ساخرٍ أوردٍ لاذع شاع أنه أصدره لمدرس « تلك الأشياء التى باعتبارها نوادر للإستفزاز والسخرية » تركت بعض الشئ للترغيب فيه .

عندما أغمض عينى لأسترجع أستطيع أن أرى صورته تبزغ الآن . أين كان ذلك ؟ نعم ، أتذكر الآن : فى الزقاق الصغير أمام منزلنا .فلقد رأيته ذات يوم و واقفاً هناك وبيده كراسة رسم ، كان يرسم شعار النبالة القديم ذى الطائر فوق مدخل منزلنا . بينما كنت أقف فى النافذة ، وراء الستارة أراقبه ، لقد كنت مأخوذاً بشدة بوجهه المدرك ، رابط الجأش . ذو البشرة المشرقة ذلك الذى كان يطالع شعار النبالة ، وجه رجل ، وجه عالم أو فنان ، شامخ وعاقد العزم وضيئ على نحو غريب ورزين ، ذو عينين خبيرتين . ويمكننى أن أراه فى فرصة أخرى كانت بعد ذلك بأسابيع قليلة ، فى الشارع أيضاً . كان كل منا يقف فى طريق عودته من المدرسة على مقربة من حصان متهالك . كان يقف أمام عربة فلاح ومازال عالقاً بالذراع ، ينخر من أنف متسع بطريقة يُرثى لها ، وينزف من جرح خفى فتلطخ التراب الأبيض على أحد جانبى الطريق . عندما أشحت بوجهى مشمئزاً رأيت وجه دميان . لم يكن ليتدافع بنفسه إلى الأمام ، بيد أنه وقف فى الخلف بعيداً ، مطمئناً وأنيق الملبس كالعادة . بدت عيناه مركزتين على رأس الحصان وللمرة الثانية كانت تعكس هذا

الإستغراق العميق والهادئ ، المتعصب بعض الشئ ومع ذلك كان إستغراقاً رزيناً لم يسعنى سوى النظر إليه لمرة ثم حدث لى أن شعرت بالوحشة وبإحساس غريب . رأيت وجه دميان ، ولاحظت أنه لم يكن فقط وجه طفل ، بل وجه رجل أيضاً . كذلك أحسست أو رأيت أنه لم يكن وجه رجل تماماً ، بل كان يعتريه شئ أنثوى أيضاً . و مع ذلك فقد لفت الوجه انتباهى فى تلك اللحظة ليس باعتباره ذكورياً ولا طفولياً وليس باعتياره عجوزاً ولا شاباً ، ولكن بطريقة ما كأن عمره ألف سنة ، بطريقة ما كأنه أبدى ، حامل ندوب تاريخ مختلف كلية عما عرفناه ، لا أعرف على وجه الدقة حقيقة الشعور الذى انتابنى فى تلك اللحظة ، بيد أنه يبدو الآن أنه شئ من هذا القبيل .

ربما كان وسيماً ، ربما راق لى ، ربما أيضاً وجدته مقززاً ، لا يسعنى التأكد من هذا أيضاً . كل ما كنت أراه أنه كان مختلفاً عنا ، كان يشبه حيواناً أو يشبه روحاً أو يشبه لوحةً ، كان مختلفاً . مختلفاً بشكل لا يمكن تخيله عن بقيتنا .

تخوننى الذاكرة فلا أستطيع أن أتأكد هل ما وصفته للتو كان إلى حد ما منقولاً من انطباعاتى الأخيرة .

ولكن بعد ذلك بعدة سنوات أصبحت على اتصال مباشر به من جديد . فلم يكن دميان قد تم تعميده بالكنيسة مع مجموعته العمرية كما درجت العادة ، وللمرة الثانية جعل هذا منه هدفاً لإشاعات

متطرفة . فراح الأولاد فى المدرسة يرددون القصة القديمة عن كونه يهودياً أو وثنياً باحتمال كبير ، وكان الآخرون على قناعة بأنه هو وأمه ملحدان أو ينتميان إلى طائفة وهمية وسيئة السمعة .

على غرار هذا أتذكر أيضاً أننى سمعت أنه اشتبه أن يكون عشيق أمه .

أغلب الظن أنه نشأ بدون أية تعاليم دينية بالمرة . ولكن بدا الآن هذا وكأنه نذير شؤم على مستقبله . على أية حال ، فلقد قررت أمه أن تدعه يتلقى دروس التعميد فى نهاية الأمر ، رغم أنه كان أكبر بسنتين من مجموعته العمرية . ومن ثم تصادف أن ذهب لنفس فصل التعميد الذى ذهبتُ إليه . رحت أتجنبه فترة من الوقت كليةً . فلم أرغب أن أتورط معه ، إذ كان محاطاً بكثير من الأساطير والأسرار ، غير أن ما أزعجنى أكثر كان شعوراً لم يغادرنى منذ مسألة كرومر بأنى مدين له . والآن كان لديَّ ما يكفينى من العناء مع أسرار خاصة بى ، إذ أن دروس التعميد تزامنت مع تنويرى الحاسم المتعلق بالجنس ، ورغم كل النوايا الحسنة فلقد كان ولعى بالأمور الدينية قليلاً جداً .

إن ما كان يطرحه القس يوجد بعيداً فى عالم جد مقدس ولكنه غير حقيقى بذاته ،لقد كانت هذه الأشياء بلا شك جميلة تماماً وقيمة ، بيد أنها لم تكن أبداً فى وقتها المناسب ولم تكن مثيرة مثل الأشياء الجديدة التى كنت أفكر فيها .

على قدر ما جعلتنى هذه الحالةغير مكترث بدروس التعميد ، على قدر ما كان إنشغالى مرة ثانية بماكس دميان . ومن ثم بدا الأمر وكأن رابطة بيننا ، رابطة سوف يتحتم على أن أتتبعها عن قرب على قدر الإمكان ، على قدر استطاعتى على التذكر بدأت ذات صباح مبكراً حيث استدعى الأمر أن تظل المصابيح مضاءة فى فصلنا . عرج مدرس الكتاب المقدس - وكان قساً - على قصة قابيل وهابيل . كنت نعساناً ولا أصغى سوى بنصف أذن . بينما راح القس يخطب بصوت جهورى وبإلحاح عن علامة قابيل . أوشكت أن أشعر بلمسة مادية ، بتحذير ، وبينما كنت أرفع بصرى رأيت نصف وجه دميان وقد التفت نحوى نصف التفاته من صف فى الصفوف الأمامية ، بعينين تومضان ، ربما كانتا تعبران عن الإزدراء والتفكير العميق على حد السواء ، لا يمكنك التأكد . لم ينظر لى سوى برهةً وفجأة أصخت السمع إلى كلمات القس ، فسمعته يتحدث عن قابيل وعلامته ، وفى قرارة نفسى كنت أشعر بالمعرفة التى لم تكن كما كان يلقنها . حيث يمكن أن تختلف نظرة المرء إليها ، ومن ثم لم تكن وجهة نظره فوق الإنتقاد .

هذه اللحظة أعادت ترسيخ الرابطة بينى وبين دميان .

ويا للغرابة - فما أن أحسست بقرابة روحية مؤكدة حتى رأيتها تترجم إلى قرب مادى لم يكن عندى فكرة إذا ما كان لديه

القدرة على ترتيبها على هذا النحو أو أنها حدثت بمحض الصدفة - كنت لم أزل شديد الإيمان بالصدف آنذاك - ولكن بعد بضعة أيام فجأة بدَّل دميان المقاعد فى فصل التعميد وجاء ليجلس أمامى - مازال بوسعى أن أتذكر هذا هلى وجه التحديد ، ففى جو الملجأ التعيس للفصل المكتظ أحببت رائحة الصابون المنعش التى كانت تنبعث من ظاهر عنقه - ثم عاود بعد بضعة أيام تبديل المقاعد فأصبح يجلس بجانبى . وهناك ظل طوال الشتاء والربيع . لقد تغيرت ساعات الصباح كليةً . فلم تعد تدفعنى للنوم أو تصيبنى بالضجر لقد كنت أتطلع إليها فى واقع الأمر . أحياناً كان كل منا يصغى إلى القس بأقصى تركيز . وكانت نظرة من جارى يمكن أن تلفت إنتباهى إلى قصة مميزة أو مقولة فريدة . وكانت نظرة أخرى ، نظرة بعينها كفيلة أن تجعلنى إنتقادياً أو مرتاباً .

ومع ذلك كنا لا نعير إهتماماً فى كثير من الأوقات . لم يكن دميان قليل الذوق مع المدرس أو مع زملائه . لم أره قط منغمساً فى المزاحات المعتادة ، ولم أسمعه مرة واحده يقهقه أو يتبادل النميمة أثناء الحصة ، ولم يتعرض أبداً لتأنيب المدرس . غير أنه بهدوء شديد وبإشارات ونظرات أكثر من الهمس ، كان يحتال ليجعلنى أشارك فى أنشطته ، التى كانت تبدو أحياناً غريبة .

على سبيل المثال ، كان يخبرنى أى من الطلبة لفت انتباهه وكيف كان يدرسهم . لقد كان على دراية دقيقة بالبعض منهم .

كان يخبرنى قبل الحصة « عندما أشير بإبهامى سوف يلتفت فلانُ وعلان وينظرون إلينا ، أو سيحك رقبته » أثناء فترة الدراسة ، عندما كان ذلك يوشك أن يغيب تماماً عن بالى . كان ماكس فجأة يحدث بإبهامه إشارة ذات معزى . فأخطف النظر بسرعة إلى الشخص المشار إليه وفى كل مرة كنت أراه يؤدى الحركة المطلوبة مثل دُمية على خيط . رجوت دميان أن يجرب هذا على القس لكنه كان يرفض . اللهم إلا مرة واحدة عندما ذهبت إلى الحصة وأنا بدون تحضير وأخبرته أننى آمل ألا ينادى علىّ القس . لقد أسدى لى خدمة فى ذلك اليوم . كان القس يبحث عن طالب ليسمع نصاً فى كتاب تمارين العقيدة . فراحت عيناه اللتان كانتا تشملان الحجرة تستقران على وجهى المذنب . أخذ يتقدم إلىَّ ببطء ، وإصبعه يشير لى . بينما بدأ إسمى يتشكل على شفتيه . ثم أصبح فجأة مشتت البال أو مرتبكاً ، ثم جذب ياقة قميصه ، وراح يخطو نحو دميان ، الذى كان يحدج فى عينيه مباشرة وبدا كأنه يريد أن يسأله فى شئ . بيد أنه انصرف بعيداً ، ثم تنحنح بضعة مرات ، ونادى على شخص آخر .

رغم أن هذه الخدع كانت تسلينى إلا أننى بدأت ألاحظ شيئاً فشيئاً أن صديقى كان مراراً ما يلعب نفس اللعبة معى . كان ذلك يحدث فى طريقى إلى المدرسة حيث كنتُ أشعر فجأة أن دميان يمشى ورائى غير بعيد وعندما ألتفت أجده بالفعل .

سألته : هل يمكنك بالفعل أن تجعل شخصاً ما يفكر فيما تريد أنت أن يفكر فيه ؟ أجاب فى بديهة حاضرة بأسلوبه الهادئ والواقعى والناضج ، قال : كلا ، لا أستطيع أن أفعل ذلك ، فكما ترى أننا ليس لدينا إرادة حرة . رغم أن القس يدعى ذلك . كذلك ليس بمقدور المرء أن يفكر فيما يريد أن يفكر فيه ، وليس بإمكانى أن أجعله يفكر فيما أريد . على أن المرء يمكنه دراسة شخص ما عن قرب شديد ، عندئذ يمكن للمرء أن يوشك بالضبط أن يتوقع ما يفكر فيه أو يشعر به ثم يمكنه أن يتوقع ما سوف يفعله فى اللحظة التالية . إن هذا بسيط تماماً غير أن الناس لا يعرفون ذلك . بالطبع أنت فى حاجة إلى التدريب . فمثلاً ، يوجد نوع من الفراشات يدعى العثة حيث تكون الإناث أقل شيوعاً بكثير من الذكور . تتناسل العثة بالضبط مثلها مثل كل الحيوانات ، فيخصب الذكر الأنثى وتضع الأنثى البيض . فلنفرض أنك أخذت أنثى عثة - العديد من علماء الطبيعة أجروا هذه التجربة - سوف تزور ذكور العثة هذه الأنثى ليلاً ، وسوف تأتى من مسافة ساعات . من مسافة ساعات ! تخيل ! من مسافة عدة أميال تستشعر كل هذه الذكور الأنثى الوحيدة فى المنطقة . إن المرء ليحاول أن يجد تفسيراً لهذه الظاهرة غير أن الأمر ليس بسيطاً . فلابد أن لها حاسة شم من قبيل حاسة الشم لدى كلب الصيد الذى يستطيع أن يلتقط ويتتبع رائحة غير محسوسة على

ما يبدو . أرأيت ؟ إن الطبيعة تعج بمثل هذه الأشياء التى تستعصى على التفسير . لكن حجتى هى أنه لو كانت إناث العثة كثيرة مثل الذكور لما كان لدى الأخيرة مثل هذه الحاسة شديدة التطور ، إنهم لا يكتسبونها سوى لأنهم يجب أن يدربوا أنفسهم على امتلاكها . لو تسنى لشخص أن يركز كل القوة الخاصة بإرادته على هدف معين عندئذ سوف يحققه . هذا كل ما فى الأمر . وهذا بدوره يجيب على أسئلتك .فلتدرس شخصاً عن قرب إلى حد ما ، وستعرف عنه أكثر مما يعرفه هو عن نفسه .

كان على طرف لسانى أن أذكر « قراءة الأفكار » وأن أذكره بالمشهد مع كرومر الذى يرسو بعيداً فى قاع الماضى . ولكن كان هذا أيضاً غريباً فيما يخص علاقتنا ، أعنى أنه لا هو ولا أنا لمحنا إلى الحادثة التى كانت قبل أن يقتحم علىَّ حياتى بعدة سنوات . بدا الأمر وكأن شيئاً لم يكن بيننا أو كأن كلاً منا عوّل أن الآخر قد نسى .

ذات فرصة أو فرصتين تصادف أن لمحنا فرانز كرومر بالشارع فى مكان ما . ومع ذلك لم ننظر إلى بعضنا البعض ولم ننبس ببنت شفة عنه .

سألته : ما شأن كل هذا بالإرادة ؟ فأنت تقول من ناحية إن إرادتنا ليست حرة ثم تقول من ناحية أخرى إننا بحاجة أن نثبت تركيزنا على غاية ما لكى نحققها . الأمر غير مفهوم . فإذا لم أكن سيد إرادتى عندئذ لن يكون بمقدورى أن أوجهها حسبما أشاء .

ربت على ظهرى كما كان يفعل دائماً عندما يكون مسروراً مني .

قال ضاحكاً : حسناً سألت . ينبغى عليك أن تسأل دائماً وأن يكون عندك باستمرار شكوك . ولكن الأمر جد بسيط . فعلى سبيل المثال إذا كان على العثة أن تركز انتباها على الطيران إلى نجمة أو على شئ غير متاح على حد السواء ، فلم تكن لتنجح قط ، لم تكن حتى لتحاول من باب أولى . فالعثة تقصر بحثها على ما تستدعيه الحاسة والضرورة ، على ما تحتاجه ، وما لا غنى عنه بالنسبة إلى حياتها . وهكذا تحقق العثة ما يصعب تصديقه ، إنها تنمى الحاسة السادسة التى لا يمتلكها كائن آخر ، أما نحن فلدينا مجال أوسع وتعدد اختيارات واهتمامات أوسع من أى حيوان . غير أننا أيضاً محبوسون داخل بوصلة ضيقة نسبياً حيث لا نستطيع أن نفر منها . لو تخيلت أننى أردت رغم كل الظروف أن أصل إلى القطب الشمالى ، لتحقيق ذلك سيكون على أن أرغب فى ذلك بشدة إلى حد ما ، إذاً لأصبحت كل كينونتى موجهة بذلك .

إذا كانت تلك حقيقة الأمر ، فإذا حاولت شيئاً كنت مدفوعاً من داخلك لفعله ، عندئذ سوف تتمكن من إنجازه ، ثم يمكنك أن تشد إليه إرادتك كما يشد فرس مطيع إلى عربة . ولكن إذا كان على أن اقرر الرغبة فى أن يخلع القس نظارته سيكون هذا عبثاً ، سيكون من قبيل التهكم . غير أنه آنذاك فى الخريف عندما عزمت

على الإبتعاد عن مقعدى فى الصف الأمامى ، لم يكن ذلك صعباً بالمرة . فلقد كان هناك فجأة شخص ما اسمه يسبقنى حسب الترتيب الأبجدى ، حيث كان متغيباً للمرض ، عندئذ وباعتبار أن شخصاً كان عليه أن يفسح مجالاً له كان أنا بالطبع لأن إرادتى كانت مهيأة لانتهاز الفرصة فى الحال .

قلت : حقاً ، « لقد استغربت آنذاك . من اللحظة التى بدأنا فيها الإهتمام ببعضنا البعض اقتربت أنت منى شيئاً فشيئاً . ولكن كيف حدث ذلك ؟ فأنت لم تجلس بجانبى مباشرة ، أولاً جلست فترة فى المقعد الذى أمامى ، فكيف تمكنت من الإنتقال مرة أخرى ؟ »

« كان الأمر كما يلى : لم أكن نفسى أعرف تحديداً أين أريد أن أجلس ولكننى أردت أن أنتقل من مقعدى فى الصف الأمامى . كنت أعرف فحسب أننى أريد أن أجلس فى مكان أبعد فى الخلف .

لقد كانت إرادتى أن أجئ لأجلس بجانبك ولكننى لم أكن مدركاً لهذا حتى ذلك الحين .

فى الوقت ذاته توافقت إرادتك مع إرادتى فعاونتنى . لكن عندما ألفيت نفسى جالساً أمامك أدركت بالفعل أن رغبتى لم يتحقق سوى نصفها وأن هدفى الوحيد كان الجلوس بجانبك .

« ولكن فى ذلك الوقت لم يمرض أحد ولم يعد أحد كان مريضاً ولم ينضم إلى الفصل شخص مستجد »

« أنت على حق ، ولكننى عندئذ فعلت ببساطة كما أحببت

وجلست بجانبك . لقد إندهش الولد الذى استبدلت معه المقاعد غير انه تركنى أفعل كما أشاء . لقد لاحظ القس بدوره أن شيئاً من التغيير قد حدث ، كذلك كان شئ خفى يضايقه فى كل مرة كان عليه أن يتعامل معى ، لأنه يعرف أن إسمى دميان وأنه لابد أن يكون هناك خطأ ما إذا ما جلس حرف « د » بجانب حرف « س » . بيد أن ذلك لم ينفذ قط إلى وعيه لأن إرادتى تعارض ذلك ولأننى باستمرار أضع العراقيل فى طريقه . فهو يستمر فى ملاحظة أن ثمة خطأ ، ثم ينظر إلىّ ويبدأ فى محاولة الوقوف على الأمر . غير أن لدى حل بسيط لذلك .

ففى كل مرة تقابل عينه عينى أحدق فيه مشتتاً . أناس قليلون يستطيعون الصمود أمام ذلك طويلاً . فكلهم يصبحون مرتبكين : إذا أردت شيئاً من شخص ونظرت إليه بثبات فى كلتى عينيه ، ولا يصبح مضطرباً ، عليك بالتوقف . إذ أنه ليس لديك فرصة مطلقاً ! ولكن ذلك قلما يحدث .إننى فى حقيقة الأمر لا أعرف سوى شخص واحد حيث لا يجدى الأمر معه .

سألته بسرعة : ومن يكون ذلك ؟

نظر إلى بعينين ضيقتين كعادته عندما يكون مستغرقاً فى التفكير ، ثم أشاح بوجهه ولم يرد . . رغم أننى كنت متلهفاً بشدة إلا أننى لم أستطع أن أكرر السؤال .

أعتقد أنه كان يقصد أمه . لقد قيل بأنه على صلة حميمة بها .

ومع ذلك فلم يذكر لى إسمها قط ، ولم يصحبنى معه من قبل إلى البيت . لقد كدت أعرف كيف تبدو أمه .

كنت أحاول أحياناً أن أقلد دميان وأثبت إرادتى بمثل هذاالتركيز على شئ كنت متأكداً من تحقيقه . فلقد كانت ثمة رغبات بدت ملحة نوعاً ما بالنسبة لى . غير أنه لم يحدث شئ ، فلم يجدى الأمر معى . لم تستطع نفسى أن تطاوعنى فى التحدث إلى دميان فيما يتعلق بذلك . فلم أكن قادراً على أن أصارحه برغباتى . وهو لم يطلب بدوره .

فى غضون ذلك بدأت الشروخ الخاصة بعقيدتى فى الظهور . كان تفكيرى الذى قد تأثر بالتأكيد كثيراً بدميان ، كان جد مختلف عن تفكير بعض زملائى الذين كانوا يتظاهرون بالشك التام فى الدين . ففى وقت ما كانوا يقولون أنه سخف وتفاهة من المرء أن يؤمن بالله ، فتلك القصص مثل قصة الثالوث المقدس وولادة العذراء سخيفة ومخزية . لقد كان من العار أننا ما زلنا نتغذى على هذا الهراء فى عصرنا هذا .

لم أشاركهم هذه الآراء . رغم أننى كان لدىَّ شكوكى فيما يتعلق بنقاط محددة . لقد عرفت من طفولتى ماذا تعنى « حياة ورعة » ، كما عاشها والدىّ . عرفت أيضاً أنها لم تكن تافهة ولا مزيفة . على العكس . لقد كنت لم أزل أشعر برهبة شديدة بشأن الأمور الدينية .

على أن دميان قد عودنى أن أرى وأفسر القصص الدينى والعقيدة بمزيد من الحرية ، بمزيد من الفردية ، كذلك بمزاح ، مصحوباً بخيال خصب ، على أية حال ، فدائماً ما كنت أشارك على الرحب فى التفسيرات التى كان يقدمها . البعض منها « موضوع قابيل ، على سبيل المثال » بالطبع كان من الصعب علىَّ أن أتحملها . وذات مرة أثناء درس التعميد باغتنى برأى ربما كان بالفعل أكثر جرأة . كان المعلم يتحدث عن الجلجثة . لقد تركت رواية الإنجيل حول معاناة وموت المسيح أثراً بالغاً فى نفسى منذ نعومة أظفارى . أحياناً وكطفل صغير ، فى الجمعة الحزينة على سبيل المثال ، كانت قراءة أبى لآلام المسيح علينا تثير مشاعر عميقة ، كنت أحيا فى هذا العالم الحزين . ومع ذلك كان جميلاً ، شبحياً وشاحباً ولكنه حيوى على نحو هائل . فى حديقة جيثمان وفى جلجثة ، وعندما كنت أسمع « معاناة القديس متى » لباخ يملأنى لهيب المعاناة القاتم والهائل فى هذا العالم المجهول بشعور غامض من الإرتجاف . إننى أجد حتى هذا اليوم فى هذه الموسيقى والمشاهد التراجيدية روح كل الأشعار .

فى نهاية ذلك الدرس قال لى دميان وهو مستغرق فى التأمل : ثمة شئ لا يروق لى فى هذه القصة ؟ لما لا تعاود قراءتها وتخضعها للإختبار الصارم ، إن بها شيئاً مذاقه غير مريح . أقصد الأمر مع اللصين . إن الصلبان الثلاثة المنتصبة جنباً إلى جنب على التلة جد

هائلة بالتأكيد ولكن يأتى الدور على هذه الرسالة العاطفية القصيرة التى تتعلق باللص الطيب . فى البداية كان وغداً بمعنى الكلمة ، وقد ارتكب هذه الأشياء الفظيعة والله يعلم ماذا أيضاً ، ثم يستسلم فى دموعه ويحتفل بمثل هذا العيد الدامع المؤلف من إصلاح النفس والندم ! أى إحساس بالتوبة يتابك إذا كنت على بعد خطوتين من القبر ؟ إننى أسألك . إنها للمرة الثانية ليست سوى حكاية قديس من نسج الخيال ، ممتعة وغير أمينة ، شُذبت بالعاطفة وزودت بخلفية ثقافية عالية . إذا كان عليك أن تختار واحداً من بين اللصين أو تقرر أيهما كان يجب أن تثق به . أغلب الظن أنك لم تكن لتختار التائب الباكى . كلا ، فالشخص الآخر ذو شخصية قوية فهو لا يعير التوبة اهتماماً ، والتى لا يمكن أن تكون بالنسبة لرجل فى مكانه سوى حديث جميل . فهو يتتبع مصيره إلى نهايته المحددة ولا يجبن ولا يحنث بالشيطان الذى أعانه وأغواه فى ذلك الوقت ، فهو ذو شخصية ، والناس ذوى الشخصية يميلون لاستلام الطرف القصير من العصا فى قصص الكتاب المقدس . ربما يكون بدوره سليل قابيل ؟ ألا تتفق معى ؟

فزعت ، حتى هذه اللحظة كنت أشعر تماماً أننى بالمنزل أثناء قصة صلب المسيح فرأيت للوهلة الأولى بقدر قليل من الخصوصية ، بقدر قليل من قوة الخيال إستمعت إليها وقرأتها . مازال المضمون الجديد لدميان يبدو مشئوماً ويهدد بتقويض

معتقدات شعرت أنه كان علىّ فحسب أن أصر على إستمرار وجودها . كلا ، فالمرء لا يستطيع أن يستخف بكل شئ ولاسيما الأمور الأكثر قداسة . لاحظ مقاومتى كالعادة حتى قبل أن أنطق بأى شئ . قال بلهجة انسحاب : إنها نفس القصة القديمة فلا تأخذ هذه القصص على محمل الجد . ولكن يجب أن أخبرك بشئ ما وهو أن هذا أحد الثغرات الأكيدة التى تميط اللثام عن فقر هذا الدين بشكل أكثر وضوحاً .

فالقضية أن إله العهدين القديم والجديد هذا بالتأكيد رمز فائق ولكنه ليس ما يتظاهر به . فهو رغم ذلك طيب وكريم ، أبوى وجميل ورفيع وحساس حقاً ، غير أن العالم يتكون من شئ آخر بالإضافة إلى ذلك وما يتبقى يُنسب إلى الشيطان ، إن هذه الشريحة من العالم برمتها ، ومجمل هذا النصف مطموس وفى طى الكتمان .

بالضبط بنفس الطريقة التى يغدقون الثناء بها على الله باعتباره الأب لكل الحياة فهم ببساطة يرفضون أن ينبسوا ببنت شفه عن حياتنا الجنسية التى تقوم عليها الحياة بأسرها . واصفين إياها أنى تسنى لهم بأنها خطيئة ورجس من عمل الشيطان . ليس عندى أدنى إعتراض على أحقية هذا الإله يهوه ، فى مقابل ذلك . ولكننى أقصد أننا لابد أن ننظر بعين الإعتبار إلى كل شئ مقدس ، غير أن العالم فى مجمله ليس فقط هذا النصف المفصول على نحو

متصنع ! وبالتالى فنحن بالإضافة إلى الصلاة العامة يجب أن يكون كذلك لدينا صلاة للشيطان . أشعر أن هذا سيكون من الصواب . من ناحية ثانية يجب أن تبتكر لنفسك إله يتضمن الشيطان أيضاً والذى لا تكون فى حاجة أن تغض طرفك أمامه عندما تحدث أكثر الأشياء طبيعية فى العالم .

لقد كان جد من الغريب عليه أن يكون متحمساً نوعاً ما ، غير أنه ابتسم فى الحال ولم يوغل أبعد من ذلك .

على أن كلماته كانت تقارب السر الكامل لبلوغى . السر الذى حملته معى طوال ساعات اليوم والذى لم أتفوه بكلمة عنه لأحد مطلقاً .

إن ما ذكره دميان عن الله والشيطان ، عن الإلهى الرسمى والشيطانى المسكوت عنه يتوافق بالضبط مع بنات أفكارى ، مع أسطورتى الخاصة ، مع مفهومى الشخصى عن العالم باعتباره مُقسماً إلى نصفين - النور والظلام - إجتاحنى فجأة الإدراك بأن مشكلتى مشكلة من النوع الذى يخص كل الناس ، وكان أن انتابنى الخوف عندما رأيت وشعرت كم كانت حياتى الشخصية الحميمة وآرائى مغمورة بشدة فى مجرى أبدى لأفكار عظيمة . رغم أن هذا قدم لى بعض التثبت والرضا إلا أنه لم يكن فى واقع الأمر ساراً . فلقد كان إحساساً عسيراً وله مذاق غير سائغ لأنه كان ينطوى على المسئولية ، وعلى أننى لم يعد مسموحاً لى أن أكون طفلاً . لقد كان يعنى الوقوف على قدمى . مفضياً بالسر العظيم

لأول مرة فى حياتى ، أخبرتُ صديقى عن تصورى للعالمين . فارتأى على الفور أن مشاعرى العميقة تتوافق مع مشاعره الخاصة ، إلا أنه لم يكن من شيمته أن ينتهز فرصة شئ كهذا . أصغى إلى باهتمام أكثر من ذى قبل ، وحدَّق فى عينى فأُرغمت أن أحولهما لأننى لاحظت فى نظرته من جديد تلك النظرة الحيوانية الغريبة ، التى توحى بأبدية وعمر لا يمكن تقديره .

قال متمنعاً : سوف نتحدث باستفاضة عن هذا فى وقت آخر ، يمكننى أن أرى أن أفكارك أكثر عمقاً من أن تستطيع أنت نفسك أن تعبر عنها . وطالما أن الأمر هكذا ، فأنت تعرف ، أليس كذلك أنك لم تحى من قبل ما تفكر فيه وذلك ليس حسناً . فقط الأفكار التى نحياها هى التى تكتسب قيمتها . إنك تعرف منذ البداية أن عالمك المصرَّح به لم يكن سوى نصف العالم بينما كنت تحاول أن تطمس العالم الآخر بنفس الطريقة التى يطمسه بها القديسيون والمعلمون . إنك لن تنجح ، لا أحد بدأ يفكر ونجح فى هذا .

نفذ هذا مباشرة إلى صدرى .

كدت أصيح : « ولكن هناك أشياء مُحرَّمة وفظيعة فى العالم أنت لا تستطيع أن تنكر ذلك . وهى ممنوعة ونحن لابد أن ننكرها . بالطبع ، أعرف بطبيعة الحال أن القتل وكافة أنواع الجرائم توجد بالعالم ولكن هل يجب علىّ أن أكون مجرماً لمجرد أنها موجودة ؟

هدأ من روعى : لن يكون فى استطاعتنا أن نجد كل الأجوبة اليوم ، بالتأكيد لا ينبغى أن تذهب وتقتل شخصاً ما أو تغتصب فتاة ، كلا ! ولكنك لم تصل إلى المرحلة التى تستطيع عندها أن تفهم المعنى الحقيقى للمسموح به والممنوع ، إنك لم تدرك سوى جزء من الحقيقة . ولسوف تشعر بالجزء الآخر أيضاً ، تستطيع أن تثق فى هذا .

على سبيل المثال ، منذ حوالى سنة كان عليك أن تعانى من دوافع أقوى من أى دافع آخر والذى يعد مُحرَّماً . إن اليونانيين والعديد من الشعوب الأخرى فى المقابل رفعوا من شأن هذا الدافع ، وجعلوا منه إلهاً وكانوا يقيمون له إحتفالات كبيرة . فما هو ممنوع بعبارة أخرى ليس شيئاً أبدياً ، إذ يمكنه أن يتغير . إن أى شخص يستطيع أن يضاجع امرأة بمجرد أن يذهب معها إلى القس ويتزوجها ، ومع ذلك تفعل أجناس أخرى ذلك بطريقة مختلفة ، حتى هذه الأيام . لهذا السبب ينبغى على كل منا أن يكتشف بنفسه ما هو مسموح به وما هو محرم . . محرم بالنسبة له . من الممكن لشخص ألا يخرق قانوناً واحداً مطلقاً ومع ذلك يظل وغداً والعكس بالعكس . إنها فى الواقع مجرد مسألة راحة . فهؤلاء الذين هم جد كسالى ومتوانين عن أن يفكروا لذواتهم ويكونوا قضاة أنفسهم هم الذين يمتثلون للقوانين . الآخرون يدركون قوانينهم الخاصة بداخلهم . فالأشياء الممنوعة بالنسبة

لهم تلك التى سوف يفعلها أى رجل شريف فى أى يوم من أيام السنة والأشياء الأخرى المسموحة بالنسبة لهم تلك التى يتم إحتقارها بصفة عامة . على كل شخص أن يقف على قدمه هو » .

فجأة بدا وكأنه ندم على أنه قال أشياءً كثيرة ثم لاذ بالصمت .

أستطيع أن أدرك بالفعل بما كان يشعر فى مثل هذه اللحظات . رغم أنه طرح أفكاره بطريقة سارة وروتينية . فلم يكن بوسعه أن يستمر فى المحادثة لمجرد المحادثة ، كما أخبرنى ذات مرة . على أنه فى حالتى كان يشعر - بالإضافة إلى الإنتباه المتميز - بكثير من المزاح ، بكثير من البهجة الخالصة فى ثرثرة ذكية ، أو شئ من هذا القبيل . خلاصة الكلام ، إفتقار إلى الالتزام التام .

عندما أعيد قراءة الكلمتين الأخيرتين اللتين كتبتهما للتو « إلتزام تام » يقفز إلى ذاكرتى مشهد هو أكثر المشاهد التى مررت بها مع دميان تأثيراً على الإطلاق . فى غضون تلك السنوات حيث كنت لم أزل نصف طفل .

كان يوم التعميد يدنو فراحت الدروس تتناول « العشاء الأخير » موضوعاً لها . كان هذا يمثل جُل الأهمية بالنسبة للقس ، فراح يبذل جهداً كبيراً شارحاً إياه لنا . كان بوسع المرء أن يوشك على تذوق الجو المهيب أثناء تلك الساعات الحاسمة للتعاليم . طوال هذا الوقت اتضح أن أفكارى كانت تتجاوز

حدود الفصل ، لأنها تركزت على صديقى . بينما كنت أرنو مباشرة إلى إتمام تعميدى الذى وصف لنا على أنه التحاق جليل بمجتمع الكنيسة ، لم يكن بوسعى سوى إدراك أن قيمة هذه التعاليم الدينية تكمن بالنسبة لى ليس فيما تعلمته ولكن فى اقترابى من ماكس دميان والتأثر به . لم يكن قبولاً فى الكنيسة ذلك الذى كنت مهيأ له ولكن قبول فى شئ مختلف برمته فى نمط من الفكر والشخصية لابد وأنه يوجد فى مكان ما على وجه الأرض حيث اتخذت نموذجاً من نماذجه أو رسولاً من رسله صديقاً لى .

حاولت أن أكتب هذه الفكرة - إذ كنت متلهفاً لإغراق نفسى فى مراسم التعميد المصحوبة بالرفعة المؤكدة ، وبدت هذه الرفعة لا تتوافق جيداً مع فكرتى الجديدة . ومع ذلك لا يهم ما فعلته فلقد كانت الفكرة حاضرة وشيئاً فشيئاً أضحت وثيقة الإرتباط بالمراسم المقبلة . لقد كنت جاهزاًلتمثيلها بطريقة مختلفة عن الآخرين . لأنها تعنى قبولى فى عالم الفكر عندما أقدمت على معرفته على أيدى دميان .

فى أحد هذه الأيام تصادف أن كنا نجرى نقاشاً قبيل الدرس . كان صديقى مطبق الشفاه يبدو أنه غير مستمتع بحديثى الذى كان يبدو مفعماً بالاعتزاز بالنفس والإحساس بالنبوغ أيضاً .

قال بجدية غير مألوفة : إننا تحدثنا كثيراً ، والحديث المتأنق

هو لاشك حديث عديم القيمة .إذ كل ما تفعله فى نفس الوقت أن تفقد نفسك ، وفقدانك لنفسك خطيئة . على المرء أن يقدر على الزحف إلى دخيلة نفسه مثل سلحفاة .

ثم دخلت الفصل . بدأ الدرس وكنت أحاول أن أركز . ولم يحاول دميان أن يصرف انتباهى . وبعد برهة بدأت أشعر بشئ غريب يأتى من الجانب الذى كان يجلس فيه ، فراغ أو برودة أو شئ مشابه ، وكأن المقعد الذى بجوارى أصبح خالياً فجأة . عندما أصبح هذا الإحساس طاغياً إلتفتُ كى أرى فوجدتُ صديقى هناك جالساً على نحو منتصب .كانت كتفاه مشدودتين إلى الخلف كالعادة إلا أنه كان يبدو مختلفاً كليةً . كان شئ ما ينبعث منه ، فلقد كان محاطاً بشئ لم يكن معروفاً بالنسبة لى . للوهلة الأولى إعتقدت أن عينيه مغلقتان بيد أننى إكتشفت أنهما كانتا مفتوحتين . ومع ذلك لم تكونا مركزتين على شئ ، لقد كانت نظرة غير مبصرة - إذ كانتا تبدوان وكأنهما مشدودتان بالنظر إلى الداخل أو نحو مسافة كبيرة . جلس هناك ساكناً بلا حراك . ولم يبد عليه حتى أنه كان يتنفس . كأنما قد نُحت فمه من خشب أو حجر . كان وجهه شاحباً ، شاحباً على نحوٍ متماه مع قطعة حجر . وكان شعره البنى الجزء الوحيد منه الذى بدا الأقرب إلى كونه حياً . كانت يداه تنسابان أمامه على المقعد ، بلا حياة وساكنتين كالأشياء ، كأحجار أو فاكهة ، شاحبتين ،

بلا حراك . مع ذلك غير مرتخيتين ولكنهما كانتا طيبتين وعفيتين تُخفيان حياة خفية وخرافية . إرتعدتُ من المشهد ، ظننتُ أنه ميتٌ وكدت أصيح بذلك . كانت عيناى المأخوذتان مثبتتين على وجهه ، على قناعه الحجرى الشاحب وأحسستُ أن هذا هو دميان الحقيقى . إذ عندما كان يمشى بجانبى أو يتحدث إلىّ ، لم يكن ذلك سوى نصفه ، شخص يلعب بانتظام دوراً ، ويُكيف نفسه ، والذى يفعل بدافع اللطف المحض كما يفعل الآخرون . على أن دميان الحقيقى كان يبدو مثل هذا ، مثل إنسان بدائى ، مثل حيوان مثل رخام ، جميلٍ وباردٍ ، ميتٍ ومع ذلك مفعم على نحو خفى بحياة خرافية . ومن حوله هذا الفراغ التام ، هذّا الأثير ، والفضاء النجمى ، هذا الموت الموحش ، ها هو قد أوغل تماماً فى نفسه ، أحسستُ وارتجفتُ . لم أكن هكذا بلا حيلة ، لم أستطع أن أفعل شيئاً له ، فلقد كان غير متاح ، كان بعيداً عنى ، كما لو كان فى أقصى جزر العالم . أستطيع أن أجزم أنه لم يلحظه أحد ممن كانوا بجواره ! كان ينبغى على كل شخص أن ينظر إليه ، كان ينبغى على كل شخص أن يرتجف ولكن لم ينتبه إليه أحد . كان يجلس هناك مثل تمثال ، وبدا أشبه بوثن مزهو بنفسه . حطت على جبهته ذبابة ثم انطلقت عبر أنفه وشفتيه ولم تنتفض عضلة واحدة .

أين ذهب الآن ؟ فيما كان يفكر ؟ بماذا كان يشعر ، هل كان

فى الجنة أم كان فى الجحيم ؟ لم أستطع أن أطرح سؤالاً عليه . فى نهاية الفترة ، عندما رأيته حياً ويتنفس مرة ثانية وبمجرد أن اصطدمت نظرته بنظرتى ، كان على نفس الحالة التى كان عليها من قبل . من أين أتى ؟ وأين ذهب ؟ بدا متعباً ولم يعد وجهه شاحباً . راحت يداه تتحركان من جديد . غير أن شعره البنى قد انطفأ بريقه كما لو كان فاقداً للحياة .

فى غضون الأيام التالية شرعتُ فى تجربة جديدة فى غرفة نومى . كنت أجلس ثابتاً على كرسى . وأجعل عينىّ ثابتتين أيضاً . وأظل ساكناً بلا حراك . وأرى كم من الوقت أستطيع البقاء على هذا الوضع وبماذا سوف أشعر . لم أكن أشعر سوى بالإرهاق الشديد وأن جفنى يدفعنى أن أفركه .

خلاصة الأمر لقد تم تعميدنا فيما بعد ، مجرد حدث لم يستدع أى ذكريات ذات أهمية على الإطلاق . الآن تغير كل شئ وراح عالمى الطفولى يتداعى من حولى . كان والدىَّ يرمقاننى بارتباك شديد . وأصبحت أخواتى غريبات علىَّ . ثمة سحر انفكّ فدحض وثلَّم مشاعرى العادية وابتهاجاتى . لقد افتقرت الحديقة إلى الشذى ، والغابة لم تعد تجذبنى إليها ، بينما تناثر العالم من حولى كما لو كان تصفيات لبضائع العام الماضى البالية ، غير مثيرة وقد انكشفت عنها كل فتنتها . الكتب أصبحت عبارة عن مجرد كمية كبيرة من الورق والموسيقى أضحت ضوضاء مزعجة . هكذا

تتناثر الأوراق فى الخريف حول شجرة ، شجرة غير منتبهة للمطر الذى يتساقط على جنباتها ،الشمس أو الصقيع ، للحياة التى تنسحب شيئاً فشيئاً إلى الداخل . إن الشجرة لا تموت ، الشجرة تنتظر .

لقد تم العزم على إرسالى بعيداً إلى مدرسة داخلية عند انتهاء الأجازة ، لأول مرة سأكون بعيداً عن المنزل . أحياناً كانت أمى تتعامل معى بعطف غير معهود وكأنها كانت تودعنى بالفعل قبل الأوان منكبة على الحب الملهم ، والحنين للأسرة ، تلك الأشياء التى لا تغادر قلبى قط . كان دميان بعيداً فى رحلة . لقد أصبحت وحيداً .

بياتريس

في نهاية أيام الإجازة ودون أن أكون قد رأيت صديقى مرة ثانية ، ذهبت إلى مدرسة القديس ، اصطحبنى والدىّ وعهدا بى إلى بيت للطلبة يديره أحد المدرسين بالمدرسة الإعدادية . كان الهلع سيلجمهم إذا عرفا أى عالم قد تركانى أهيم فيه . وظل السؤال : هل يكون علىّ فى آخر المطاف أن أصبح ولداً طيباً ، ومواطناً صالحاً أم أن طبيعتى إتخذت وجهةً مختلفة بالمرة . لقد استمرت طويلاً محاولتى الأخيرة لتحقيق السعادة فى ظلال البيت الأبوى النموذجى . كاد لها أن تنجح أحياناً غير أنها باءت بالفشل الذريع فى نهاية الأمر .

إن الفراغ الغريب والعزلة التى رحت أشعر بهما للمرة الأولى بعد التعميد « أوه ، كم كان عليه أن يصبح مألوفاً فيما بعد ، هذا الفراغ الكئيب ، الجو الخانق ! » لم يكونا يمران إلا بتثاقل شديد . كان رحيلى عن البيت بسيطاً على نحو مفاجئ . كنتُ فى خجل لأننى لم أشعر بمزيد من الحنين وكانت أخواتى يبكين بلا سبب ، بينما ظلت عيناىّ جافتين . إستغربت من نفسى . إذ كنت طفلاً عاطفياً على الدوام وطيباً فى بادىء الأمر . أما الآن فلقد تغيرتُ تماماً . فرحت أتصرف بلامبالاة تامه إزاء العالم فى الخارج ، وعلى

مدار أيام بلا انقطاع ظلت الأصوات بداخلى تملأ علىَّ فكرى ، التيارات الداخلية ، تيارات الظلام المحرمة التى كانت تهدر تحت السطح .

لقد زاد طولى عدة بوصات خلال نصف السنة الماضى . فرحتُ أجوب العالم طويلاً نحيفاً وغير مكتمل . لقد فقدت التعويذة التى ربما كانت لدىَّ من قبل وأدركت أنه ليس باستطاعة أحد أن يجبنى على هذه الحالة . لاشك أننى لم أكن أحب نفسى .

طالما شعرتُ بتوق شديد إلى ماكس دميان ، ولكن ليس أقل مما طالما كرهته متهماً إياه بأنه جعل حياتى مقفرة حيث أبقانى رهن سيطرته مثل مرض بشع . لم أكن موضع حب ولا اعتبار فى مبيت الطلبة . تضايقت فى بادئ الأمر ثم رحت أبتعد وأشرئب مثل حية ، مثل شخص غريب غير محتفى به . لقد تقبلت هذا الدور بل بالغت فيه أيضا ، واختنقت بنفسى فى عزلة ذاتية لابد بدت للغرباء على أنها إزدراء دائم وذكورى للعالم ، بينما فى حقيقة الأمر كنت أخضع لنوبات الكآبة واليأس الشديدة .

فى المدرسة استطعت أن أواصل حياتى معتمداً على المعرفة التى تراكمت فى فصلى السابق - لقد كان الفصل الحالى متخلفاً قليلاً عن الفصل الذى تركته - فبدأت أنظر بازدراء إلى الطلبة فى مجموعتى العمرية كأنهم ليسوا سوى مجرد أطفال .

بقيت هكذا طوال عام أو يزيد . لم تكن الزيارات الأولى

القليلة للبيت تثيرنى . كنت سعيداً عندما تسنى لى أن أرحل من جديد . كانت بداية نوفمبر . وكنت قد أصبحت معتاداً على القيام بجولات تأملية قصيرة فى كافة أنواع الطقس . جولات كثيراً ما استمتعت فيها بنوع من النشوة مشوب بالحزن وإزدراء العالم وكره الذات . ومن ثم كنت أذرع البلدة ذات مساء فى عتمة مشبعة بالضباب . كان الممر الخارجى لحديقة عامة خالياً ، يومئ إلىّ بالدخول . كان الممر مغطى بطبقة سميكة من الأوراق الساقطة التى أقلقتها بقدمى على نحو غاضب . كان ثمة رطوبة ورائحة مريرة وأشجار بعيدة مبهمة كأشباح ، بدت مهولة خلال الضباب . وقفت متردداً عند النهاية البعيدة للطريق ، محدقاً فى الأوراق المعتمة ، استنشقت ملء رئتى عبق رطوبة التحلل والموت الذى إستجاب له بترحاب شئ ما فى دخيلة نفسى .

شخص ما كان يمشى فى أحد الممرات الجانبية ، أخذ معطفه ينتفخ بينما هو يمشى . كنت على وشك أن أواصل ، عندئذٍ إنطلق صوت « أهلاً يا سينكلير » تقدم نحوى . لقد كان ألفونس بيك ، أكبر ولد فى المبيت الخاص بنا . كنت دائماً ما أسعد برؤيته . فلم يكن لدىَّ شئ ضده سوى أنه كان يعاملنى وجميع الطلبة الأصغر سناً بشئ من التلطف الساخر أشبه بتلطف الأعمام . لقد افترض أنه قوى مثل دب وأنه يضع مدرس المبيت فى جيبه الصغير .. لقد كان البطل للعديد من إشاعات الطلبة

« حسن ماذا تصنع هنا ؟ »

إنطلق فى دماثة بتلك اللهجة التى يتظاهر بها الأولاد الأكبر عندما يتنازلون أحياناً ويتحدثون إلى واحد منا « أراهن أنك تنظم قصيدة »

رددت بجفاء « لم أكن أفكر فى ذلك »

إنفجر ضاحكاً ، ثم مشى بجانبى وتحدث قليلاً بطريقة لم أعتدها منذ وقت طويل .

« ليس عليك أن تخاف لأننى لم أكن أفهم ياسينكلير هناك شئ يدفعك للمشى فى تأملات الخريف خلال ضباب المساء . أعرف أن المرء ليحب أن ينظم قصيدة فى وقت كهذا . فيما يتعلق بطبيعة المحيط بالطبع ، وشباب المرء المولىّ الذى يشبهها . على سبيل المثال هنريش هاينه » .

دافعت عن نفسى : « لست عاطفياً بما يستدعيه كل ذلك » .

« حسن ، فلنطرح الأمر جانباً . غير أنه يبدو لى فى طقس كهذا أن أى رجل يفعل الشئ الصواب عندما يبحث عن مكان هادئ حيث يتسنى له أن يشرب كأساً جيدة من الجعة أو شئ آخر . هل ستأتى معى ؟ أنا بمفردى فى الوقت الحالى . أم أنك تفضل ألا تفعل ؟ أنا لا أريد أن أكون الشخص الذى يضلك السبيل يا مون فيو » .

بعد ذلك سرعان ما كنا نجلس فى حانة صغيرة على أطراف البلدة ، نحتسى نبيذاً من نوع مريب ، ونقرع أكواباً غليظة . لم

أحب هذا كثيراً فى بادئ الأمر ، ولكن كان على الأقل شيئاً جديداً . بسرعة وعلى اعتبار أننى حديث عهد بالنبيذ أصبحت كثير الهزار . بدا الأمر وكأن نافذة داخلية انفتحت وراح العالم يتلألأ من خلالها . كم من الوقت ؟ كم من الوقت بشكل مؤسف لم أكن قد تحدثت مع أى شخص ؟ بدأ خيالى يشطح وفى نهاية الأمر خرجت بقصة قابيل وهابيل . كان بيك يصغى بسرور واضح . أخيراً ، كان هناك شخص أستطيع أن أمنحه شيئاً ما ! ربت على كتفى ناعتاً إياى بـ « ابن الأبالسة » وكان أن امتلأ قلبى بالنشوة لدى هذه الفرصة للإسترسال فى إطلاق حاجة طال كبتها ، للتحدث والتواصل . للإمتنان من قِبل ولد أكبر منى . عندما قال بأنى وغد صغير حاذق ولعين : إنسابت الكلمات فى نفسى كنبيذ حلو . كان العالم يتوهج بألوان جديدة ، والأفكار تتفجر من مئة ينبوع جرئ . بينما راحت نار الحماسة تتوهج بداخلى . تبادلنا الآراء حول مدرسينا وزملائنا وبان لى أن كلاً منا كان يفهم الآخر .

تحدثنا عن اليونانيين والوثنيين بصفة عامة وكان بيك يلح لكى أبوح له بأننى ضاجعت فتيات . كان هذا بعيداً عن عالمى . فلم أجرب أى شئ ، لا شئ بالتأكيد يستحق الذكر ، وما أحسست به ، ما تركب فى خيالى آلمنى من الداخل غير أنه لم ينحل ولم يكن النبيذ قد جعله صالحاً للتحدث به . كان بيك يعرف أكثر منى

بكثير عن الفتيات ، لذا رحت أستمع إلى بطولاته دون أن أستطيع النطق بكلمة واحدة . سمعت أشياء تصعب على التصديق ، أشياء لم أعتقد مطلقاً أنها يمكن أن تكون عادية ، راحت تبدو بديهية .

بدأ ألفونس بيك إبن الثامنة عشرة أنه يرتكز على قدر كبير من الخبرة . على سبيل المثال ، قد تعلم أنه من المضحك فيما يتعلق بالفتيات أنهن لا يبغين سوى المغازلة ، التى تُعد شيئاً جميلاً ، غير أنها ليست الشئ الحقيقى ، أما بالنسبة للشئ الحقيقى فبوسع المرء أن يتطلع إلى نجاح أكبر مع النساء . فالنساء قد طفقن أكثر حكمة . فالسيدة جاجلت مثلاً صاحبة محل الأدوات المكتبية ، يستطيع المرء أن يتحدث معها عن العمل أما جميع الأشياء التى تحدث وراء طاولتها فليس لها علاقة مطلقاً بالكتاب .

جلست هناك مفتوناً ومصعوقاً بدورى . بالتأكيد لا يمكن لى أن أكون قد أحببت السيدة جاجلت ، ومع ذلك بدت الأخبار صعبة التصديق . فلقد اتضح أن ثمة مصادر خفية للمتعة ، على الأقل بالنسبة للاولاد الأكبر سناً ، والتى لم أحلم حتى بها . بيد أن شيئاً بها لم يبد على ما يرام وكان مذاقه أقل جاذبية وأكثر اعتيادية من الحب ، شعرت بأنه كان من المفروض أن أجرب ، ولكن على الأقل كانت هذه هى الحقيقة ، وكانت هذه هى الحياة والمغامرة ، وها هو شخص يجلس بجانبى قد جربها حيث بدت عادية بالنسبة له .

حالما بلغ حديثنا هذه الذروة ، بدأ فى الهبوط رويداً رويداً . لم أعد بعدُ الوغد الصغير الحاذق اللعين ، لقد انكمشت لأُصبح مجرد صبى يصغى إلى رجل . ولكن على أية حال - بالمقارنة بما كانت عليه حياتى طيلة شهور - كان هذا ممتعاً ، كان هذا بمثابة الجنة . علاوة على أنه كما بدأت أدرك شيئاً فشيئاً كان محرماً بدرجة كبيرة .

من أول تواجدانا فى البار حتى موضوع حديثنا . على الأقل بالنسبة لى كان له مذاق التمرد . . أستطيع أن أتذكر هذه الليلة بوضوح ملفت ، شرعنا فى طريق العودة خلال الرطوبة ؛ متجاوزين مصابيح الغاز التى كانت تضئ آخر الليل بضوء شاحب : للمرة الأولى فى حياتى أكون مخموراً .

لم يكن هذا مبعث سرور . بل كان فى الواقع يحز فى نفسى ، رغم ذلك كان ثمة شئ يعتريه ، النشوة وحلاوة اللهو المتمرد ، كانت تلك هى الحياة والروح .

لقد أدى بيك مهمة جيدة ، متولياً مسئوليتى ، رغم أنه شتمنى على نحو مقذع بأنى « مبتدئ لعين » قادنى بعض الشئ وساعدنى على الذهاب إلى المنزل . وهناك تمكن من تهريبى من خلال نافذة مفتوحة فى الردهة .

إن الحقيقة الواعية التى انتبهت إليها بعد نوم قصير يشبه الموت تزامنت مع كآبة فارغة ومؤلمة . إنتصبت فى السرير . كنت مازلت

مرتدياً قميصى . أما بقية ملابسى فقد تناثرت على الأرضية ، وقد فاحت منها رائحة التبغ والقئ . بين نوبات الصداع والغثيان والعطش الشديد جال فى خاطرى صورة لم أشاهدها منذ وقتٍ طويل . تخيلت منزل والدى ، بيتى ، أبى وأمى ، أخواتى ، الحديقة و كان بوسعى أن أتخيل حجرة النوم المألوفة ، المدرسة ، ساحة السوق .

إستطعت أن أتخيل دميان ودروس التعميد - كان كل شئ رائعاً ، نقياً وطيباً ، كل هذا كما أدركت الآن - كان مازال بحوزتى بالأمس القريب ، كان ينتظرنى منذ بضعة ساعات ، ومع ذلك فالآن ، فى نفس هذه الساعة بدا كل شئ منهوياً وملعوناً ، كان بين يدىَّ ولم يعد بعد ، لقد طفق يلفظنى ، ويشمئز منى . كل شئ عزيز وحميم . كل شئ قد منحه لى والدىّ فى البعيد بعد الحدائق النائية لطفولتى ، كل قبلة من أمى ، كل عيد ميلاد - كل خشية - كل صباحات الآحاد المفعمة بالنور فى المنزل ، كل زهرة فى الحديقة لقد ضاع كل شئ بدداً . ودست بقدمى على كل شئ ! لو طالتنى يد القانون وكبلتنى وكممتنى وساقتنى إلى المشنقة كحثالة العالم وكأى منتهك لحرمة المعبد . لم أكن لأعترض ، ولكنت انصعت على الرحب ، واعتبرت هذا جزاءً مستحقاً وعادلاً .

ذلك ما كننت عليه فى قرارة نفسى ! أنا الذى شرع فى ازدراء

العالم ! أنا الذى كنت أزهو بالروح وأشارك دميان افكاره ! ذلك ما كنت أشبهه ، قطعة براز ، خنزير قذر ، مخمور وبذئ ، كريه وغر ، بهيمة وضيعة حطت منها شهوات دنيئة . هذا ما كنت أشبهه ، أنا الذى نبت من تلك الحدائق الطاهرة حيث لا شئ سوى النظافة والإشراق والرقة أنا الذى أحب موسيقى باخ والشعر الجميل . كان لم يزل بوسعى أن أتخيل حياتى مع الغثيان والفاحشة ، مخموراً وجامحاً ، بينما راحت تنفلت منى ضحكة بلهاء ، بين النوبات والإرتعاشات . هناك كنت .

رغم كل شئ ، إلا أننى كدت أشعر بمتعة فى خضم عذاباتى . لقد كنت أعمى ولا مبال وقد ظل قلبى صامتاً أمداً طويلاً ، انكمشت مسلوب القوى فى ركن . إن هذا الإتهام للذات ، وهذا الهلع ، وكل هذه المشاعر المروعة كانت على الرحب ، إذ كانت على الأقل اسمها مشاعر ، على الأقل كانت ثمة ألسنة من اللهب ، كان القلب على الأقل ينبض . رحت أشعر على نحو مشوَّش بشئ ما أشبه بالحرية فى خضم بؤسى .

فى غضون ذلك ، رأيتنى من الخارج وقد رحت أنحدر بسرعة إلى السفح . سرعان ما تلت نوبة سُكْرى نوبات أخرى . كثر التردد على البارات واحتفالات الشرب الصاخبة فى مدرستنا ، كنت واحداً من أصغر الطلبة المشاركين ، ورغم ذلك سرعان ما أصبحت ليس مجرد غر صغير يتذمر المرء من اصطحابه ، بل

أصبحت زعيم شلة ونجماً ، ومرتاداً جريئاً للبارات ومشهَّراً به . أحياناً كنت أنتمى تمام الإنتماء إلى عالم الظلام وإلى الشيطان وفى خضم هذا العالم نلت شهرة « إبن أبالسة » .

رغم ذلك كنت أشعر بالبؤس . إذ كنت أحيا فى لهو تدمير الذات ، بينما كان أصدقائى يعتبروننى قائداً ورفيقاً مرحاً ، ومحتالاً لعيناً ، ففى قرارة نفسى كانت روحى محزونة . مازال بإمكانى أن أتذكر الدموع التى انبجست من عينى عندما رأيت أطفالاً يلعبون فى الشارع فى صبيحة الأحد بينما كنت خارجاً من حانة ، أطفالاً ممشطة شعورهم بطريقة لطيفة وقد تهندموا بثياب الأحد الأنيقة .

إن هؤلاء الأصدقاء الذيم كانوا يجلسون معى فى أحقر الحانات بين برك البيرة والطاولات القذرة ، كنت أُسليهم بملاحظات ساخرة غير مسبوقة . كذلك كنت أدخل الروع فى نفوسهم ، ومع هذا كنت من داخل قلبى فى رهبة من كل شئ كنت أستخف به ، وجثوت باكياً أمام روحى ، وماضىّ وأمى ، أمام الله . كان ثمة سبب وجيه لكونى لم أنسجم مع رفاقى ، لماذا كنت وحيداً بينهم مما جعلنى مهيأ لكى أعانى الكثير . لقد كنت بطلاً للبار والسخرية لكى أتشبع بمذاق ما هو أكثر وحشية . كنت أُبدى دهاءً وجرأة فى أفكارى وملاحظاتى على المدرسين والمدرسة والآباء والكنيسة . إستطعت ايضاً أن أتحمل سماع أشد القصص قذارة ، كذلك كنت

أغامر أحياناً وأقوم بواحدة بنفسى . غير أننى لم أصحب أصدقائى قط عندما كانوا يقومون بزيارة النساء . لقد كنت وحيداً ومترعاً بتوق شديد للحب ، توق لا رجاء فيه ، بينما من خلال كلامى ، كان ينبغى علىَّ أن أكون عربيداً متحجر الفؤاد . لم يكن أحد أسهل إيلاماً منى ولم يكن أحد أكثر خجلاً منى . وعندما كان يصدف لى أن أرى بنات المدينة الصغيرات «اللواتى تربين جيداً» يمشين نصب عينى جميلات ونظيفات ، بريئات ورشيقات ، كن يَلُحنَ كأحلام صافية رائعة ، طيبات أكثر منى ألف مرة . لم تطاوعنى نفسى مرة واحدة فى الدخول حتى إلى محل الأدوات المكتبية خاصة السيدة جاجلت لأننى كنت أخجل من النظر إليها متذكراً ما أخبرنى به ألفونس بيك .

كلما أدركت بأنه كان علىَّ أن أظل للأبد وحيداً ومختلفاً بين شلة أصدقائى الجديدة كلما قلت قدرتى على الإنفصال عنهم .

إننى فى الحقيقة لا أعرف إلى أى مدى كان السُكر والإختبال يعودان علىَّ بأى متعة ، علاوة على أننى لم أصبح معتاداً هكذا على الشرب حيث لم أكن أشعر دائماً بآثار بعدية محرجة . لقد كان الأمر كما لو كنت مجبراً إلى حد ما على فعل هذه الأشياء . لقد فعلت ببساطة ما اضطررت لفعله ، لأنه لم تكن عندى فكرة عما يجب أن أفعله مع نفسى من ناحية أخرى . لقد خشيت أن أظل وحيداً مدة طويلة . وكنت خائفاً من الحالات الكثيرة الرقيقة

الطاهرة التى كانت تنتابنى ، وكنت خائفاً من أفكار الحب التى كان تهدر بداخلى .كان أهم ما افتقدته هو صديق : كان هناك زميلان أو ثلاثة إستطعت الإهتمام بهم . غير أنهم كانوا على علم جيد بى ، حيث أن رذائلى ظلت طويلاً كتاباً مفتوحاً . فراحوا يتجنبوننى . لقد كنت أُعد بصفة عامة متمرداً لا رجاء فيه تنزلق الأرض من تحت قدميه .

كان المدرسون على دراية تامة بأمرى ، فعوقبت بشدة مرات عديدة ولم يبد ترحيلى النهائى سوى مسألة وقت . أدركت بنفسى أننى غدوت طالباً ضعيفاً ، غير أننى كنت أتملص بحماس من اختبار تلو الآخر ، مدركاً دائما بأن الأمر لا يمكن أن يستمر على هذه الوتيرة أكثر من ذلك .

ثمة طرق كثيرة يجعلنا الله بها وحيدين ثم يرشدنا من جديد إلى أنفسنا . كانت هذه هى الطريقة التى ينتهجها الله معى آنذاك . كان الأمر أشبه بكابوس . أستطيع أن أرى نفسى : أتقدم زاحفاً فى طريقى القذر والكريه ، عبر الأوساخ والوحل ، عبر أكواب البيرة المهشمة وخلال الليالى المبددة فى السخرية المقذعة ، حالماً مشدوهاً ، قلقاً ومعذباً .

ثمة أحلام تغدو فيها وأنت فى طريقك للأميرة مغروزاً فى المستنقعات ، فى الأزقة الخلفية التى تعج بالروائح الكريهة والنفاية . هكذا كان يبدو الأمر معى . فى هذا النمط البغيض كان

محكوماً عليّ أن أصبح وحيداً ، وبنيت بيني وبين طفولتي بوابة مغلقة لجنة عدن . بحشد من حراسها متألق على نحو صارم .

لقد كانت بداية ، كانت معاودة الحنين إلى نفسي السابقة ومع ذلك لم أُصبح شديد القسوة لدرجة ألا أجفل من وخزات الخوف . لما انزعج أبي من خطابات مدرسي الخصوصي ، ظهر لأول مرة في المدرسة وواجهني بغتة . بعد ذلك في الشتاء عندما عاود المجئ ، كان لم يعد بوسع شئ أن يؤثر فيّ ، تركته يعنفني ويوبخني ، تركته يذكرني بأمي : أخيراً وعند نهاية المقابلة أصبح حانقاً تماماً . وقال إذا لم أتغير سيكون عليه أن يخرجني من المدرسة مدحوراً ويلحقني بإصلاحيه . حسن ، فليفعل ! عندما انصرف آنذاك شعرت بالرثاء لأجله ، فلم ينجز شيئاً . إذ لم يجد سبيلاً إليّ . أحياناً كنت أدرك أن ذلك قد أسدى له خدمة جيدة . لم يكن بوسعي أن أكون قليل الإهتمام بما حل بي . في طريقي الرتيب والغريب ، كان التردد على البارات والتفاخر وسيلتي للشجار مع العالم ، كانت هذه طريقتي في الاحتجاج . لقد كنت أتلف نفسي في الوقت ذاته ، ولكنني أحياناً ، كنت أفهم الوضع كما يلي : إذا لم يكن العالم غير ذي جدوى لأناس من أمثالي ، إذا لم يكن لديه مكانة أفضل ومهام أكثر رفعة لهم ، إذن ففي هذه الحالة سوف يهلك الناس أمثالي والخسارة ستكون من نصيب العالم .

كانت عطلة عيد الميلاد حدث غير باعث على السرور ذلك العام . أجفلت أمي بشدة عندما رأتني . لقد كبرت فجأة ،

كذلك بدا وجهى النحيل حزيناً وهزيلاً ، ذو ملامح مرتخية وعينين ملتهبتين . إن مسحة الشارب الأولى والنظارة التى شرعت مؤخراً فى لبسها جعلتنى أبدو بالفعل أكثر غرابة . انتفرت أخواتى خجلات متضاحكات . كل شئ كان يفتقد إلى التهذيب بشدة . الشئ الكريه والمرير كان الحديث الذى تحدثته مع أبى فى مكتبه ، تبادل كريه للتحايا مع حفنة من الأقارب ، وعلى وجه الخصوص كانت عشية الميلاد نفسها غير سارة بالمرة . فيما مضى عندما كنت طفلاً صغيراً كان هذا يمثل اليوم العظيم فى منزلنا . كان المساء يمثل عيداً للحب والعرفان ، عندما يعاد تجديد العروة بين الطفل ووالديه . أما فى هذه المرة كان كل شيء قابضاً للصدر ومربكاً تماماً . راح أبى كالعادة يقرأ بصوت عالٍ المقطوعة الخاصة بالرعاة فى المروج « وهم يراقبون قطعانهم » وكالعادة راحت أخواتى يمثلن مؤتلقات أمام طاولة تغص بالهدايا ، غير أن صوت أبى كان يبدو ساخطاً ، ووجهه بدا عجوزاً ومجهداً ، بينما كانت أمى حزينة . كل شئ كان فى غير موضعه : الهدايا وتحايا عيد الميلاد ، تلاوة الإنجيل والشجرة المضيئة .

كعكة الزنجبيل كانت رائحتها شهية . لقد راحت تنز عن حشدٍ من الذكريات حيث كانت بالفعل أكثر لذةً . بينما شذا شجرة الميلاد راح يحكى عن عالم لم يعد بعد موجوداً . لقد تمنيت أن ينفض المساء وأيام الإجازة .

إستمر الأمر على هذا النحو طوال الشتاء . بعد فترة وجيزة

أعاد مجلس الأساتذة توجيه إنذار شديد اللجهة لى وكنت مهدداً بالطرد . لا يمكن للأمر أن يستمر أكثر من ذلك . حسن ، لا يهم لقد رحت أحمل ضغينة خاصة لماكس دميان الذى لم أره ثانيةً ولا حتى مرة واحدة . كتبت إليه مرتين أثناء الشهور الأولى لإقامتى فى مدرسة . . . بيد أننى لم أتلق رداً . لذلك لم أمر عليه أثناء الإجازة .

فى نفس المنتزة الذى قابلت فيه ألفونس بيك فى الخريف ، بدأت أنتبه إلى فتاة ما فى مستهل الربيع أخذت أشجار السياجات فى التبرعم . كنت قد قمت بجولة بمفردى ، وكانت رأسى تعج بالأفكار الفاسدة والإضطرابات ، فراحت صحتى تعتل ، ومما زاد الطين بله أننى كنت دائما فى أزمات مادية ، اقترضت من أصدقاء مبالغ كبيرة ومن ثم كان على أن أختلق نفقات حتى يتسنى لى أن أتلقى نقوداً من البيت . لقد قمت بفتح حسابات فى عدد من المحلات لسحب السجائر وأشياء من هذا القبيل . حتى هذا لم يقلقنى كثيراً . فإذا كانت حياتى بأية حال على وشك الإنتهاء فى أى لحظة – إذا تخلصت من نفسى أو أرسلت إلى الإصلاحية – فلن تحدث بضعة أشياء إضافية صغيرة فارقاً كبيراً . ومع ذلك كنت مجبراً على العيش وجهاً لوجه مع هذه الأمور البغيضة . إذ جعلتنى بائساً .

رأيت فى ذلك النهار الربيعى بالمنتزة شابة جذبتنى إليها . كانت طويلة وهيفاء ، أنيقة الثياب ، ولها وجه يشى بالذكاء

وصبيانى ، راقت لى من أول وهلة . فلقد كانت من النوع الذى أحبه وبدأت تشغل بالى . ربما لم تكن أكبر منى بكثير ، غير أنها كانت تبدو أكبر من مجرد بنت ناضجة ، كانت تبدو امرأة صريحة مكتملة . بيد أن وجهها كان يعلوه شئ من الحماسة والصبيانية . وكان هذا أهم ما أحببته فيها . لم أتمكن قط من الإقتراب من أى فتاة وقعتُ فى حبها و ولم أتمكن فى هذه الحالة أيضاً . غير أن الإنطباع الذى تركته علىّ كان أعمق من أى انطباع آخر سابق ، والافتتان بها كان له تأثير عميق على حياتى . لم تكن بى حاجة ولا إلحاح شديد أو متوقد مثل الرغبة فى التعبد والإعجاب . أطلقتُ عليها إسم « بياتريس » . رغم أنى لم أقرأ دانتى إلا أننى عرفت بأمر بياتريس من لوحة إنجليزية كنت أقتنى نسخة منها . كانت تصور امرأة شابة من نماذج ما قبل الرافائيلية ، طويلة الأطراف وممشوقة ، مستطيلة الرأس ومرهفة اليدين والملامح .

لم تكن فتاتى صورة طبق الأصل منها ، رغم أنها أيضاً كانت تعكس تلك الهيئة النحيلة والصبيانية التى أحببتهها ، وشيئاً من السمت العاطفى المرهف لوجهها .

رغم أننى لم أوجه قط كلمة واحدة إلى بياتريس ، إلا أنها كانت تمارس علىّ تأثيراً عميقاً آنذاك . لقد منحتنى تصريح الدخول إلى مقام مقدس ، وحولتنى إلى ناسك فى معبد .

من يوم لآخر مكثت بدون أى بارات وبدون أى مغامرات ليلية . تسنى لى أى أكون وحيداً مع نفسى من جديد ، فرحت

أستمتع بالقراءة والقيام بجولات طويلة . لقد جلب تحولى المفاجئ قدراً لا بأس به من التهكم . غير أننى آنذاك كان لدىَّ شئ أحببته ورفعت من شأنه . لقد أصبح لى غاية من جديد ، والحياة أضحت ملأى بإيحاءات غامضة وشعور بفخر جعلنى فى حصانة من جميع التوبيخات المهينة .

لقد عدت إلى نفسى من جديد . حتى لو لم أكن إلا مجرد ذلك العبد والخادم لهذه الصورة الحميمية . أرى من الصعب أن أسترجع ذلك الوقت بدون ولع شديد .

من جديد كنت أحاول جاهداً أن أقيم لنفسى عالماً نورانياً حميماً من بين أطلال مرحلة تدمير ، فمن جديد رحت أضحى بكل شئ بداخلى لقاء أن أنفى عن نفسى الظلام والشر . فضلاً عن أن العالم النورانى هذا كان إلى حد ما من صميم ابتكارى ، فلم يعد عبارة عن مجرد هروب ولا عودة لإستعطاف الأم وأمان اللامسئولية ، فلقد كان واجباً جديداً ، واجباً أوجدته ورغبت فيه بنفسى بمسئولية وضبط نفس .

إن جنسيتى ، عذاب كنت فى هروب دائم منه . كان على النار المقدسة أن تجعلها تأخذ شكل الروحانية والعبادة . كان على كل شئ عابث وكريه أن يُنفى ، كان ينبغى ألا يكون هناك مزيد من الليالى العصبية ، لا إستثارة أمام الصور الخليعة ، لا تنصت على الأبواب الممنوعة ، لا شهوة ، وبدلاً من ذلك نصبت مذبحى

قبالة صورة بياتريس وبجانب تكريس نفسى لها كرست نفسى للروح وللآلهة ، مضحياً بذلك الجزء من الحياة حيث انسحبت من جيش الظلام إلى جيش النور . لم يكن هدفى الإبتهاج بل الطهارة ، لم يكن السعادة بل الجمال والروحانية .

لقد غير هذا التألة ببياتريس حياتى برمتها . . بالأمس كنت ساخراً قليل الخبرة ، واليوم أصبحت مساعد كاهن هدفه أن يكون قديساً . لم أتخل فحسب عن الحياة التى أصبحت معتاداً عليها ولكن حاولت أن أحسن نفسى بإضفاء النقاء والنبل على كل مظهر من مظاهر حياتى : فيمايتعلق بهذا ، رحت أفكر فى عادات طعامى وشرابى ، فى لغتى وهندامى . فى الصباح كنت أبدأ بحمامات باردة ، كلفتنى مشقة بالغة فى بادئ الأمر . لقد أصبح سلوكى جاداً ومبجلاً ، رحت أمشى مشدوداً وإتخذت مشية وئيدة ومبجلة . ربما بدا ذلك مضحكاً للغرباء ولكن بالنسبة لى كان فعلاً أصيلاً من التعبد .

من بين كل الممارسات الجديدة التى حاولت من خلالها أن أعبر عن إيمانى الجديد ، واحدة أصبحت بحق مهمة بالنسبة لى . شرعت فى الرسم . كانت نقطة البداية لهذا هى نسخ اللوحة الإنجليزية التى كانت لدىَّ والتى لم تكن تشبه حبيبتى بياتريس كما ينبغى ، محاولاً أن أرسم بورتريهاً لها . بسعادة جديدة وتفاؤل رحت أشترى ورقاً جميلاً ، أصباغاً وفرشاً وحملتها إلى غرفتى - كانوا للتو قد خصصوا لى غرفة

على حدة - وأعددت لوحة الأصباغ وكوبى وأطباقى البورسلين وأقلامى الرصاص . لقد فرحت كثيراً بألوان التمبرا المبهجة فى الأنابيب الصغيرة ، كان من بينها ذلك الأخضر النارى ، أعتقد أنه مازال بوسعى أن أتخيل إلى اليوم لحظة أن توهج لأول مرة فى الطبق الأبيض الصغير .

بدأت بحرص شديد . كان رسم وجه يُعد أمراً عسيراً . أردت أن أجرب نفسى أولاً على شئ آخر . فقمت برسم زخارف وزهور ، ومنظر طبيعى متخيل صغير عبارة عن شجرة بجانب كنيسة صغيرة ، قنطرة رومانية ذات أشجار سرو . أحياناً كنت أغدو منهمكاً تماماً فى هذه اللعبة حيث كنت سعيداً سعادة طفل بعلبة الألوان . فى آخر المطاف شرعت فى بورتريهى الخاص ببياتريس . فشلت بضعة محاولات وطرحتها ، كلما زادت محاولاتى فى تخيل وجه الفتاة التى قابلتها فى مكان أو آخر بالشارع كلما كنت أقل نجاحاً . أخيراً توقفت عن المحاولة وأقنعت نفسى بأن أستسلم إلى خيالى وحدسى اللذين راحا يبزغان بطريقة عفوية من اللمسات الأولى وكأنهما يبزغان من خلال اللون والفرشاة أنفسهما . فكان وجهاً لحلم ، ذلك الذى ظهر ولم أكن راض عنه ومع ذلك كنت أصر وكانت كل مسودة جديدة أكثر تميزاً ، أكثر اقتراباً من النموذج الذى كنت أبغيه رغم أنها لم تكن مطابقة للحقيقة إلى حد ما .

أصبحت أكثر اعتيادية على رسم خطوط مهملة بفرشاة رسم حالمة وتلوين المساحات التى لم يكن لها نموذج فى مخيلتى ، كان ذلك نتيجة محاولات التلمس المازحة لما وراء وعيى الخاص . فى النهاية ، ذات يوم رسمت وجهاً دون أن أعرفه على وجه التحديد ، وجهاً تجاوبت معه بشدة أكثر مما تجاوبت مع أى من الوجوه الأخرى .

لم يكن وجه تلك الفتاة . فلم يعد له أن يكون ذلك . كان شيئاً آخر ، شيئاً متخيلا ، ومع ذلك لم يكن أقل قيمة بالنسبة لى . كان يشبه وجه ولد أكثر مما يشبه وجه فتاة ، لم يكن الشعر كتانى اللون كشعر فتاتى الجميلة ، بل بنياً داكناً مشوباً بحمرة . كانت الذقن قوية ومحددة الشكل ، والوجه مثل زهرة حمراء . كان بصفة عامة مشدوداً نوعاً ما ويشبه القناع غير أنه كان مؤثرا ومفعماً بحياة خفية ، نسيج وحدها . عندما جلست قبالة الرسم المكتمل كان له تأثير غريب علىّ . إذ كان أشبه بتصور لله أو بقناع مقدس ، نصف أنثى ونصف ذكر ، أبدياً ، عاقد العزم وحالماً على حد السواء ، صارماً على قدر ما كان حيوياً على نحو خفى . بدا هذا الوجه وكأنه يحمل لى رسالة ، كان ينتمى إلىّ . كان يسأل عن شئ يتعلق بى ، لقد انطوى على تشابه مع شخص ما ، ومع ذلك لم أكن أعرف من .

ظل هذا البورتريه فترةً من الوقت يتملك علىّ أفكارى

ويشاركنى حياتى . لقد احتفظت به فى درج مغلق لكى لا يتناوله أحد ويوبخنى بشأنه . ولكن بمجرد أن أصبحت بمفردى فى غرفتى الصغيرة أخرجته ورحت أتواصل معه ، فى المساء علقته على الحائط المواجه لسريرى ، رحت أحدق فيه حتى غلبنى النعاس ، وفى الصباح كان أول شئ تقع عليه عينى .

إبان ذلك الوقت تحديداً حدث أن بدأت أرى أحلاماً كثيرة من جديد كدأبى عندما كنت طفلاً . بدا الأمر وكأننى لم أحلم منذ سنوات . الآن عادت الأحلام بصورٍ جديدة تماماً ، ومع مرور الوقت ظهر البورتريه فيما بينها ، مفعماً بالحياة ومعبراً ، ودوداً نحوى أو عدائياً ، أحياناً كان يغض أسارير وجهه ، أحياناً كان جميلا بشكل لا نهائى ، ومتناسقٍ ونبيلٍ .

ذات صباح ، عندما استيقظت من أحد هذه الأحلام ، فجأة تعرفت عليه ، كان ينظر إلىّ وكأنه مألوف بدرجة كبيرة وبدا أنه ينادى علىّ . بدا وكأنه على دراية بمن أكون ، مثل أم ، كما لو أن عينيه كانتا مثبتتين علىّ منذ بادئ الأمر .

بصدر يخفق رحت أحدق فى اللوحة ، الشعر البنى الداكن ، الفم الأنثوى بعض الشئ ، الجبهة البارزة ذات البهاء العجيب « لقد جفت اللوحة على هذه الحالة من تلقاء نفسها » ، وشعرت بنفسى تقترب أكثر وأكثر من التعرف ، من الإكتشاف ، من المعرفة .

قفزت من سريرى ، وخطوت إلى اللوحة ، ومن على بعد بوصات نظرت إلى عينيه الخضراوين المفتوحتين بشدة ، الصارمتين ، العين اليمنى أعلى قليلاً من العين اليسرى .

فجأة اختلجت العين اليمنى جد قليلاً وبرقة لكن على نحو واضح ، واستطعت أن أتعرف على الصورة . لماذا إستغرقت منى كل هذا الوقت الطويل ، لقد كان وجه دميان .

فيما بعد ، قارنت البورتريه بالملامح الحقيقية لدميان كما كنت أتذكرها ، لم تكن نفسها على الإطلاق رغم أنه كان ثمة تشابه . ومع ذلك كان دميان .

حدث أن شمس بداية الصيف كانت تنحدر مائلة وحمراء نحو نافذة تواجه الغرب . كان الغسق يتزايد فى غرفتى . لقد حدث أن علقت بورتريه بياتريس أو دميان على قضيب الشباك لكى ألاحظ شمس المساء وهى تلمع من خلاله فأصبحت معالم اللوحة مغبشة ، بيد أن العينين ذواتا الإطار الأحمر والبهاء على الجبهة والفم ذى اللون الأحمر الفاتح كانت تتوهج بشدة وعنف من السطح . جلست قبالتها فترة طويلة ، حتى بعد أن ذبلت الشمس ، وشيئاً فشيئاً بدأت أدرك أن هذا لم يكن بياتريس ولا دميان ولكن أنا نفسى . ليس لأن الصورة كانت تشبهنى فلم أفكر أنها يجب أن تكون ، ولكنها كانت تمثل ما يحدد شكل حياتى ، لقد كانت دخيلة نفسى ، قدرى أو روحى الشريرة . ذلك ما سيشبهه صديقى أنى تسنى لى أن أجد صديقاً من جديد .

ذلك ما سوف تشبهه المرأة التى سوف أحبها أنى تسنى لى أن أحب واحدة ، كانت هذه نغمة قدرى وإيقاعه .

فى غضون تلك الأسابيع بدأت فى قراءة كتاب ترك انطباعاً فى نفسى أكثر مما تركه أى شئ قرأته من قبل . حتى فيما بعد فى حياتى قلما جربت كتاباً أكثر إجهاداً ، ربما باستثناء نيتشه . لقد كان مجلد نوفالز الذى يتضمن أدبيات وأقوالاً مأثورة والتى لم أفهم منها سوى القليل ولكنها رغم ذلك حملت لى فتنة لاتوصف . أحد الأقوال المأثورة خطر ببالى الآن وكتبته تحت الصورة : « إن القدر والمزاج وجهان لعملة واحدة » لقد أصبح ذلك واضحاً لى الآن .

مراراً ما كنت ألمح الفتاة التى أسميتها بياتريس غير أننى لم أكن أشعر بعاطفة أثناء تلك المصادفات ، فقط بتآلف لطيف وهاجس داخلى : أنا وأنت مرتبطان ، ولكن ليس أنت ، بل صورتك ، إنك جزء من قدرى .

إنتابنى الحنين إلى ماكس دميان من جديد . لم أسمع عنه أخباراً منذ سنوات . ذات مرة قابلته أثناء عطلة . أدركت الآن أننى أخفيت هذه المصادفة القصيرة فى مذكراتى وأدركت أن ذلك تم بدافع الزهو والخزى ، يجب أن أعوض ذلك . وهكذا فى أحد أيام الإجازة عندما كنت أتجول فى بلدتى مكتسياً بعدم الاكتراث وببعض سيماء الضجر من أيام ارتياد البارات . محدقاً فى نفس الوجوه القديمة المحتقرة للبدائيين ، رأيت صديقى السابق يمشى

باتجاهى . بمجرد أن رأيته ، أجفلت . فى نفس اللحظة لم أستطع الحيلولة دون التفكير فى فرانز كرومر . ليت دميان يكون قد نسى بالفعل هذه الواقعة . كان جد من الكريه أن أكون أسير فضله ومع ذلك . . بدا عليه أنه ينتظر ! هل أحييه ؟ عندما فعلت هذا بشكل عرضى على قدر الإمكان مد يده . حقاً كانت تلك قبضته ! راسخة ، دافئة ومع ذلك باردة ، حاسمة كدأبها دائماً .

تفحص وجهى وقال « لقد كبرت يا سينكلير » بينما بدا هو نفسه طبق الأصل ، عجوزاً أو شاباً كما كان دائماً .

انضم إلىّ وقمنا بجولة ، غير أننا لم نتحدث إلا فى أمور غير ذات أهمية . عرض ببالى أننى كتبت له عدة خطابات بدون أن أتلقى أى رد . تمنيت أن يكون قد نسى ذلك أيضاً ، تلك الخطابات السخيفة ! لم يذكرها ، فى ذلك الوقت لم أكن قد التقيت ببياتريس بعد ، فلم يكن ثمة بورتريه ، كنت مازلت فى فترة معاقرة الخمر .

عند ضواحى المدينة طلبت إليه أن ينضم إلىّ فى كأس من النبيذ وفعل ذلك . وعلى الفور قدمت عرضاً جيداً فى طلب زجاجة كاملة ، ملأت كأسه . نقرت كأسى بكأسه و وأبديت ألفتى الكبيرة مع عادات شرب الطلبة بتجرع الكأس الأولى فى رشفة واحدة .

سألنى : أنت تقضى وقتاً كبيراً فى البارات ، أليس كذلك ؟

رددت : حقاً . ترى أى شئ آخر هناك يتسنى لك أن تفعله ؟ فى النهاية ! إنها أفضل من أى شئ آخر .

- هل تعتقد ، ربما ذلك . إن أحد جوانب الأمر بالطبع ممتع جداً . السكر ، عنصر العربدة . غير أننى أعتقد أن معظم الناس الذين يترددون على البارات فقدوا ذلك العنصر . يبدو بالنسبة لى أن الذهاب إلى البارات شئ بدائى فى الأساس . لا بأس إذا كان لليلة واحدة ، بصحبة المشاغل المتوهجة ، سكر هائج حقيقى ! ولكن مرة تلو أخرى ، كأس صغيرة تلو كأس أخرى ، إننى أتساءل إذا كان ذلك هوالشئ الحقيقى أم لا ؟ هل يمكنك أن ترى فاوست جالساً ليلة بعد أخرى منكباً على البار ؟ أخذت رشفة ثم نظرت إليه بعدائية .

قلت بفظاظة : « حسن ، ليس كل شخص فاوست »

نظر إلىّ باندهاش بعض الشئ ، ثم سخر منى بطريقته المعهودة المثيرة والفريدة :

- حسن ، نحن لن نتشاجر على هذا ! على أية حال ، إن حياة مدمن الخمر على ما يبدو أكثر إثارة من حياة المواطن العادى المنضبط . ومن ثم - قرأت ذلك مرة فى كتاب ما - تكون حياة طالب الملذات أفضل إعداداً لكى يصبح صوفياً . فالناس من أمثال القديس أوغسطين دائماً هم الأشخاص الذين يُكشف عنهم الحجاب . وهو أيضاً كان فى بادئ الامر عربيداً ورجلاً محنكاً .

ارتبت فيه ولم أرد أن يكون له اليد العليا تحت أى ظروف . لذا قلت بتشامخ : حسن ، كل واحد حسب مزاحه الخاص ، وبالنسبة لى ، فليس لدى طموح أن يكشف عنى الحجاب أو أى شئ من هذا القبيل .

رمقنى دميان بنظرة ثاقبة خاطفة من عينيه نصف المغمضتين ، قال بتريث « عزيزى سينكلير » ، أنا لا أريد أن أخبرك بشئ سئ . بالإضافة إلى أن كلينا لا يعرف لماذا أصبحت تشرب الخمر فى هذا الوقت . غير أن ذلك الذى بداخلك ويوجهك هو الذى يعرف بالفعل . من الأفضل أن تعرف أن بداخلنا شخص ما على دراية بكل شئ ، ويرغب فى كل شئ و ويفعل كل شئ أفضل منا نحن أنفسنا ولكن أرجو المعذرة ، لابد أن أعود .

تبادلنا وداعاً قصيراً . بقيت فى حالة غاضبة وأتيت على باقى الزجاجة . عندما أردت الإنصراف اكتشفت أن دميان قد دفع الحساب – الشئ الذى تسبب بالفعل فى تعكير صفوى للغاية – عادت أفكارى إلى تلك الواقعة الصغيرة مع دميان . لم أستطع أن أنساه . والكلمات التى قالها لى فى ذلك البار الواقع على أطراف البلدة كانت تتردد على بالى طازجة بطريقة غريبة وبكر : « من الأفضل أن ندرك أن بداخلنا شخص يعرف كل شئ »

كم اشتقت إلى دميان . لم يكن لدىَّ فكرة أين يوجد ولا كيف أصل إليه . كل ما تناهى إلى علمى أنه كان على ما يبدو يدرس بجامعة ما ، وأن أمه قد غادرت البلدة بعدما أتم دراسته

الإعدادية . حاولت أن أتذكر ما استطعت من ماكس دميان ، عائداً إلى الماضى حتى واقعة كرومر ، كم كان الكثير مما قاله لى على مدار هذه السنوات يعود إلى ذاكرتى ، ومازال له معنى إلى اليوم ، كان مناسباً لى ، كان خاصاً بى وما قاله فى المقابلة الأخيرة والكريهة إلى حد ما عن حياة ضائعة تؤدى إلى القداسة . برز بدوره فجأة أمامى . ألم يكن ذلك بالضبط ما حدث لى ؟ ألم أحيا فى الشرب والقذارة ، دائخاً وضالاً ، إلى أن أصبح العكس يحيا بداخلى بنكهة جديدة للحياة ، وبتوق إلى النقاء ، بتوق إلى ما هو مقدس ، لقد خيم الليل منذ وقت طويل والآن راح المطر يتساقط . كنت أسمع المطر أيضاً فى ذكرياتى : كان ذلك فى أثناء الوقت الذى قضيناه تحت أشجار الكستناء عندما كان يتقصى عن فرانز كرومر وكشف عن أسرارى الأولى ، وصدفة تلو أخرى عادت إلىّ ذاكرتى ، المحادثات التى كانت على امتداد الطريق إلى المدرسة ، ودروس التعميد . وفى ختام أول مقابلة لى به . عما تحدثنا ؟ لم أستطع أن أتذكر على الفور ، غير أننى أمهلت نفسى ، مركزاً بشدة . وهأنذا أتذكر بالفعل . لقد وقفنا أمام منزل والدىّ بعدما أخبرنى بتفسيره لقصة قابيل . ثم ذكر شعار النبالة شبه المختفى ، القديم الموجود على القوس الحجرى فوق مدخل منزلنا . لقد قال أن مثل هذه الأشياء تثير اهتمامه وأن هذا واحد من بينها .

فى تلك الليلة حلمت بدميان وبشعار النبالة . لقد ظل يتغير باستمرار . أمسكه دميان فى يده ، فى الغالب كان مصغراً ورمادياً ، فى الغالب يوقع الرهبة فى النفس ، له ألوان متعددة ، غير أنه شرح لى أنه شئ واحد وأنه كان دائماً نفس الشئ . فى النهاية أجبرنى أن آكل شعار النبالة ! عندما ابتلعته ، شعرت على نحو مرعب أن طائر شعار النبالة راحت تدب فيه الحياة بداخلى وقد بدأ يخفق ويلتهمنى من الداخل . فزعت من الخوف الشديد فى السرير مستيقظاً .

استيقظت تماماً ، كان الوقت منتصف الليل ، أخذ المطر يترامى إلى سمعى وهو يتدفق إلى الحجرة . عندما نهضت لأغلق النافذة دست على شئ كان يلمع على الأرضية . فى الصباح اكتشفت أنها لوحتى . كانت تغص فى حفرة مائية وقد التوت الورقة . وضعتها بين ورقتى نشاف داخل كتاب كبير . عندما تفقدتها فى اليوم التالى كانت جافة بيد أنها قد تغيرت . فلقد بهت الفم الأحمر وانكمش قليلاً . فأصبح يبدو بالضبط مثل فم دميان .

بدأت فى رسم صورة جديدة لطائر شعار النبالة . لم يتسن لى أن أتذكر بوضوح كيف كان يبدو والتفاصيل الدقيقة ، فحسب معرفتى ، لا يمكن استيضاحه حتى من قرب شديد ، لأن هذا الشئ كان قديماً وقد أُعيد طلاؤه مراراً . كان الطائر يقف أو يجثم

بمخالبه على شئ ما ، ربما على زهرة أو على سلة أو على وكر أو على قمة شجرة . لم أحب أن أزعج نفسى بهذه النقطة وبدأت بما أستطيع أن أتصوره بوضوح . وبدافع حاجة مبهمة بدأت على الفور فى استعمال ألوان صارخة ، راسماً رأس الطائر بالأصفر الذهبى . أنى انتابتنى الرغبة ، كنت أعمل فيها ، منتهياً منها فى عدة أيام .

فكانت تمثل طائراً جارحاً برأس الباشق مازال نصف جسده داخل كرة معتمة حيث يجاهد كى يخلص نفسه منها كأنها بيضة عملاق - كل هذا أمام خلفية لسماء زرقاء - عندما واصلت تفحص اللوحة بدت لى أكثر وأكثر شبهاً بشعار النبالة ذى الألوان المعددة الذى جال بخاطرى فى الحلم .

لم أستطع أن أكتب لدميان حتى لو كنت قد عرفت عنوانه على أننى عزمت - فى نفس حالة هاجس الحلم التى رحت أفعل فيها كل شئ - أن أرسل إليه لوحة طائر الباشق ، رغم أنها لم تكن لتصله . لم أقم بإضافة أى رسالة ، ولا حتى إسمى ، قمت بتهذيب أطراف اللوحة بعناية وكتبت عليها العنوان السابق لصديقى ثم أرسلتها بالبريد . كان لدىَّ إمتحان مقبل وكان علىَّ أن أبذل مجهوداً أكبر من المعتاد . لقد استعادنى المدرسون فى صفهم نظراً لأننى قد غيرت بغته نظام حياتى المشين الذى سبق .

ليس من أجل ذلك أصبحت طالباً ممتازاً ، ولكن لا أنا

ولا أى شخص آخر فكر فى ذلك مليا ، حيث بدا طردى من نصف عام شبه مؤكد . إستعادت خطابات أبى بعضا من لهجتها القديمة ، بدون توبيخات أو تهديدات . ومع ذلك لم أشعر برغبة لأوضح له أو لأى شخص آخر كيف حدث التغيير بداخلى . لقد كان من قبيل المصادفة أن تزامن هذا التحول مع رغبات والدى والمدرسين . إن هذا التغيير لم يفض بى إلى مجتمع الآخرين ، ولم يقربنى أكثر من أحد ولكنه جعلنى أكثر وحدة فى واقع الامر .

بدا تحولى أنه يأخذ إتجاه دميان ، ولكن حتى هذا كان قدراً بعيداً . لم أعرف نفسى لأننى كنت متورطاً بشدة . لقد بدأ الأمر ببياتريس و ولكننى أحياناً كنت أحيا فى عالم غير حقيقى كهذا مع لوحاتى وأفكار دميان ، كذلك كنت أنسى كل ما يتعلق بها أيضا .

لم أستطع أن أتفوه بكلمة واحدة عن أحلامى وتوقعاتى ، وتغييرى الداخلى لأى شخص ، ولا حتى فى حالة إذا أردت ذلك ولكن كيف كان لى أن أريد ؟

الطائر يشق طريقه خارج البيضة

كان طائر الحلم الذى رسمته فى طريقه بحثاً عن صديقى . فيما بدا أنه أغرب ما كان متوقعاً وصلنى رد .

فى فصلى وعلى الدرج الخاص بى ، بعد فترة راحة بين حصتين وجدت رسالة صغيرة دُست فى كتابى . لقد طويت بالضبط بنفس الطريقة التى يدس بها زملائى الرسائل خُفية لبعضهم البعض أثناء الحصة . تعجبت على الفور من تلقىّ رسالة كهذه تماماً ، فلم أحظ قط بذلك النوع من العلاقة مع أى طالب . إعتقدت أن الأمر سينتهى بها إلى دعوة لمزحة ما حيث لم أكن لأشارك فيها بأية حال . . وضعت الرسالة أمام كتابى بطريقة غير مقروءة . لم أرجع إليها سوى أثناء الحصة . عابثاً بالرسالة قمت بفردها دون اكتراث ، وانتبهت إلى بضعة كلمات مكتوبة عليها . نظرة سريعة واحدة كانت كافية . كلمة واحدة استوقفتنى متجمداً ، واصلت القراءة فى ذعر بينما سيطر الخوف المتبلد على قلبى : « الطائر يشق طريقه خارج البيضة . البيضة هى العالم . ينبغى أولاً على من سيولد أن يحطم عالماً . الطائر يطير إلى الإله . ذلك الإله يُدعى أبراكساس » .

بعد معاودة قراءة هذه السطور عدة مرات . استغرقت فى حلم يقظه عميق . ليس من أدنى شك فى أن هذا كان رد دميان . لا يمكن لأحد آخر أن يعلم بأمر لوحتى . لقد أدرك المغزى وكان يساعدنى على تفسيره .

ولكن كيف اتفق كل هذا مع بعضه البعض ؟ وعلام يدل أبراكساس ؟ أربكنى هذا أكثر من أى شئ آخر ، فلم أسمع من قبل بالكلمة ولم أقرأ عنها « إسم ذلك الإله أبراكساس » إنتهت الحصة دون أن أفهم كلمة واحدة منها ثم بدأت الحصة التالية ، الأخيرة فى الصباح . قام بتدريسها مساعد شاب ، دكتور يسمى « فولينس » أتم مؤخراً دراسته الجامعية . والذى أحببناه ببساطة لأنه كان حديث السن ومتواضعاً .

كان الدكتور فولينس يرشدنا إلى هيرودوتس .. أحد الموضوعات القليلة التى كانت تمثل لى بعض الأهمية . ولكن اليوم ولا حتى هيرودوتس يمكنها أن تسترعى اهتمامى . فتحت الكتاب بحركة ميكانيكية غير أنى لم أتابع الترجمة وبقيت مستغرقاً بشدة فى تأملاتى . علاوة على أننى قد تأكدت مراراً مما قاله دميان لى ذات مرة إبان حصص التعميد : يمكنك أن تحقق أى شئ ترغب فيه بقدر لا بأس به من الولع ، فإذا حدث أن انخرطت فى تأملاتى الخاصة لم يكن على أن أقلق من أن المدرس سوف ينادى علىّ ، فإذا كنت شارد الذهن أو غير مبال ، عندئذ كان فجأة يظهر بجانبى .

لقد حدث ذلك بالفعل . ولكن إذا ركزت وكنت غارقاً في فكرة من بنات أفكاري ، أكون عندئذ في حماية . عندما كنت لم أزل بصحبة دميان ، لم أنجح في هذا ، الآن طالما كنت أشعر أن صفقة لا بأس بها يمكن إنجازها بنظرة حادة وفكر .

في الوقت الحالي لم أكن قريباً من هيرودوتس أو المدرسة . فجأة انطلق صوت المدرس مثل البرق في سماء وعيي وانتبهت مفزوعاً . سمعت صوته ، كان يقف بالفعل بجاني ، خلت حتى أنه نادى على إسمي . غير أنه لم يكن ينظر إليّ . فتنفست الصعداء .

ثم سمعت صوته مرة ثانية ينطق بصوت مرتفع كلمة « أبراكساس » . في خضم شرح طويل فاتتني بدايته ، إستمر دكتور فولينس : « ليس علينا أن ننظر إلى آراء هذه النحل والجماعات الصوفية على أنها ساذجة كما تبدو من خلال وجهة نظر العقلانيين . فالعلم كما عرفناه اليوم لم يكن معروفاً للعصور القديمة . ففي المقابل كان هناك انشغال بالحقائق الفلسفية والصوفية الذي بلغ ذروته .

إن الذي نتج عن هذا الإنشغال كان إلى حد ما مجرد سحر مبتذل وعبث ، ربما مراراً ما قاد إلى الضلالات والجرائم بيد أن هذا السحر أيضاً كانت له سوابق نبيلة في فلسفة عميقة ، على سبيل المثال التعاليم التي تتعلق بأبراكساس الذي ذكرته آنفاً ،

يوجد هذا الإسم متصلاً بالتقاليد السحرية اليونانية وقد اعتبر مرارً كإسم لمساعد ساحر تؤمن به بعض القبائل الغير متحضرة حتى وقتنا الحاضر . غير أنه يبدو لى أن أبراكساس له دلالة أكثر عمقاً . ربما نتصور الإسم على أنه إسم لرأس إله مهمتها الرمزية الجمع بين عناصر الخير والشر .

تحدث الشاب المتعلم بحصافة واهتمام بيد أن أحداً لم يبد إهتماماً كبيراً ، وكأن إسم ابراكساس لم يتردد . عادت أفكارى أدراجها إلى شغلى الشاغل « الجمع بين عناصر الخير والشر » . راحت تتردد فى دخيلتى . هنا كان شئ يتعلق بأفكارى يمكن أن أتمسك به . كانت هذه الفكرة مألوفة بالنسبة لى من محادثاتى الأخيرة مع دميان . لقد قال إبان الفترة الأخيرة لصداقتنا أننا قد وهبنا إلهاً نعبده يمثل فحسب نصفاً واحداً من العالم مفصول على نحو تعسفى « إنه العالم الرسمى المعترف به ، النورانى » ولكن لابد لنا أن نعبد كل العالم ، معنى ذلك أنه ينبغى علينا أيضاً أن نحظى بإله عبارة عن شيطان أو ننشىء عبادة الشيطان جنباً إلى جنب مع عبادة الله . والآن كان أبراكساس هو المعبود الذى تضمن كل من الإله والشيطان .

سعيت وراء هذه الفكرة ولكن بدون إحراز أى تقدم . فرحت أنكب على كتب المكتبة برمتها بحثاً عن إشارة لأبراكساس . على أن طبيعتى لم تستمل قط لمثل هذا النوع من

التقصى المباشر العقلانى حيث فى البداية لا يجد المرء فى يده سوى حقائق عبارة عن جثة هامدة بشكل كبير .

إن شكل بياتريس الذى شغلت نفسى به كثيراً بحميمية ووله ، أصبح مغموراً شيئاً فشيئاً أو بالأحرى كان ينحسر وئيداً مقترباً أكثر وأكثر من حافة الأفق . طافقاً أكثر شبحية وبعداً ، أكثر شحوباً . إذ لم تعد بعد تشبع أشواق روحى .

فى العزلة الخاصة التى صنعتها بنفسى حيث كنت أعيش فيها كالمتجول النائم ، بدأ نمو جديد يتشكل بداخلى . أخذ يتزايد التوق إلى الحياة أو بالأحرى « التوق إلى الحب » . إن الدافع الجنسى الخاص بى ، الذى كرسته وقتاً ما فى تبجيل بياتريس راح يتطلب صوراً وأهدافاً جديدة . بيد أن رغباتى ظلت غير متحققة وكان مستحيلاً أكثر من ذى قبل أن أحتال على أشواقى وتطلعى لشئ ما من النساء اللواتى جرب معهن زملائى حظهم . فرحت أحلم مرة ثانية وكأنها حقيقة فى واقع الأمر ، بالنهار أكثر مما فى الليل ، إن الأفكار والصور والرغبات كانت تنبثق بداخلى فى حرية وكانت تشدنى بعيداً عن العالم الخارجى لذلك كنت على علاقة حيوية وسخية مع العالم المؤلف من صميم ابتكارى ، ومع تلك التصورات والأحلام والظل أكثر مما كنت على علاقة بالعالم الواقعى من حولى .

ثمة حلم محدد أو توهم ظل يتكرر مكتسباً دلالة بالنسبة لى .

سار الحلم ، الذى ظل دائماً أكثر أهمية ومغزى لحياتى ، كما يلى : كنت عائداً إلى منزل أبى . . فوق المدخل كان شعار النبالة يتألق بلون أصفر فى خلفية زرقاء ، فى المنزل نفسه كانت أمى مقبلة نحوى ، ولكن عندما دخلت وأردت أن أعانقها ، لم تكن هى بل شكل لم تقع عليه عينى من قبل ، طويلاً وقوياً ، مشابها لماكس دميان والصورة التى قد رسمتها ، ومع ذلك كان مختلفاً ، ورغم طوله إلا أنه كان تام الأنوثة .

جذبنى هذا الشكل إليه وطوقنى فى عناق مرتجف شديد . شعرت بخليط من النشوة والرعب ، كان العناق فى نفس الوقت بمثابة عبادة وجريمة . كانت الكثير من المشاركات مع أمى وصديقى تندمج مع هذا الشكل الذى يعانقنى . لقد كان عناقه ينتهك الشعور بالتبجيل كليةً . مع ذلك كانت ثمة بهجة . أحياناً كنت أستيقظ من هذا الحلم بإحساس عميق بنشوة ، وأحياناً أخرى فى خوف مهلك وبضمير معذب وكأننى قد ارتكبت جريمة بشعة .

غير أننى شيئاً فشيئاً ودون أن أقصد أصبحت هذه الصورة شديدة الحميمية مرتبطة بالتلميح المتعلق بالإله الذى كان علىّ أن أبحث عنه ، التلميح الذى قدم إلىّ من الخارج . فأصبحت الرابطة أكثر إحكاماً وأكثر حميمية وبدأت أدرك أننى كنت أنادى على أبراكساس بصفة خاصة فى هاجس الحلم هذا .

سرور ورعب ، رجل وامرأة مندمجان ، ما هو أكثر قداسة وأكثر إخجالاً كانا ممتزجين ، الخطيئة الشديدة تمرق خلال براءة ناعمة : لقد كان ذلك هو مظهر صورة حلم الحب الخاص بى ، وأبراكساس أيضاً ، لم يعد الحب الدافع الحيوانى الشرير الذى مارسته فى البداية بخوف ، ولم يعد تحول المتعبد الذى قدمته إلى بياتريس . بل كان كليهما وأكثر . كان صورة لملاك و شيطان ، لرجل وامرأة فى جسد واحد . إنسان وحيوان ، الخير الأسمى والشر الأدنى . بدا الأمر كما لو كان مُقدراً لى أن أعيش بهذه الطريقة ، بدا هذا قدرى المصيرى . لقد تُقت إليه ، بيد أننى كنت أخشى منه فى الوقت ذاته .

فى الربيع التالى كان على أن أترك المدرسة الإعدادية وألتحق بجامعة . على أننى لم أكن قد قررت بعد أين وماذا ينبغى أن أدرس . لقد احتفظت بشارب نحيل ، وكنت رجلاً مكتملاً ، ومع ذلك كنت فى عجز تام وبلا هدف فى حياتى . ثمة شئ وحيد كان مؤكداً . الصوت الذى كان يتردد فى دخيلتى ، وصورة الحلم . شعرت بالواجب أن أتبع هذا الصوت فى عماء إلى أى مكان يقتادنى إليه . بيد أن ذلك كان شاقاً وكل يوم كنت أثور عليه مجدداً . ربما كنت مجنوناً كما اعتقدت أحياناً . ربما لم أكن مثل سائر الناس ، ولكنى كنت قادراً أن أفعل نفس الأشياء التى كان يفعلها الآخرون ،فبجهد قليل ومثابرة استطعت أن أقرأ

أفلاطون ، وتمكنت من حل مسائل حساب المثلثات . واستوعبت التحليل الكيميائى . كان هناك شئ واحد لم أستطع أن أفعله . وهو أن أُلقى عن عاتقى الهدف الغامض وأضعه نصب عينى ، كما كان يفعل الآخرون الذين عرفوا على وجه التحديد ماذا يريدون أن يكونوا . . أساتذة ، محامين ، أطباء ، فنانين . بغض النظر عن المدة التى كانوا يستغرقونها ، وأياً كانت الصعوبات والفوائد التى سوف يخلفها هذا القرار فى أعقابه . فهذا لم أتمكن من فعله .

ربما سأصبح شيئاً من هذا القبيل ، ولكن كيف لى أن أعرف ؟ ربما سيكون علىَّ أن أستمر فى بحثى على مدار سنوات دون إنقطاع ثم لا أصبح شيئاً ، ولا أصل إلى هدف ، ربما كنت أصل إلى هذا الهدف ولكنه سينقلب ليصبح هدفاً شريراً وخطيراً وشنيعاً ؟ أردت فقط أن أحاول العيش فى توافق مع التلقينات التى صدرت عن طبيعتى . لماذا كان ذلك صعباً للغاية ؟

لقد قمت بمحاولات كثيرة لرسم طيف الحب الفائق لحلمى . ولم أتمكن قط . لو تسنى لى لكنت أرسلته إلى دميان . أين مكانه . . لا أدرى . لم أكن أعرف سوى أننا كنا على رباط . متى سنلتقى من جديد ؟

لقد انقضى هدوء أسابيع وشهور الفترة الخاصة بحبيبتى بياتريس منذ وقت طويل . آنذاك كنت أعتقد أننى وصلت إلى بر

أمان ، إلى جزيرة سلام . ولكن كالعادة ، بمجرد أن أصبحت معتاداً على حالتى ، بمجرد أن منحنى حلم الأمل ، ذوى وأصبح بلا طائل من وراءه . كان من العبث أن آسف على الخسارة . لقد كنت أعيش الآن فى لهيب الشوق المكبوت ، فى لهيب الشعور المتوتر بالترقب الذى دفعنى كثيراً إلى الطيش التام . كثيراً ما كنت أرى الطيف العزيز لحلمى بوضوح أكثر من الحياة ؛ بجلاء أكثر من يدى نفسها ، رحت أتحدث معه ، أبكى بين يديه ، أشتمه ، دعوته أمى وجثوت باكياً أمامه . كنت أدعوه محبوبتى وكان لدىَّ إحساس داخلى بقبلته الناضجة تامةالتحقق . دعوته شيطاناً وعاهرة ، مصاص دماء وقاتلاً . لقد كان يستدرجنى إلى أكثر أحلام الحب رقة وإلى التخلص من الخجل ، لم يكن شيئاً شديد الجودة والقيمة ، لم يكن شيئاً متعمقاً فى الشر والوضاعة بالمقارنة به .

رحت أعانى طيلة ذلك الشتاء من اضطراب داخلى ممتد ، حيث وجدت من الصعب وصفه . لقد أصبحت منذ وقت طويل معتاداً على وحدتى . لم يسبب لى ذلك كبتاً ، إذ كنت أعيش مع دميان وطائر الباشق ، ومع طيف الحب الفائق لحلمى الذى اعتبرته قدرى ومحبوبتى . كان هذا كافياً لدعمى ، لأن كل شئ كان يتجه نحو الإتساع والفراغ . . كل شئ برمته كان يتجه نحو أبراكساس ، ولكن لم يكن أى من هذه الأحلام ، ولا أى من هذه

الأفكار طوع يدى ، لم يكن رهن إشارتى ، لم أستطع أن أكون أياً منها حسبما شئت . لقد كانت تأتى وتأخذنى . وكنت خاضعاً لسيطرتها ، لقد كنت مسيراً بها .

على أننى كنت مسلحاً جيداً فى مواجهة العالم الخارجى . فلم أعد خائفاً من الناس ، حتى زملائى خلصوا إلى معرفة ذلك وراحوا يعاملوننى باحترام خفى كثيراً ما جلب ابتسامة إلى ثغرى .

لو أردت لاستطعت أن أستشف عند أغلبهم ما تنطوى عليه أنفسهم فأذهلهم بين الفينة والفينة غير أننى قلما أو بالأحرى لم أحاول قط . فلقد كنت دائم الإنشغال بالتفكير فى نفسى .

إنتابنى شوق لا رجاء فيه أن أحيا بالفعل لمرة واحدة ، أن أعطى للعالم شيئاً مامن نفسى ، وأن أدخل فى علاقة وأصارع معها . أحياناً بينما كنت أجول فى الشارع بالمساء ، غير قادر على العودة قبل منتصف الليل لأنى كنت فى قلق شديد ، كنت أشعر الآن فى نفس هذه اللحظة أنه كان يجب أن أقابل حبيبتى - كأنهاكانت تجتازنى إلى منعطف بالشارع التالى ، وتنادى لى من أقرب نافذة - وفى أحيان أخرى بدا كل هذا مؤلماً بشكل لا يطاق وأنى مستعدٌ لارتكاب جريمة ، غير أننى عندئذ عثرت على ملجأ غريب - « بالصدفة » كما يقولون - رغم أنى لا أؤمن بوجود هذا الشىء . فإذا أردت شيئاً ميئوساً منه ووجدته ، فليس هذا من قبيل الصدفة ، إن ولعك ورغبتك العارمة فيه يدلانك عليه .

ذات مرة أو مرتين تهادى إلى سمعى أثناء جولاتى موسيقى أرغن تنبعث من كنيسة صغيرة تقع على أطراف البلدة . لم أتوقف لأصغى . فى المرة التالية التى مررت فيها على هذه الكنيسة سمعت الموسيقى من جديد وعرفت أنها لـ باخ . توجهت نحو الباب فوجدته مغلقاً ، ولأن الشارع كان إلى حد ما خالياً رحت أجلس على حافة الرصيف المجاور للكنيسة ، ورفعت ياقة معطفى وأخذت أصغى .لم يكن أرغناً كبيراً بيد أنه كان يتميز بنغمة جيدة . كان يعزف بتعبير شخصى فائق وغريب لغاية وتشبث يوحيان بالصلاة . كنت أشعر أن عازف الأرغن كان على دراية بالكنوز الدفينة للموسيقى . تلك التى كان يغازلها ويقرعها عند البوابة . مكافحاً من أجل هذا الكنز كما لو كان من أجل حياته .

إن معلوماتى الفنية عن الموسيقى جد محدودة . غير أن ثمة إدراك فطرى كان لدىَّ منذ الطفولة . إذ كنت أشعر أن الموسيقى شئ بديهى بداخلى .

أدى عازف الأرغن شيئاً ما أكثر عصرية - محتمل أنه لماكس ريجر - كانت الكنيسة مظلمة تماماً ، اللهم إلا من خيط رفيع من الضوء ينفذ من النافذة القريبة منى . إنتظرت حتى توقفت الموسيقى . عندئذ رحت أمشى جيئة وذهاباً حتى شاهدت عازف الأرغن يغادر الكنيسة .

كان لم يزل شاباً رغم أنه كان يكبرنى - ذو كتفين مربعين ،

طويل القامة وراح يقلع بخطوات هائلة ومع ذلك كانت تبدو مكرهة .

من ساعتها كنت أجلس بين الفينة والفينة خارج الكنيسة أو أخطو جيئة وذهاباً أمامها أثناء ساعات المساء .

ذات مرة ألفيت الباب بالفعل مفتوحاً فجلست ساعة على مقعد طويل أرتعد من البرد ومع ذلك كنت سعيداً طيلة ما كان يؤدى عازف الأرغن فى السقيفة . لم أميز فحسب شخصيته من الموسيقى التى كان يعزفها - كانت كل مقطوعة يؤديها على صلة بدورها بالمقطوعة التى تليها ، على رباط سرى . كل شئ كان يقوم بعزفه كان مفعماً بالإيمان ، والتسليم والتعبد ، ومع ذلك لم يكن ورعاً على نمط مرتادى الكنيسة والقساوسة ، بل ورعاً بطريقة الحجيج والزهاد الذين عاشوا فى العصور الوسطى ، وورعاً بتسليم غير مشروط لشعور شامل يسمو على كل الإقرارات بالذنب . لقد عزف كذلك موسيقى مؤلفة قبل باخ والإيطاليين القدامى . كانت هذه الموسيقى فى مجملها تقول نفس الشئ ، كل منها كان يعبر عما يجول فى نفس الموسيقى : حنين ، تكفير شديد بالدنيا وبتخلى صارم عن المجون ، إصغاء متحرق إلى روح المرء المظلمة ، إستسلام منتش وفضول شديد بما هو معجز .

ذات مرة عندما مشيت فى إثر عازف الأرغن بعد أن غادر الكنيسة . رأيته يدخل إلى حانة صغيرة تقبع على أطراف البلدة .

لم أستطع الحيلولة دون تتبعه إلى الداخل . للمرة الأولى أتمكن من رؤيته بوضوح . جلس إلى طاولة فى الركن القصى من الغرفة الصغيرة . كان يرتدى قبعة لباد سوداء . بينما مثلت أمامه قارورة من النبيذ . بدا وجهه كما توقعت . كان قبيحاً وطائشاً بعض الشئ ، ملح السؤال وذا رأس ضخمة ، متقلباً ، عاقد العزم . ومع ذلك كان لفمه سمت طفولى رقيق . كانت كل رجولته مركزة في العينين والجبين . بينما كان الجزء السفلى من الوجه رقيقاً وغير ناضج ، غير متحكم فيه وناعم جداً بطريقة ما . بدت الذقن المائعة الصبيانية تكذب على الجبين والعينين اللتين أحببتهما ، إذ كانتا مفعمتين بالزهو والعداء .

جلست قبالته دون أن أنبس ببنت شفة . لقد كنا الزائرين الوحيدين فى الحانة . رمقنى بنظرة وكأنه يريد أن يهشنى بعيداً ولكننى لم أتزحزح ، وعاودت التحديق دون أن أتحرك حتى راح يتذمر على نحو مشاكس : « فيما تحدق بربك ، هل يلزم خدمة ؟ » قلت : « كلا ، لا أريد أى شئ منك ، لقد منحتنى بالفعل صفقة كبيرة »

« إذن فأنت عاشق للموسيقى ، أجد من المقزز أن تكون ولوعاً بالموسيقى »

لم أدع له الفرصة كى يخيفنى . قلت : « لقد أصغيت إليك كثيراً ، هناك فى الكنيسة ، ولكننى لا أريد أن أزعجك . خلت

أننى ربما أجد شيئاً خاصاً ، إننى فى واقع الأمر لا أعرف ماذا . لكن لا تلق بالاً إلىّ . يمكننى أن أصغى إليك فى الكنيسة » .

« ولكننى دائماً ما أغلقها »

« من فترة ليست بعيدة نسيت أن تغلقها وجلست بالداخل ، إننى عادة ما أقف بالخارج أو أجلس على حافة الرصيف »

« حقاً ؟ فى المرة القادمة يمكنك الدخول ، فالطقس أكثر دفئاً . كل ما يجب عليك فعله أن تطرق على الباب ولكن ينبغى عليك أن تطرق بشدة وليس أثناء قيامى بالعزف . هيا ادخل فى الموضوع .. ماذا لديك ؟ إنك ؟ إنك بالفعل لم تزل صغيراً ، أغلب الظن أنك طالب .. هل أنت موسيقى ؟ »

« كلا . إننى أحب سماع الموسيقى ، ولكن فقط الموسيقى التى تقوم بعزفها ، الموسيقى الصريحة تماماً ، الموسيقى التى تجعلك تشعر أن رجلاً يصافح الجنة والجحيم . إننى أؤمن بحبى لهذه الموسيقى لأنها غير ملتزمة ، إن أى شئ آخر جد أخلاقى ، وإننى أبحث عن شئ غير أخلاقى . فالأخلاق تبدو لى على الدوام شيئاً لا يطاق ، لا يمكننى أن أوضح ذلك جيداً ، هل تعلم أنه يجب أن يكون هناك معبود عبارة عن الإله والشيطان كليهما فى نفس الوقت . مفترض أنه كان هناك من قبل واحد ، لقد سمعت عنه » .

أرجع الموسيقى قبعته الواسعة قليلاً إلى الوراء وأجفلت

رموش عينيه ، محدقاً طيلة الوقت . أخفض رأسه من المنضدة ثم سأل برفق وعلى نحو متوقع : « ما إسم الإله الذى ذكرته ؟ »

« لسوء الحظ لا أعرف شيئاً بالإضافة إلى ذلك ، لا أعرف بالفعل سوى إسمه . إنه يدعى أبراكساس »

حدج الموسيقى بارتياب فيما حوله وكأن أحداً ربما كان يسترق السمع ، ثم دنا منى أكثر وقال هامساً : « ذلك ما حسبته . . من أنت ؟ »

« طالب بالمدرسة الإعدادية »

« كيف تسنى لك أن تسمع عن أبراكساس ؟ »

« بالصدفة »

ضرب الطاولة فاندلق النبيذ من الكأس .

« بالصدفة ! لا تقل كلاماً فارغاً أيها الرفيق الصغير ! إن المرء لا يسمع عن أبراكساس بالصدفة ! ولا تنسى هذا . إننى سوف أخبرك بالمزيد عنه ، إننى أعرف القليل »

أقعى صامتاً ، ثم عاد بكرسيه إلى الوراء . عندما نظرت إليه متوجساً ، بادرنى بإشارة بوجهه « ليس هنا ، فى وقت آخر »

وضع يده فى معطفه الذى لم يكن قد خلعه ، وأخرج بعض حبات الكستناء المحمصة ورماها إلّى .

لم أقل شيئاً . ، أخذتها ، ورحت آكلها فأحسست بالسرور .

همس بعد برهة « حسن ، كيف اكتشفت أمره ؟ »

لم أتردد فى إخباره .

بدأت : كنت فى وقت ما وحيداً ومحبطاً ، ثم تذكرت شخصاً كان صديقاً لى منذ عدة سنوات حيث كنت أشعر أنه يعرف أكثر منى . وقد رسمت شيئاً ما ، طائراً يكافح خارجاً من كرة . أرسلت إليه هذا الرسم . بعد فترة وجدت قطعة من الورق مكتوب عليها الكلمات التالية : الطائر يشق طريقه خارج البيضة . البيضة هى العالم . ينبغى أولاً على من سيولد أن يحطم عالماً . الطائر يطير إلى الإله . ذلك الإله يدعى أبراكساس .

سأل « كأس أخرى ؟ » .

« كلا ، شكراً . أنا لا أحب الشرب » .

ضحك وقد خاب أمله بعض الشئ .

« على راحتك . إن الأمر مختلف معى . إننى سأبقى ولكن بإمكانك أن تنصرف إذا شئت » .

فى المرة التالية التى إنضممت إليه فيها ، بعد أن قام بالعزف على الأرغن ، كان متحفظاً . صحبنى إلى زقاق ، ثم إلى داخل منزل مميز وعتيق ، ثم لأعلى إلى غرفة واسعة ، مظلمة بعض الشئ ومهملة . باستثناء بيانو لم يكن فيها من شئ يدل على أنه موسيقى ، بيد أن ثمة مكتبة كبيرة ومكتب أضفيا على الحجرة طقساً مدرسياً إلى حد ما . صحت متعجباً « ما أكثر الكتب التى لديك »

« جزء منها من مكتبة أبى الذى أعيش فى منزله . أجل أيها الشاب ، إننى أعيش مع أبوىّ غير أننى لا أستطيع أن أقدمك إليهما . فمعارفى لا ينظر إليهم كما ينبغى فى هذا المنزل ، فأنا الشاة السوداء . إن أبى قس مهم ومبجل كما أنه واعظ بهذه البلدة . وحتى تفهم « الفولة » دفعة واحدة ، فأنا الولد النابغة والواعد الذى ضل سواء السبيل وإلى حد ما مخبول أيضاً . لقد كنت طالباً فى قسم اللاهوت ولكن باختصار قبل الدخول فى جو الإمتحانات تركت هذا القسم المعتبر ، أقصد ، ليس تماماً ، إذ ليس على القدر الوافى لما تعنى به دراساتى الخاصة ، لأننى مازلت شديد الإهتمام بمعرفة ما هى أنواع الآلهة التى ابتدعها الناس لأنفسهم . بالإضافة إلى أننى موسيقى فى الوقت الحاضر ويبدو أننى سوف أحظى بعمل صغير كعازف بيانو فى مكان ما . عندئذ سوف أعود للعمل بالكنيسة من جديد »

على قدر ما سمح الضوء الشاحب الذى كان ينبعث من المصباح المستقر على المنضدة رحت أنظر على مر أكعبة الكتب ولاحظت عناوين يونانية ولاتينية وعبرية . فى تلك الأثناء انبطح رفيقى على الأرض وكان منهمكاً فى شئ ما . بعد لحظة راح ينادى : تعال ، نريد أن نمارس شيئاً من الفلسفة . ذلك يعنى . أبق فمك مغلقاً وانبطح على بطنك ، وتأمل .

أولع عود ثقاب وأشعل ورقاً وخشباً فى المدفأة التى تقبع أمامه

حيث انبطح ، أخذت ألسنة اللهب فى الصياح ، فراح يقلبها ويغذيها بعناية فائقة . إنبطحتُ بجانبه على السجادة البالية قرابة ساعة ، إنبطحنا على بطنينا أمام الخشب المتوهج . مراقبين ألسنة اللهب التى تزداد وتزأر ، تهبط ثم ترتفع من جديد ، تخفق وترتعش ، وفى النهاية استكانت فى وداعة على الجمر الذى غص فى المدفأة و ثم حدث أن راح يتمتم فى نفسه « إن عبادة النار لم تكن أحمق شئ تم التوصل إليه على الإطلاق » فى المقابل . لم ينبس أحد منا ببنت شفة . رحت أحدق بثبات فى ألسنة اللهب ، مغرقا نفسى فى الأحلام والسكون ، رحت أتعرف على الأشكال خلال الدخان والصور فى الرماد . حدث أن أجفلت مندهشاً .

رمى رفيقى بقطعة من مادة صمغية على الجمر ، فتصاعد لهب رقيق فرحت أتعرف على الطائر الذى له رأس الباشق الصفراء .

فى الجمر المحتضر ، أخذت خيوط حمراء وذهبية تتقابل فى شباك ، بينما راحت تلوح حروف الأبجدية ، ذكريات وجوه ، حيوانات ، ونباتات ، وديدان وحيات . عندما أفقت من أحلام اليقظة الخاصة بى نظرت إلى رفيقى ، كانت ذقنه مستقرة على قبضتيه ، محدقا بحماس فى الرماد فى إستسلام تام . قلت فى هدوء « يجب أن أذهب الآن »

« هيا إذن . مع السلامة »

لم ينهض . لقد انطفأ المصباح فرحت أتلمس طريقى خلال

الحجرات المظلمة وممرات المنزل العتيق المسحور . ثم توقفت بالخارج وتطلعت إلى واجهته كانت كل النوافذ مظلمة .كان ثمة لوح نحاسى صغير على الباب الأمامى ، يلمع فى ضوء كان يأتى من مصباح بالشارع . قرأت عليه الكلمات « بيستوريوس ، القس ، بريماريوس » لم يتبادر إلى ذهنى إلا بعد ن أصبحت بالبيت وجلست فى غرفتى الصغيرة بعد العشاء كونى لم أسمع أى شئ عن أبراكساس أو بيستوريوس ، لقد تبادلنا بضعة كلمات بيد أني كنت قانعا بزيارتى . وبالنسبة للقائنا القادم فلقد وعدنى أن يقوم بعزف مقطوعة رائعة من الموسيقى القديمة « باساكاليا » للأرغن لـ « بوكستهيود » .

دون أن أكون مدركاً للأمر ، أعطانى عازف الأرغن ، بيستوريوس درسى الأول عندما كنا منبطحين على الأرض أمام النار فى صومعته التى تبعث على الكآبة .

إن التحديق فى وهج النار كان مقوياً لى ، مرسخاً للميول التى كانت لدىَّ دائماً ولكن لم تكن أبداً متطورة . راحت تبدو مفهومة بالنسبة لى شيئاً فشيئاً .

لقد كنت معتاداً حتى عندما كنت طفلاً على تأمل الظواهر الطبيعية الغريبة ، لم أكن ألاحظها كثيراً باعتبارى مستسلماً لسحرها ، للغتها البليغة المحيرة . جذور الشجرة العقدية الممتدة ، العروق الملونة فى الصخور ، بقع الزيت التى تطفو على

سطح الماء ، عيوب الإنكسار الضوئى فى المرآة ، كل هذه الأشياء قد حملت لى سحراً كبيراً فى يوم من الأيام . الماء والنار على وجه الخصوص ، الدخان ، السحب والغبار ، ولكن أهم من ذلك كله بقع اللون الدوامة التى راحت تدور أمام عينى لحظة أن أغمضتها . بدأت فى تذكر كل هذا فى الأيام التالية لزيارتى لبيستوريوس ، لأننى إنتهيت إلى وجود قوة معينة وبهجة ، ترسيخ لوعيى بالذات هذا الذى رحت أشعر به منذ ذلك المساء .

إننى أدين كليةً لهذا التحديق الطويل فى النار . لقد كانت تجربة باعثة على الإرتياح على نحو لافت وسخية .

بالنسبة للتجارب القليلة التى ساعدتنى على امتداد الطريق نحو الهدف الحقيقى لحياتى أضفت هذه التجربة الجديدة : إن ملاحظة مثل هذه التحولات ، الإستسلام لتشكيلات الطبيعة المضطربة الغريبة والغير منطقية يولد بداخلنا الإحساس بانسجام داخلى مع القوة المسئولة عن هذه الظواهر . سرعان ما نقع فريسة لإغراء التفكير فيها كأنها حالاتنا الخاصة ، وأنها من صميم إبتكارنا ، ثم نرى الحدود التى تفصلنا عن الطبيعة وقد بدأت فى التخلخل والتلاشى ثم نشرع فى الوقوف على حقيقة الحالة التى نكون فيها غير قادرين على تحديد إذا ما كانت الصور التى تتكون على شبكية أعيننا هى نتيجة تأثيرات قادمة من خارجنا أو من داخلنا .

ما من مكان كما فى هذه التجربة يمكننا فيه أن نكتشف بسهولة كبيرة وبساطة إلى أى مدى نحن مبدعون ، إلى أى مدى تتشرب روحنا خلق العالم لأنها نفس الألوهية التى لا تتجزأ والتى يسرى مفعولها فينا وفى الطبيعة ، وإذا تسنى للعالم أن يهلك لتمكن شخص واحد منا من إعادة بنائه : الجبل والجدول ، الشجرة والورقة ، الجذر والزهرة ، نعم ، فكل صورة طبيعية هى كامنة بداخلنا ، تكمن فى الروح التى يُعد جوهرها أبدياً ، والتى لا نعرف جوهرها غير أنه كثيراً ما يعبر عن نفسه لنا بصفته القوة التى تدفعنا للحب والإبداع .

ليس قبل سنوات عديدة فيما بعد تسنى لى أن أكتشف أن تلك الملاحظات الخاصة مثبتة فى كتاب لليوناردو دافنشى ، الذى يناقش عند أحد النقاط كم هو طيب ، كم هو مثير بشدة أن ننظر إلى حائط قام العديد من الناس بالبصق عليه . لقد كان يواجه كل وصمة على الحائط المبلل ، لابد أنه أحس بما أحس به بيستوريوس وما أحسست به أمام النار .

فى المرة التالية التى جمعتنا شرح لى عازف الأرغن أننا نعين حدود شخصيتنا على نحو ضيق . بصفة عامة إننا نأخذ فى الحسبان كجزء من شخصيتنا فقط ذلك الذى نستطيع أن نتعرف عليه باعتباره سمة فردية أو باعتباره انحرافاً عن الطبيعى . بيد أننا نتكون من كل الأشياء التى يتكون منها العالم ، فكل منا ،

وبالضبط كما فى أجسادنا التى تحتوى على جدول الأنساب للتطور عودة للوراء نزولاً إلى السمكة وربما أبعد .

لذا فنحن نحمل كل شئ فى روحنا التى عاشت من قبل فى روح البشر . إن كل إله وشيطان وجد من قبل كان فيما بين اليونانيين والصينيين وقبائل الزولو ، فهو بداخلنا ، يوجد كاحتمال كامن ، كرغبات ، كبدائل . فإذا كان على الجنس البشرى أن يختفى من على وجه الأرض باستثناء طفل واحد على قدر لا بأس به من النبوغ ولم يتلق أى تعليم ، لأعاد هذا الطفل إكتشاف المسار الكامل للتطور ، ولكان قادراً على إنتاج كل شئ مرة أخرى ، الآلهة والشياطين ، الفراديس ، الوصايا العشر ، العهد القديم والعهد الجديد »

أجبت : « أجل ، حسن ، ولكن ما قيمة الفرد فى هذه الحالة ؟ لماذا يستمر فى الكفاح إذا كان كل شئ مكتمل بداخلنا ؟ »

صاح : توقف ! ثمة فرق شاسع بين مجرد أن نحمل العالم بداخلنا وكوننا مدركين لذلك . إن بوسع مجنون أن يخرج بأفكار تذكرك بأفلاطون ، وأى طالب صغير بار « بالسيمنارى » يعيد التفكير بعمق فى المكاتبات الميثولوجية التى وجدت بين الغنوصيين والزارادشتيين . بيد أنه غير مدرك لهذا . ولكن بمجرد أن تنطلق أول شرارة بداخله يصبح كائناً بشرياً فأنت لا تعتبر كل الدواب التى تمر بالشارع كائنات بشرية لمجرد أنهم يمشون قائمين

ويحملون صغارهم فى بطونهم تسعة أشهر ! فمن الواضح أن كثيراً منهم سمك أو شياه ، ديدان أو ملائكة . . من الواضح أن كثيراً منهم نمل ، أو نحل . حسن ، إن كل واحد منهم بداخله إمكانية أن يكون بنى آدم ولكن ليس سوى بالتنويه عن هذه الإمكانيات . وأيضاً بتعليمه جزئياً أن يجعل من نفسه مدركاً لها ، وهنا فقط تكون هذه الإمكانيات ملكه .

لقد كان هذا هو السياق العام لحواراتنا . قلما كانت تواجهنى بأى شئ جديد تام الجدة ، بأى شئ أذهلنى تمام الذهول ولكن كل شئ ، حتى الأمور العادية ،كان بمثابة طرقات مستمرة خفيفة لمطرقة على نفس النقطة التى بداخلى ، كل منها ساعد على تشكيل نفسى ، كل منها ساعدنى على نزع طبقات البشرة ، لأكسر قشر البيضة . وبعد كل طرقة كنت أرفع رأسى إلى أعلى قليلاً بمزيد من الحرية بعض الشئ حتى دفع طائرى الأصفر برأسه النشوانة الجميلة الخارجة القشرة المنشطرة للكرة الأرضية .

كثيراً ما كنا نخبر بعضنا البعض بأحلامنا . كان بيستوريوس يعرف كيف يقوم بتفسيرها . تذكرت شيئاً من هذا الآن . حلمت بأننى كنت قادراً على الطيران ، بيد أننى كنت مدفوعاً فى الهواء وقد فقدت كل السيطرة . أبهجنى الشعور بالطيران ، غير أن الإبتهاج إستحال إلى خوف عندما وجدت نفسى منساقاً إلى أعلى وأعلى ، طافقاً أكثر وأكثر عجزاً . فى هذه اللحظة اكتشفت

اكتشافاً منقذاً وهو أننى أستطيع أن أتحكم فى صعود وهبوط طيرانى عن طريق حبس تنفسى أو إطلاقه .

كان تعليق بيستوريوس : إن الحافز الذى يدفعك للطيران هو رصيدنا البشرى الكبير . إن كل شخص لديه هذا الرصيد . إنه الشعور بكونك مرتبطاً بجذور القوى ، ولكن سرعان ما يصبح المرء خائفاً من هذا الشعور فهو خطير بشكل مروع ! هذا هو السبب فى أن معظم الناس يتخلون عن أجنحتهم ويفضلون الرضوخ للقانون . ولكن ليس أنت ، فأنت تستمر فى الطيران . وانظر ! فتكتشف شيئاً فشيئاً أنك تبدأ فى التحكم فى طيرانك . ذلك إلى جانب الفاعلية الشاملة الكبيرة التى تجعلك تشق إلى أعلى ، تكون هناك فعالية صغيرة ناعمة إضافية من صميم نفسك ، عضو ، آلية للتوجيه ، كم هو رائع ! فلولا ذلك ، لظللت مسحوباً للأعالى ، عاجزاً ، وهو الشئ الذى يحدث مع المجانين : إنهم يمتلكون إيحاءات أكثر عمقاً من الذين يظلون مقيدين بالأرض ، غير أنه ليس لديهم مفتاح أو آلية للتوجيه وينفلتون إلى اللانهاية . ولكنك يا سينكلير ، تباشر الأمر بالطريقة الصحيحة . كيف ؟ محتمل أنك لا تعرف نفسك .

فأنت تفعل ذلك بعضو جديد ، بشئ ما وهو تنظيم تنفسك . والآن سوف تدرك كم هو قليل ذلك التفرد الذى تمتلكه روحك فى مجاهلها . لأنها لا تبتكر هذا المنظم ! فهو ليس

جديداً ! لقد قمت باستعارته ، إذ كان موجوداً منذ آلاف السنين . إنه العضو الذى تنظم به السمكة جهاز تنفسها - بالونة الهواء - وفى الواقع مازال يوجد بين الأسماك بعض الأجناس البدائية الغريبة حيث تستخدم بالونة الهواء بمثابة الرئة ويمكن إستخدامها حسب مقتضى الحال كطريقة للتنفس .

بعبارة أخرى ، تماماً مثل الرئة التى تستخدمها أنت فى حلمك كبالونة للطيران .

لقد أبرز لى أيضاً كتاباً فى علم الحيوان وأطلعنى على الأسماك والتوضيحات الخاصة بهذه الأسماك المنافية للزمن . بقشعريرة غريبة أحسست أن عضواً من عصر ما قبل التطور مازال يحيا بداخلى .

مصارعة يعقوب

من المستحيل أن أروى بإيجاز كل ما قاله لى بيستوريوس الموسيقى غريب الأطوار عن أبراكساس . أهم من ذلك أن ما تعلمته منه كان يمثل خطوة كبرى فى الطريق إلى نفسى ، آنذاك كنت شاباً غريباً فى الثامنة عشرة ، سبق سنه فى مئة مجال وفى مئة أخرى قليل الخبرة وبلا حيلة .

عندما كنت أقارن نفسى بالأولاد الآخرين فى مثل عمرى كنت أشعر بالزهو والغرور كثيراً ، ولكن مثلما كنت أشعر بالتدنى والاكتئاب . مراراً ما كنت أعتبر نفسى عبقرياً ومراراً على حد السواء كنت أعتبر نفسى أبلهاً . لم أتمكن من المشاركة فى حياة الأولاد من سنى ، لقد أتى علىَّ تأنيب الذات والإضطرابات ، إذ كنت رغماً عنى معزولاً عنهم ، كنت محروماً من الحياة .

لقد علمنى بيستوريوس الذى كان غريباً وناضجاً ، أن أبقى على شجاعتى واحترامى لذاتى . دائماً عن طريق إكتشاف شئ ذى قيمة فيما كنت أقوله ، فى أحلامى وتهيؤاتى وأفكارى ، وعن طريق عدم الإستهانة بها ، وأن أوليها باستمرار إهتماماً جاداً ، لقد أصبح قدوتى .

قال : « لقد أخبرتنى أنك تحب الموسيقى لأنها غير أخلاقية لا غبار عندى على ذلك . ولكنك فى هذه الحالة لا تسمح لنفسك أن تكون موجهاً أخلاقياً بدورك . إنك لا تستطيع أن تقارن نفسك بالآخرين . فلو كانت الطبيعة قد خلقتك خفاشاً فلا ينبغى أن تحاول أن تكون نعامة . إنك أحياناً تعتبر نفسك غريباً وتتهم نفسك بأنك سلكت مسلكاً مختلفاً عن معظم الناس . يجب ألا تتعلم ذلك . تأمل فى النار ، فى الغيوم ، وبمجرد أن تبدأ الأصوات الداخلية فى التحدث ، إستسلم لها . لا تسأل أولاً إذا ما كان مسموحاً بها أو أنها سوف تدخل السرور على مدرسيك أو الأب أو إلهاما . سوف تدمر حياتك إذا فعلت ذلك . بهذه الطريقة سوف تصبح مقيداً بالأرض مثل نبات . إن إسم إلهنا يا سينكلير هو أبراكساس وهو إله وشيطان فى الوقت ذاته وهو يتضمن كل من العالمين النورانى والمظلم . إن أبراكساس لا يغضبه أياً من أفكارك ، أياً من أحلامك . حذار أن تنسى ذلك . غير أنه سوف يتخلى عنك عندما تصبح بريئاً وعادياً . عندها سوف يتركك ويبحث عن وعاء آخر يخمر فيه أفكاره »

من بين كل أحلامى كان حلم الحب الغامض هو الأكثر وفاءاً . كم حلمت بأننى كنت أمشى تحت شعار النبالة فى منزلنا ، وأردت أن أشد أمى إلىّ وبدلاً منها أحتضن المرأة التى تشوبها ذكورة وأمومة بين ذراعى ، حيث كنت خائفاً منها بيد أنها كانت تجذبنى إليها بعنف .

لم أستطع أن أصارح صديقى بهذا الحلم ، فلقد إحتفظت به لنفسى حتى بعدما بحت له بكل الأشياء الأخرى . فلقد كان ركنى الخاص ، سرى ، وملتجأى .

عندما كنت أحس بالضيق كنت أطلب من بيستوريوس أن يعزف مقطوعة الباساكاليا لبوكستهيود . ثم أجلس فى الكنيسة المفعمة بالشفق مندمجاً بشكل تام فى هذه الموسيقى التى كانت تبدو وكأنها تصغى إلى نفسها ، حيث كانت تخفف عنى فى كل مرة وكانت تدفعنى أكثر وأكثر كى أصيخ السمع إلى أصواتى الداخلية الخاصة .

أحياناً كنا نبقى حتى بعد أن تتوقف الموسيقى : وكنا نشاهد الضوء الواهن يتسرب من خلال النوافذ العالية المقوسة بشدة ، فاقداً نفسه داخل الكنيسة .

قال بيستوريوس : يبدو غريباً أننى كنت طالباً بقسم اللاهوت من قبل وأوشكت أن أصبح قساً . بيد أننى اقترفت خطأ شكلياً . إن مهمتى وهدفى مازال أن أصبح قساً . ومع ذلك ارتضيت على الفور أيضاً ووهبت نفسى إلى يهوه قبل أن أعلم بأمر أبراكساس .

أوه ، حقاً إن كل الأديان جمعاء جميلة ، فالدين هو الروح ، لا يهم إذا انتسبت إلى الطائفة المسيحية أو قمت برحلة حج إلى مكة .

تدخلت : ولكنك فى هذه الحالة يمكنك بالفعل أن تكون قساً .

« كلا ، يا سينكلير سيكون علىّ أن أكذب ، إن ديننا يمارس وكأنه شيىء آخر ، شىء غير فاعل بالمرة . على أسوأ الفروض ربما أصبح كاثوليكياً ، ولكن قسّ بروتستانتى ! كلا إن المؤمنين القلائل المخلصين - إننى أعرف فى حقيقة الأمر قلة منهم - يفضلون التفسير الحرفى . لن يتسنى لى أن أخبرهم ، على سبيل المثال ، أن المسيح ليس شخصاً بالنسبة لى ولكنه بطل ، أسطورة ، صورة شبحية فوق العادة رسمت فيها البشرية نفسها على حائط الأبدية . أما الآخرون ، الذين يأتون إلى الكنيسة لكى يستمعوا إلى بعض العبارات الطنانة ، ولكى يؤدون مجرد واجب ، ولكى لا يفوتهم شئ ، وهلم جرا ، ماذا عساى أن أقول لهم ، أحولهم ؟ هل هذا ما تقصده ؟ ولكننى ليس لدى رغبة فى ذلك . فالقس لا يريد أن يحول ، إنه فحسب يريد أن يحيا وسط مؤمنين ، وسط أناس على شاكلته . إنه يريد أن يكون الأداة والتعبير للشعور الذى نبتكر منه آلهتنا »

قاطع نفسه . ثم واصل : صديقى ، إن ديننا الجديد الذى اخترنا له اسم أبراكساس جميل . إنه أفضل ما لدينا . ولكنه مازال فرخاً صغيراً . لم ينبت جناحاه بعد . فالدين المعزول غير حقيقى أيضاً . إذ ينبغى أن يكون هناك جماعة ، لابد من وجود طقوس ومسكرات ، أعياد وأسرار . . . .

استغرق فى حلم يقظة عميق ثم سرح فى نفسه .

سألت فى تردد : ألا يستطيع المرء أن يقوم بالأسرار بمفرده أو حتى بين مجموعة جد صغيرة ؟ أومأ قائلاً : نعم فى إستطاعة المرء ، لقد كنت أقوم بها لفترة طويلة بمفردى . إن لدىَّ طقوسى الخاصة التى سوف أعاقب بالسجن سنوات بسببها إذا تسنى لأحد أن يعرف بأمرها . إننى فى حقيقة الأمر أعلم أن هذا ليس الشئ الصواب أيضاً . فجأة ربت على كتفى فأجفلتُ . قال فى تركيز : أيها الفتى ، أنت بدورك لديك أسرارك الخاصة . أعلم أنه لابد لديك أحلام لم تخبرنى بها . أنا لا أريد أن أعرفها . ولكن يمكننى أن أقول لك أن تحيا هذه الأحلام ، امرح معها . أقم لها مذابح . ليس هذا هو الشئ الأمثل بيد أنه يأخذ الإتجاه الصحيح .

إذا كان لنا أنا و أنت وقليلون آخرون أن يعيدوا تجديد العالم يوماً ما سوف يبقى حتى يراه الناس .

ولكن فى دخيلة أنفسنا لابد أن نجدده كل يوم ، وإلا فنحن غير جادين . لا تنسى ذلك ! إنك فى الثامنة عشرة ، يا سينكلير ، ولا تقوم باللجوء إل المومسات و لابد أن لديك أحلاماً عن الحب . لابد أن لديك رغبات . ربما أنت مجبر بطريقة ما أن تخشى منها . إنها أفضل شئ لديك . لك أن تصدقنى . لقد خسرت صفقة كبيرة عندما كنت فى سنك بانتهاكى لهذه الأحلام المتعلقة بالحب . ينبغى على المرء ألا يفعل ذلك . عندما تعرف

شيئاً عن أبراكساس لن يبقى بوسعك أن تفعل هذا . ليس عليك أن تعتبر أى شئ تصبو إليه النفس محرماً .

إعترضت مندهشاً : ولكنك لن تستطيع أن تفعل كل شئ يخطر ببالك ! لا يمكنك أن تقتل شخصاً لأنك تكرهه .

اقترب منى : حتى ذلك ، فى ظروف معينة . ومع هذا فإنه خطأ فى أغلب الوقت . إننى لا أعنى أنك يجب أن تفعل كل ما يطرأ على تفكيرك . كلا ولكن لا ينبغى عليك أن تؤذى وتستبعد تلك الأفكار - التى تتضح جيداً - عن طريق طردها أو أخذ موقف أخلاقى منها . فبدلاً من صلب نفسك أو شخص آخر يمكنك أن تشرب نبيذاً من كأس العشاء الربانى ، وتتأمل فى سر التضحية . حتى بدون مثل هذه الإجراءات يمكنك أن تتعامل مع دوافعك والإغراءات المزعومة باحترام وحب . عندئذ سوف تتكشف عن معناها ، وكل منها له بالفعل معنى . وعندما يتسنى لك أن تفكر فى شئ بحق مجنون وآثم من جديد ، وإذا أردت أن تقتل شخصاً ما ، أو أردت أن ترتكب جسامة ما ، تأكد فى تلك اللحظة يا سينكلير أن أبراكساس هو الذى يتعصب بداخلك ! إن الشخص الذى تود أن تقضى على حياته ليس مطلقاً سين من الناس بل مجرد قناع . عندما تكره شخصاً ما فأنت تكره شيئاً فيه هو جزء من نفسك . إن ما ليس جزءاً من أنفسنا لا يزعجنا .

لم يقل بيستوريوس لى من قبل أى شئ أثر على بشدة مثل

هذا . لم أستطع الرد . غير أن ما أثر على أكثر من ذلك وبطريقة هى الأغرب كان تشابه هذا التوجيه مع كلمات دميان التى حملتها لسنوات معى فى كل مكان .

إنهما لم يكونا على معرفة ببعضهما البعض ، ومع ذلك أخبرنى كلاهما بالشئ ذاته .

قال بيستوريوس برفق : إن الأشياء التى نراها هى الأشياء التى بداخلنا . لا توجد حقيقة سوى تلك المتضمنة فى داخلنا . ذلك هو السبب فى أن أناساً كثيرين يحيون مثل هذه الحياة المزيفة . إنهم يحسبون أن الصور التى يرونها خارجهم حقيقة ولا يسمحون مطلقاً للعالم الذى بداخلهم أن يعلن عن نفسه . يمكنك أن تصبح سعيداً بهذه الطريقة ولكن حالماً تعرف التفسير الآخر لا يعد لديك خيار لاتباع العامة . إن سبيل الأغلبية يا سينكلير سهل ، أما سبيلنا فوعر .

بعد ذلك بأيام قليلة وبعدما انتظرت مرتين بلا طائل ، قابلته فى آخر الليل ، عندما أتى مصعوقاً من رياح الليل الباردة ، منكفئاً على نفسه . سكراناً حتى الثمالة . لم أشعر بالرغبة فى أن أناديه . مر بجوارى دون أن يرانى ، محدقاً أمامه بعينين حائرتين . مأخوذتين ، وكأنه كان يتبع شيئاً غامضاً ينادى عليه من المجهول . مشيت فى إثره على امتداد أحد الشوارع ، كان مندفعاً إلى الأمام وكأنه مشدود بخيط خفى ، بمشية حماسية ، ومع ذلك

كانت متخلعة ، كأنه شبح ، رجعت حزيناً إلى المنزل ، إلى أحلامى الغير متحققة . إذن فهذه هى الطريقة التى يجدد بها العالم فى داخله ! خطر هذا ببالى . فى نفس اللحظة أدركت أن تلك كانت فكرة مبتذلة ، ومن وجهة أخلاقية ماذا أعرف عن أحلامه ؟ ربما كان يسلك فى سكره سبيلاً أكثر تحديداً مما أسلكه أنا فى أحلامى .

لاحظت بضعة مرات أثناء فترات الراحة بين الحصص أن زميلاً لم أعره أى إهتمام من قبل . بدا وكأنه يبحث عنى .

كان فتىً رقيقاً ، واهن الهيئة ذو شعر نحيل أشقر مشوب بحمرة ، كانت النظرة التى تشيع فى عينيه وسلوكه يبدوان غريبين . ذات مساء عندما كنت عائداً إلى المنزل كان يجلس فى انتظارى فى الزقاق . تركنى أتجاوزه ، ثم تبعنى وتوقف عندما توقفت فى مواجهة الباب الامامى .

سألته : هل ثمة شئ تريده منى ؟

قال فى خجل : أود فحسب أن أتحدث معك لمرة .

أردفت مدركاً أنه كان متحمساً ومفعماً بالترقب : سيكون لطيفاً أن تتفضل وتمشى معى قليلاً .

كانت يداه ترتجفان .

سأل على غرة : هل أنت روحانى ؟

قلت ضاحكاً : كلا يا كنور ، كلا على الإطلاق . ما الذى جعلك تعتقد أننى روحانى ؟

« إذن فأنت متصوف »

« كلا أيضاً »

« أوه ، لا تكن كتوماً هكذا أستطيع أن أشعر أن ثمة شئ مميز فيك . ثمة نظرة تشيع فى عينيك . . إننى على يقين أنك تتصل بالأرواح . إننى لا أسأل بدافع الفضول العبثى يا سينكلير . كلا ، تعرف أننى أبحث عن نفسى ، وأنا فى غاية الوحدة »

رحت أشجعه : هيا ، أخبرنى عن هذا ، إننى لست على دراية كبيرة بالأرواح . إننى أحيا فى أحلامى – هذا ما تشعر به . الناس الآخرون يعيشون فى أحلامهم ، ولكن ليس فى أحلامهم الخاصة – هذا هو الفارق .

« أجل ، ربما كان هذا هو الأمر ، ليس يهم نوعية الأحلام التى تحيا فيها . . هل سمعت عن السحر الأبيض ؟

كان علىَّ أن أقول : كلا .

« ذلك عندما تتعلم ضبط النفس . يمكنك أن تصبح أبدياً وتسحر الناس . هل مارست من قبل أى تمارين ؟ »

بعدما استفهمت عن أى « تمارين » تلك ، أصبح شديد التكتم ، أقصد حتى استدرت للعودة . عندها راح يخبرنى بكل شئ .

« على سبيل المثال ، عندما أريد أن أروح فى النوم أو أريد أن أركز فى شئ ما أقوم بعمل أحد هذه التمارين : أفكر فى شئ ما ،

كلمة مثلاً ، أو إسم أو شكل هندسى . ثم أعتقد أن هذا الشكل ماثل فى نفسى بشدة على قدر إمكانى . أحاول أن أتخيله حتى أستطيع أن أشعر به بالفعل فى رأسى . ثم أعتقد أنه فى حلقى . وهكذا ، حتى أمتلئ به تماماً . ثم أصبح راسخاً وكأننى قد تحولت إلى حجر ولا يعود بوسع شئ أن يشتت انتباهى »

كانت لدىَّ فكرة مبهمة عما كان يقصده . ومع ذلك كنت متأكداً أن ثمة شئ آخر يزعجه ، فلقد كان مهتاجاً بغرابة ومضطرباً . حاولت أن أسهل عليه مهمة الكلام ، لم يستغرق الأمر طويلاً قبل أن يفصح عما كان بحق يشغله .

سأل على مضض : أنت بدورك متعفف ، أليس كذلك .

« ماذا تقصد ، جنسياً ؟ »

نعم ، لقد كنت متعففاً طوال سنتين . . منذ أن عرفت بأمر التمارين . إذ كنت فاسقاً حتى ذلك الحين و أنت تعرف ما أعنيه . .

إذن فأنت لم تضاجع إمرأة قط ؟

قلت : كلا ، فلم أجد قط المرأة المناسبة

« ولكن إذا وجدت بالفعل واحدة أحسست أنها المرأة المناسبة هل ستضاجعها ؟ »

قلت بشئ من التهكم : نعم بالطبع . . إذا لم يكن لديها مانع . .

« أوه ، إنك فى الطريق الخطأ تماماً ، لن تستطيع أن تدرب

قواك الداخلية إلا إذا كنت فى تمام التعفف . لقد كنت لسنتين كاملتين . لسنتين وما يناهز الشهز إنه لأمر بالغ الصعوبة ! أحياناً أعتقد أنه لم يعد بوسعى أن أتحمله أكثر من ذلك .

« إسمع يا كنور ، أنا لا أعتقد أن التعفف يمثل كل هذا القدر من الأهمية »

إعترض قائلاً : أعلم ، فذلك ما يقولونه جميعاً . غير أننى لم أتوقع منك أن تقول نفس الشئ . إذا أردت أن تسلك الطريق الأسمى ، طريق الروح عليك أن تظل فى طهر تام .

« حسن إذن خليك طاهر . بيد أننى لا أفهم لماذا يفترض أن شخصاً ما أكثر طهارة من شخص آخر ، إذا قام بقمع رغباته الجنسية . أو هل أنت فى استطاعتك أن تستبعد الجنس من كل أفكارك وأحلامك ؟ »

« كلا ، ذلك هو بيت القصيد . يا إلهى ، ولكننى مضطر لذلك . إننى أحلم بالليل أحلاماً لا أستطيع حتى أن أحدث بها نفسى ، أحلاماً فظيعة » . .

تذكرت ما قاله لى بيستوريوس . ولكن على قدر ما كنت أتفق مع أفكاره لم يكن بوسعى أن أنقلها إذ كنت عاجزاً عن إسداء نصيحة لم تكن مستمدة من خبرتى الخاصة ، وحيث كنت أنا نفسى ليست لدى الطاقة لكى أواصل ، أقعيت صامتاً وشعرت بالخزى لدى كونى غير قادر على إسداء نصيحة لشخص ينتظرها منى .

تأوه كنور بجانبي : لقد جربت كل شئ ! لقد فعلت كل شئ يمكن فعله . الماء البارد ، الثلج ، التمارين الرياضية والعدو ولكن لم يجد شئ .

إننى أستيقظ مفزوعاً كل ليلة من أحلام لا يسمح لى حتى أن أفكر فيها ، ومما زاد الطين بله أننى أنسى فى نفس الوقت رويداً رويداً كل شئ روحانى قد تعلمته من قبل .

إننى قلما عدت أنجح فى التركيز أو جعل نفسى أروح فى النوم ، غالباً ما أضطجع مسيقظاً طوال الليل ، لا يمكن للأمر أن يستمر أكثر من ذلك على هذا النحو . إذا لم أتمكن من الفوز بالصراع ، لو كان علىَّ أن أستسلم فى النهاية وأصبح دنساً من جديد ، سأكون أكثر شراً من كل الآخرين الذين لم يخوضوا صراعاً فى حياتهم . أنت تفهم هذا . أليس كذلك ؟

أومأت . إلا أننى لم أستطع أن أقوم بأى تعليق .

بدأ يصيبنى بالضجر وكنت مندهشاً من أن رغبته الواضحة ويأسه لم يتركا أى تأثير فى نفسى .

كان شعورى الوحيد أننى لا أستطيع أن أقدم لك يد العون . سألنى أخيراً بصوت حزين ومجهد : إذن فأنت لا تعرف أى شئ ؟ لا شئ البتة ؟ ولكن لابد هناك من طريقة ، كيف تواجه أنت مثل هذا الأمر ؟

« ليس بوسعى أن أقول لك أى شئ يا كنور . نحن لا نستطيع أن نساعد أى شخص آخر . إن أحداً لم يساعدنى

أيضاً . يجب عليك أن تتواصل مع نفسك ، وعندئذٍ لابد أن تفعل ما يملك عليك شغاف قلبك . ليس هناك من طريقة أخرى . إذا لم تستطع أن تجدها بنفسك لن تجد أى أرواح أيضاً »

نظر إلىَّ الرفيق الصغير فى خيبة أمل وبإحساس كبير بخسارة غير متوقعة فى الحديث . ثم لمعت عيناه بالكراهية ، غض أسارير وجهه وصرخ فزعاً : أوه ، إنك لقديس حقير ! أنت نفسك فاسد ، أعرف . إنك تتظاهر بالحكمة لكنك عالق فى الخفاء بنفس القذارة التى يعلق بها سائرنا ! إنك لخنزير ، خنزير مثلى ، كلانا خنازير !

مشيت وتركته واقفاً هناك . ومشى ورائى خطوتين أو ثلاثة ، ثم أستدار ولاذ بالفرار . انتابنى شعور بالاشمئزاز المشوب بالأسف والتقزز ولم يغادرنى الشعور إلا عندما أحطت نفسى بلوحات عديدة هناك فى غرفتى واستسلمت إلى أحلامى الخاصة . سرعان ما عاد الحلم ، المتعلق بالأم والمرأة الغريبة ، وتمكنت من رؤية ملامحها بوضوح شديد لذلك شرعت فى رسم صورتها فى نفس المساء .

عندما اكتملت اللوحة بعد عدة أيام من العمل وقد خططتها فى دفقات خمسين دقيقة تشبه الحلم ، قمت بتعليقها على الحائط ثم حركت مصباح المكتب فى مواجهتها . وقفت أمامها كأننى أمام شبح ، كان علىَّ أن أصارعه حتى النهاية . لقد كان وجهاً مشابهاً

للوجه الأول ، كذلك كان يشبهنى فى قليل من الملامح . بينما كانت إحدى العينين بشكل ملحوظ أعلى من الأخرى ، والنظرة كانت تتأملنى وتنفذ إلى ما ورائى ، مستغرقة فى ذاتها وصارمة ، مفعمة بما هو قدرى .

وقفت أمامها وبدأت أتجمد داخلياً من الإجهاد . رحت أسأل اللوحة ، أعنفها ، أمارس الحب معها ، أصلى لها ، أناديها بأمى ، وأدعوها عاهرة وشعثاء ، رحت أناديها بمحبوبتى و أناديها بأبراكساس . خطرت على بالى فيما بين سبابى كلمات قالها بيستوريوس أو دميان لم أستطع أن أتذكر من الذى قالها ، لكننى أشعر أننى أستطيع أن أسمعها من جديد . كانت الكلمات عن صراع يعقوب مع ملاك الرب وكانت كلماته لن أطلقك حتى تباركنى » .

فى ضوء المصباح راح الوجه المرسوم يتغير مع كل هاتف . أصبح مضيئاً ونورانياً ، مظلماً وقلقاً ، راح يغلق جفنين شاحبين على عينين مشتتين ، ثم يعاود فتحهما مرسلاً نظرات براقة . لقد كان إمرأة ، رجلاً ، فتاة ، طفلاً صغيراً ، حيواناً ، ثم راح يتلاشى إلى بقعة لونية ضئيلة ، ثم يزداد حجماً وجلاءً من جديد . أخيراً ، إثر دفقة قوية ، أغمضت عينى فتخيلت الصورة بداخلى ، أقوى وأكبر حجماً من ذى قبل . أردت أن أجثو أمامها بيد أنها أصبحت جزءاً منى إلى حد كبير لذا لم يتسن لى أن أفصلها عنى ، كأنها قد استحالت إلى ذاتى المحضة .

ثم سمعت دوياً مجهولاً كما كان الأمر قبيل عاصفة ربيعية ، ارتعدت من شعور جديد يتعذر وصفه بتجربة مرعبة . راحت النجوم تومض نصب عيني وتخبو : الذكريات البعيدة بعد طفولتي المبكرة المنسية ، نعم ، بل حتى ما قبل وجودي في المراحل الأولى للتطور ، أخذت تتوافد أمامي . غير أن هذه الذكريات التي بدت وكأنها تعيد لي كل خبايا حياتي . لم تتوقف على الماضي والحاضر . بل تجاوزت ذلك لتعكس المستقبل ، صرفتني عن الحاضر إلى أشكال جديدة لحياة راحت صورها تومض بوضوح شديد يعمي العين . . لم يكن بوسعي أن أتذكر إحداها بوضوح فيما بعد .

إستيقظت أثناء الليل من نوم عميق . . كنت مازلت بملابسي . تمددت بشكل منحرف على السرير ثم أضأت المصباح ، شعرت أنني يجب أن أسترجع شيئاً مهماً غير أنني لم أستطع أن أتذكر أي شيء فيما يخص الساعة المنصرمة .

بدأت شيئاً فشيئاً أمسك بطرف ما . فرحت أبحث عن اللوحة ، لم تعد على الحائط ولا على المنضدة أيضاً ، جال بخاطري عندئذٍ أنني قد أحرقتها أو ربما كان هذا في حلمي أنني أحرقتها في كف يدي وابتلعت الرماد . إنتابني إضطراب شديد . إرتديت قبعة وسرت خارج المنزل خلال الزقاق كأنني مدفوع ، أجتاز شوارع لا تحصى وميادين كأن سعاراً يسوقني ، رحت أصيخ السمع لوهلة أمام كنيسة صديقي المظلمة ، أبحث ، وأبحث بإلحاح شديد ، دون أن أدري عما أبحث . سرت عبر

حى لبيوت الدعارة حيث تسنى لى أن أرى هنا وهناك نافذة مضيئة . ثم انتهيت إلى منطقة منازل حديثة البناء ، حيث كانت أكوام الطوب اللبن فى كل مكان مغطاة إلى حد ما بثلج رمادى . تذكرت - عندما كنت أهيم تحت سطوة إجبار غريب كالسائر أثناء النوم خلال الشوارع - تذكرت البناية الجديدة فيما مضى فى بلدتى التى أخذنى إليها معذبى كرومر لدفع قسطى الأول . كانت تمثل أمامى بناية مشابهة الآن فى الليل الرمادى ، كان مدخلها المظلم فاغراً أمامى ، فراح يسحبنى إلى الداخل . . عندما أردت الفرار تعثرت فى الرمال والقمامة إذ كانت القوى التى تسوقنى أكبر ، رحت أتعثر فى الطوب والألواح إلى غرفة مقبضة حيث كانت الرطوبة والبرودة تنبعث من الأسمنت الطرى . كانت هناك كومة من الرمل ذات لون رمادى فاتح ، وفى المقابل كان الظلام يعم المكان . عندئذ انطلق صوت فى فزع من الظلام : يا إلهى ، سينكلير ، من أين أتيت ؟

بجانبى بزغت هيئة من الظلام ، رفيق ضئيل ونحيل ، مثل شبح ، تعرفت حتى فى هلعى على رفيقى فى الدراسة كنور .

سأل مذعوراً فى هياج : كيف تسنى لك أن تأتى إلى هنا ، كيف استطعت العثور علىّ . لم أفهم .

قلت فى بلادة : لم أكن أبحث عنك ، بينما كانت كل كلمة تتكلف مجهوداً شاقاً وكانت تخرج متلعثمة من بين شفتين ميتتين .

« كلا ، لقد إستدرجنى شئ ما . هل ناديت علىّ ؟ لابد أنك ناديتنى » .

« ماذا تصنع هنا على أية حال ؟ إن الوقت ليل »

عانقنى فى إرتعاش بذراعيه النحيلتين .

« فعلاً ، ليل ، سوف يطلع الصبح عن قريب . هل لك أن تسامحنى ؟ »

« أسامحك على ماذا ؟ »

« أوه ، لقد كنت شنيعاً للغاية »

الآن فقط تذكرت محادثتنا . هل كان ذلك منذ أربعة أو خمسة أيام فقط ؟

بدا الأمر وكأن عمراً بطوله مر عليها . ولكننى فجأة اكتشفت كل شئ . ليس فقط ما حدث بيننا ولكن أيضاً لماذا قد أتيت إلى هنا وماذا كان كنور يريد أن يفعله هنا .

« هل أردت أن تنتحر يا كنور ؟ »

كان يرتجف من البرد والخوف .

« نعم أردت أن أفعل ذلك . لا أعرف إذا ما كنت أستطيع فأردت أن أنتظر للصباح »

سحبته إلى الخلاء ، كانت أشعة النهار الأولى تتلألأ فى الأفق فى بلادة وفتور خلال الفجر الرمادى .

رحت أقتاد الفتى لبرهة بذراعى .

سمعت نفسى أقول : « الآن عد إلى البيت ولا تنبس ببنت

شفقة لأى شخص ! ، لقد كنت فى الطريق الخطأ . إننا لسنا خنازير كما يبدو أنك كنت تعتقد ، ولكن كائنات بشرية . إننا نبتكر الآلهة ونتشاجر معها ، وهى تباركنا »

واصلنا المسير وافترقنا دون أن نتفوه بكلمة أخرى .

عندما وصلت إلى المنزل كان ضوء النهار قد بزغ بالفعل .

إن أفضل الأشياء التى اكتسبتها مع أسابيع إقامتى فى مدرسة . . . كانت الساعات التى قضيتها مع بيستوريوس لدى الأرغن أو أمام ناره . لقد كنا نتدارس نصاً يونانياً يتعلق بأبراكساس ، وكان يقرأ لى مقتطفات من ترجمة الڤيداس Vidas وراح يعلمنى كيف أنطق « أوم » المقدسة .

نعم هذه الأمور التى يكتنفها الغموض لم تكن ما غذى روحى إذ أن ما أنعشنى هو التقدم الذى أحرزته فى اكتشاف نفسى ، هو الثقةالمتزايدة فى أحلامى وأفكارى والإيحاءات ، هو المعرفة المتنامية بالقوى التى أمتلكها بين جنبى .

لقد كنا أنا وبيستوريوس نفهم بعضنا البعض بكل طريقة ممكنة . كان كل ما يجب علىَّ فعله أن أفكر فيه ، ثم يمكننى أن أكون على يقين أنه - أو رسالة منه - سوف يأتى . لقد تسنى لى أن أطلب منه أى شئ ، مثلما كنت أطلب من دميان ، دون ضرورة أن يكون حاضراً بشحمه ولحمه ، فكل ما كان ينبغى علىَّ فعله أن أتخيله وأوجه إليه أسئلتى فى صورة تفكير مركز . عندئذ

كان الجهد النفسى المبذول فى السؤال يعود بنفس النمط كإجابة . لم يكن فحسب شخص بيستوريوس ولا دميان هما اللذان كنت أستحضرهما ، بل الصورة التى حلمت بها ورسمتها ، صورة الحلم نصف الذكر ونصف الأنثى لشيطانى . لم يعد هذا الكائن مقصوراً على أحلامى ، لم يعد مجرد رسم على ورق ، بل كان يعيش بداخلى كأنه قدوة وتعزيز لنفسى .

إن العلاقة التى أقامها معى كنور ، الذى كان يحاول الإنتحار كانت غريبة ، وأحيانا مضحكة أيضاً . فمنذ تلك الليلة التى أرسلت إليه فيها ، راح يتعلق بى مثل خادم أمين أو كلب ، فأخذ يبذل كل جهد ليقحم حياته مع حياتى ، فكان يطيعنى طاعة عمياء . كان يأتى إلىَّ بأكثر الأسئلة والمطالب إدهاشا ، وكان يريد أن يرى الأرواح ويتعلم القبالة ، ولم يكن يصدقنى عندما كنت أؤكد له بأننى جاهل تمام الجهل بكل هذه الأمور . لقد اعتقد أنه لا شئ يستحيل على قدراتى . ومع ذلك كان من الغريب أنه كان يأتينى كثيراً بأسئلته المحيرة والغبية فى الوقت الذى أكون فى مواجهة لغز خاص بى ، حيث كانت مراراً ما تقدم لى مفاهيمه الوهمية وطلباته المفتاح والحافز للوقوف على حله . كان كثيراً ما يمثل إزعاجا وكنت أصرفه صرفا جازما ، ومع ذلك كنت أدرك أنه أيضا قد أرسل إلى ، إنه كان يعود بغض النظر عما منحته من كيل مضاعف ، فهو بدوره كان قائداً لى ، أو على الأقل علامة طريق .

إن الكتب الغريبة والكتابات التي كان يجلبها لى والتى كان يبحث فيها عن خلاصه قد علمتنى أكثر مما كنت أعتقد فى ذلك الوقت .

بعد ذلك إنسل كنور من حياتى على نحو غير ملحوظ . لم نتشاجر مع بعضنا البعض ، إذ لم يكن هناك داع لذلك على النقيض من بيستوريوس الذى كنت مازلت أشاركه تجربة غريبة فى نهاية أيام إقامتى بمدرسة . . . ذات فرصة أو فرص عدة ، حتى أكثر الناس أمناً ، على مدار حياتهم لا يهربون بصفة عامة داخلين فى صراع مع القيم الجميلة للتقوى والعرفان . لابد لكل منا إن عاجلاً أو آجلاً أن يتخذ الخطوة التى تفصله عن أبيه ، عن نصحائه ، يجب على كل منا أن يمر على الأقل بتجربة قاسية - رغم أن معظم الناس لا يستطيعون أن يتحملوا الكثير من هذا وسرعان ما ينسحبون عائدين أدراجهم . أنا نفسى لم أفترق عن والدىَّ وعالمهما ، العالم « النورانى » فى صراع عنيف ، ولكننى شيئاً فشيئاً أصبحت بشكل غير ملحوظ منقطعاً عنهما . لقد حزنت لأن الأمر صار على هذا النحو وتسبب فى العديد من الساعات الكريهة أثناء زياراتى للمنزل ، غير أنه لم يؤثر علىَّ تأثيراً شديداً ، فلقد كان احتماله ممكناً .

ولكن حيثما نتخلى عن حبنا واحترامنا ليس من واقع العادة ولكن بمحض إرادتنا الحرة ، حيث كنا أتباع وأصدقاء بدافع ما نكنه داخل قلوبنا : فهى لحظة مريرة وفظيعة عندما تكتشف فجأة

أن الإتجاه بداخلنا يميل إلى أن يشدنا بعيداً عما هو عزيز علينا . ثم تتحول كل فكرة ترفض الصديق والناصح إلى ما يشبه الشوكة السامة فى صدورنا . عندئذ نجد أن كل ضربة تسدد دفاعاً ترتد إلى وجه المرء . ثم تعصف كلمات الخيانة والنكران بالمرء بوصفه أخلاقياً كوصمة عار .

ويفرالقلب الواجف فى خجل عائداً إلى الوديان الخلابة لفضائل الطفولة ، عاجزاً عن إدراك أنه لابد لهذا الفصل أن يحدث ، ولهذه الرابطة أن تنفك .

مع مرور الوقت أصبحت مشاعرى الداخلية شيئاً فشيئاً ضد العرفان لبيستوريوس دون تحفظ باعتباره معلماً . إن صداقتى معه ، مشورته ، السعادة التى جلبها لى ، القرب منه كانت تمثل تجربة حيوية أثناء أهم الشهور فى مرحلة مراهقتى . لقد كان الله يتحدث لى من خلاله . من بين شفتيه عادت أحلامى مشروحةً ومفسرةً . لقد منحنى الإيمان بنفسى . والآن أصبحت مدركاً شيئاً فشيئاً لبداية أن أرفضه . لقد كان فيما يقوله الكثير من التهذيب ، وكنت أشعر أنه لم يكن يفهم سوى جزء منى فهماً تاماً .

لم يحدث بيننا شجار أو ثورة ، لا صدع ولا حتى تصفيه حسابات . لم أتفوه سوى بعبارة واحدة - غير مؤذية فى الواقع - ومع ذلك كان الأمر يبدو فى تلك اللحظة وكأن وهماً إنشطر .

لقد تسلط على منذ بعض الوقت هاجس من قبيل هذه الواقعة . راح يبدو شعوراً جلياً صبيحة يوم أحد فى غرفة مكتبه . كنا منبطحين أمام النار بينما راح يسهب فى الحديث عن الألغاز وأشكال الدين ، الذى كان يدرسه ، والتى كانت إمكاناته بالنسبة للمستقبل تشغله . بدا كل هذا بالنسبة لى غريباً وإنتقائياً ولا يمثل أهمية حيوية ، كان ثمة شئ تدريسى يشوبه على نحو غامض ، فبدا أشبه ببحث رتيب بين أطلال العوالم السابقة . وفجأةً شعرت باشمئزازمن طريقته برمتها ، من هذه العبادة المؤلفة من الأساطير ، من هذه اللعبة المكونة من المنمنمات تلك التى كان يمارسها بطرق بالية من الإيمان .

قلت فجأة فى نوبة خبث أدهشنى وأخافنى : بيستوريوس ، يجب أن تخبرنى بحلم من أحلامك بجانب ذلك فى وقت ما ، حلم حقيقى ، حلم حلمته بالليل . إن ما تخبرنى به هنا يعد فى غاية . . غاية البلى .

لم يسمعنى أتحدث بمثل هذه الطريقة من قبل وفى نفس اللحظة أدركت بشئ من الخجل والرعب أن السهم الذى سددته إليه والذى نفذ إلى قلبه جاء من نفس عدته وعتاده .

فلقد كنت الآن أعيد إليه إلقاء إنتقادات أحياناً كان يوجهها لنفسه فى سخرية بعض الشئ . أقعى صامتاً فجأة . نظرت إليه بقلب واجف ولاحظت لونه يمتقع بشكل مؤسف . بعد فترة

صمت طويلة ذات مغزى ، وضع فى النار خشباً جديداً وقال بصوت هادئ : معك حق يا سينكلير ، إنك لفتى ذكى . سوف أريحك من السخافات البالية من الآن فصاعداً .

كان يتحدث بهدوء شديد ، غير أنه كان يبدو بشكل واضح أنه قد تألم ، ويحى ماذا صنعت ؟ أردت أن أقول شيئاً مشجعاً بالنسبة له ، وأستعطفه ليصفح . أضمن له حبى وعرفانى الشديد . خطرت على بالى كلمات مؤثرة - غير أننى لم أستطع أن أنطق بها .

فقط انبطحت هناك محدقاً فى النار وظللت صامتاً . هو أيضاً ظل صامتاً وهكذا انبطحنا بينما راحت النار تتضاءل ومع كل لهب محتضر ، كنت أشعر أن شيئاً جميلاً وحميماً إحترق بالأسفل بلا رجعة وتلاشى .

قلت فى النهاية بصوت مكره ومختزل : أخشى أن تكون قد أسأت فهمى . كانت الكلمات البلهاء الفارغة تخرج من بين شفتى بطريقة ميكانيكية كما لو كنت أقرأ من قصة مسلسلة بمجلة . قال بيستوريوس برفق : إننى أعى تماماً ، أنت على حق .

إنتظرت . عندئذ راح يواصل على مهل : باعتبار أن شخصاً يمكن أن يكون محقاً فى مواجهة شخص آخر .

صاح صوت داخلى « كلا ، كلا » - غير أننى لم أستطع أن أقول شيئاً . أدركت أنى بكلماتى القليلة وضعت إصبعى على نقطة ضعفه الأساسية ، على بلائه وجرحه . لقد لمست النقطة

التى عندها يفقد الثقة فى نفسه . لقد كان مثاله عتيقاً . كان يبحث فى الماضى ، كان رومانتيكياً وفجأة أيقنت فى قرارة نفسى أن ما كانه بيستوريوس وأعطاه لى ، كان بالضبط ما لم يستطع أن يكونه ويعطيه لنفسه . لقد أرشدنى على امتداد طريق يتجاوزه ويتركه ، هو القائد ، ورائى . إن الله يعرف كيف يتسنى للمرء أن يقول شيئاً كهذا ، لم أكن أعنيه بكل ذلك الخبث . لم تكن عندى فكرة عن الدمار الذى أحدثته . لقد تفوهت بشئ لم أكن مدركاً لمدلولاته لحظة النطق به . لقد أذعننت إلى دافع حقير ، إلى حد ما ذكى غير أنه خبيث وقد أصبح قدراً . لقد اقترفت فعلاً تافهاً غير مسئول من الوحشية حيث اعتبره محاكمة .

كم تمنيت ساعتها أن يشتاط غضباً ، ويدافع عن نفسه ، ويُعنفنى ! لم يفعل أى شئ من هذا القبيل – كان علىَّ أن أتولى كل هذا بنفسى . كان يبتسم إذا تسنى له ، وحقيقة أنه وجد ذلك مستحيلاً كان أكبر دليل على مدى الجرح الغائر الذى تسببت فيه .

بقبوله فى هدوء شديد لهذه الكلمة منى أنا ، تلميذه الوقح وناكر الجميل ، وبالتزامه الصمت والإقرار بأنى كنت على حق ، وبالتسليم بكلماتى كما لو كانت قدره جعلنى أُبغض نفسى وأزيد كذلك من عدم تحفظى . عندما رحت أنتقده اعتقدت أننى كنت سأضرب رجلاً صلباً ومسلحاً جيداً . . لقد تبدل فأصبح وديعاً ، سلبياً ، مخلوقاً عاجزاً عن الدفاع عن نفسه ، فراح يستسلم دون

ممانعة . مكثنا وقتاً طويلاً أمام النار التى راحت تحتضر ، حيث كان كل شكل متوهج ، كل غصين يتلوى يذكرنى بساعاتنا الزاخرة وكان يزيد من الإحساس بالذنب المتعلق بدينى لبيستوريوس . أخيراً لم يعد بوسعى أن أتحمله . نهضت وانصرفت . وقفت طويلاً أمام الباب المؤدى إلى حجرته ، وطويلاً على الدرج المظلم ، وأطول خارج منزله منتظراً أن يترامى إلى سمعى إذا ما كان سيتبعنى . ثم إستدرت للذهاب ورحت لساعات أجوب البلدة ، ضواحيها ، منتزهاتها وغاباتها ، حتى المساء . أثناء تلك الجولة أحسست للمرة الأولى بعلامة قابيل على جبينى .

فقط رويداً رويداً استطعت أن أفكر بوضوح فيما حدث . فى بادئ الأمر كانت أفكارى تعج بتأنيب الذات و عازمة على الدفاع عن بيستوريوس . غير أنها كلها انقلبت إلى عكس ما أردت . لقد كنت مستعداً ألف مرة لأتأسف وأعتذر عن كلامى الأهوج - ومع ذلك كان الحقيقة . لم أتمكن سوى من فهم بيستوريوس فهماً تاماً ، ونجحت فى تركيب حلمه برمته نصب عينى . كان حلمه أن يكون قساً ، ليعلن عن الدين الجديد ، ويقدم أشكالاً جديدة من السمو ، من الحب ، من العبادة . ولكى يشيد رموزاً جديدة . بيد أن هذا لم يكن فى طاقته . ولم يكن وظيفته . لقد تلكأ بشغف شديد فى الماضى ، إن معرفته بهذا الماضى كانت دقيقة

للغاية . فلقد كان على دراية كبيرة بمصر والهند ، ميثرا وأبراكساس . كان ولعه مرتبطاً بصور توالت على ظهر الأرض من قبل ، ومع ذلك كان يدرك فى أعماق فؤاده أن الجديد ينبغى أن يكون جديداً بحق ومختلفاً ، وعليه كان يجب أن ينبثق من تربة جديدة ولا يمكن أن يكون منقولاً من المتاحف والمكتبات . ربما كانت وظيفته أن يرشد الناس إلى أنفسهم كما أرشدنى . إن تزويدهم بالآلهة الغير مسبوقة والجديدة لم يكن فى نيته .

عند هذه اللحظة ومض بداخلى فهم ثاقب ، وهو أن كل إنسان له « وظيفته » ولكن ليست الوظيفة التى يمكن أن يختارها بنفسه ، يعرفها أو يؤديها كما يشاء . لقد كان مما جانبه الصواب أن نرغب فى آلهة جديدة ، من الخطأ تماماً أن نزود العالم بشئ ما . إن أى رجل مستنير ليست لديه سوى مهمة واحدة - البحث عن الطريق الذى يفضى به إلى نفسه ، والوصول إلى اليقين الداخلى ، وأن يتلمس طريقه إلى الأمام بغض النظر عما ينتهى إليه .

لقد تأملت كثيراً فى صور الحلم الخاصة بالمستقبل . وحلمت بالأدوار التى يمكن أن تُناط بى ، ربما كشاعر أو كنبى أو كرسام ، أو شئ من هذا القبيل . كان ذلك كله عبثاً . فلم اقدم إلى الوجود أكتب قصائد أو أُلقى بالعظات أو أرسم ، لا أنا ولا أى شخص آخر . فكل ذلك كان تصادفياً . إن كل إنسان ليس لديه سوى مهنة واحدة أصيلة - لإيجاد الطريق إلى نفسه .

ربما ينتهى به المطاف كشاعر أو مجنون ، كنبى أو مجرم . إن مهمته أن يكتشف نصيبه الخاص - ليس على نحو تعسفى ويجعله يحيا خارجه بشكل تام وبتصميم فى دخيله نفسه . إن أى شئ غير ذلك كان وجوداً تحت المحاولة . مجرد محاولة للتملص ، عودة إلى نماذج العامة . التلاءم والخوف من دخيلة المرء . بزغت الرؤية الجديدة أمامى ، رحت ألمحها مئة مرة . ربما أيضاً عبرت عنها من قبل ، لكننى الآن أجربها بنفسى . لقد كنت مجرد تجربة على مسرح الطبيعة ، مغامرة فى غياب المجهول ، ربما من أجل هدف جديد ، ربما ليس من أجل شئ ، ومهمتى كانت السماح لهذه اللعبة التى على صعيد الأغوار البدائية بأن تأخذ دورتها ، لأشعر بإرادتها بداخلى وأجعلها ملكى تماماً ذلك وإلا فلا . لقد أحسست حقاً بوحدة شديدة ، فلقد أصبحت هناك الآن وحدة أكثر عمقاً لا مناص بالفعل منها .

لم أقم بأى محاولة للتصالح مع بيستوريوس . لقد ظللنا أصدقاء . بيد أن العلاقة قد تغيرت ومع هذا كان ثمة شئ لم ننوه عنه سوى مرة واحدة ، فى الواقع كان بيستوريوس بمفرده هوالذى نوه عنه قال : أنت تعلم أننى لدىَّ الرغبة فى أن أصبح قساً للدين الجديد الذى لدينا أنا وأنت دلالات كثيرة عليه . ذلك الدور لم يكون دورى مطلقاً - فأنا أدرك ذلك وحتى بدون الإعتراف الكامل لنفسى بذلك فقد أدركته منذ وقت ما .

لذا سوف أقوم بمهام قدسية أخرى . بدلاً من ذلك ، ربما على الأرغن ، ربما بطريقة أخرى . ولكن لابد أن أحظى بأشياء أشعر أنها جميلة ، وأنها مقدسة ، موسيقى الأرغن والأسرار ، الرموز والأساطير . إننى فى حاجة إليها ولا أستطيع التخلى عنها . إن ذلك هو نقطة ضعفى . أحياناً يا سينكلير أعرف أننى لا ينبغى أن أتمنى مثل هذه الأمنيات لأنها تعد توانياً ورفاهية . سيكون الأمر أكثر سماحة وأكثر فقط إذا وضعت نفسى بلا تحفظ تحت تصرف القدر . ولكننى لا أستطيع أن أفعل ذلك . إننى غير مهيأ لهذا . ربما يتسنى لك أن تفعل ذلك يوماً ما . إنه لأمر شاق ، إنه الشئ الوحيد الصعب بحق هناك . لقد حلمت كثيراً بفعل ذلك ، غير أننى لا أستطيع . إن الفكرة تملأنى بالرعب . . إننى غير قادر على الوقوف هكذا عارياً ووحيداً . فأنا بدورى مخلوق مسكين وضعيف فى حاجة إلى الدفء والطعام وأحياناً السلوى فى مرافقة الناس . إن أى شخص لا يبحث عن شئ سوى قدره الخاص لا يتبقى لديه أى رفقاء ، فيقف تماماً بمفرده لا شئ من حوله سوى الفضاء الكونى البارد . ذلك هو المسيح فى حديقة جيثمان ، كما تعرف . لقد كان هناك شهداء يتركون أنفسهم على الرحب تُشد على الصليب ، ولكن حتى هؤلاء لم يُعدوا أبطالاً ، لم يتم تحريرهم ، لأنهم بالفعل أرادوا شيئاً أصبحوا مغرمين ومعتادين عليه - إن لديهم نماذج ولديهم قدوات ولكن

الإنسان الذى فحسب يبحث عن قدره ليس لديه لا نماذج ولا قدوات . ليس لديه شئ عزيز ولا معزى ! وفى حقيقة الأمر فإن هذا هو السبيل الذى على المرء أن يسلكه . إن الناس من أمثالك وأمثالى وحيدون تماماً فى الواقع غير أننا نحظى ببعضنا البعض ، نحظى بالقناعة بكوننا مختلفين ، وبالتمر ، وبالرغبة فى الأشياء غير العادية . ولكن لابد أن تطرح ذلك أيضا إذا أردت أن تقطع الطريق كله للنهاية . ليس بوسعك أن تسمح لنفسك أن تكون مجرد ثورى ، مجرد نموذج و مجرد شهيد . إن الأمر يفوق التصور .

حقاً ، كان الأمر يفوق التصور . غير أن المرء يمكن أن يحلم به ، ويتوقعه ويدركه . لقد تذوقت نكهة له عدة مرات ، فى ساعة من السكون المطلق . عندئذ كنت أتفرس فى نفسى وأواجه صورة قدرى . كانت عيناه تفيضان بالحكمة ، تفيضان بالجنون ، كان ينبعث منهما الحب أو الخبث الشديد كان كله سيان . لم يسمح لك أن تختار أو ترغب فى أيهما . لم يسمح لك سوى بالرغبة فى نفسك ، سوى بالرغبة فى قدرك . نحو هذه النقطة كان بيستوريوس مرشدى . فى تلك الأيام أخذت أجول كما لو كنت أعمى . كنت أشعر بمشاعر محتدمة ، كل خطوة كانت تمثل خطراً جديداً . لم أكن أرى شيئاً أمامى سوى ظلام ملغز انتهت إليه كل الطرق التى سلكتها حتى الآن واختفت ، وفى دخيلتى رأيت

صورة المعلم الذى كان يشبه دميان ، والذى امتثل قدرى فى عينيه مكتوباً .

كتبت فى ورقة : لقد تركنى قائد ، إننى منغمس فى الظلام . ليس بوسعى أن أخطو خطوة أخرى بمفردى . ساعدنى . أردت أن أرسلها بالبريد إلى دميان ، بيد أننى لم أفعل . فى كل مرة أردت أن أرسلها كان الأمر يبدو أحمق وغبياً . غير أننى كنت أحفظ صلاتى البسيطة عن ظهر قلب وكثيراً ما كنت أتلوها لنفسى . كانت معى طوال ساعات اليوم . لقد بدأت فى استيعابها .

إنتهت أيام الدراسة . كان علىَّ أن أقوم برحلة أثناء أجازتى - كانت فكرة أبى - ثم أدخل الجامعة . غير أننى لم أكن أعرف فيما سأتخصص . لقد أُعطيت حسب رغبتى : فصلاً دراسياً واحداً فى الفلسفة . إن أى مدة كان يمكن أن يتم إنجازها أيضاً .

إيفا

حدث أثناء أجازتى أن قمت بزيارة المنزل الذى كان يعيش فيه دميان من قبل بسنوات مع أمه . رأيت إمرأة عجوز تمشى بتؤدة فى الحديقة وعلمت من حديثى معها أنه منزلها ، رحت أستفسر عن عائلة دميان ، كانت تتذكرهم جيداً بيد أنها لم تستطع أن تخبرنى أين يقيمون فى الوقت الحالى . أدركت اهتمامى فأخذتنى إلى المنزل وأحضرت ألبوماً من الجلد وأطلعتنى على صورة لأم دميان . كنت أستطيع أن أتذكر ماذا كانت تشبه ، ولكن بمجرد أن رأيت التشابه الصغير توقف قلبى ساكناً ، فلقد كانت صورة الحلم الخاص بى ! كانت تلك هى ، المرأة الطويلة ، التى تبدو عليها بعض الذكورة والتى كانت تشبه ابنها ، تعلوها سمات أمومية وحزم وعاطفة ، جميلة وجذابة ، جميلة ولا يضاهيها شئ ، شيطان وأم ، قدر ومحبوب . لا مراء أنها هى ! إن اكتشافى بهذه الطريقة أن صورة حلمى موجودة انتابنى كمعجزة . إذن فهناك امرأة تشبه ذلك و لها ملامح قدرى ! وتكون أم دميان .

أين كانت ؟

بعد ذلك بفترة قصيرة شرعت فى رحلتى . كانت ويا لها من

رحلة غريبة ! رحت أسافر قلقاً من مكان إلى مكان ، متتبعاً كل حافز ، أبحث باستمرار عن هذه المرأة . ثمة أيام كان كل شخص أقابله يذكرنى بها ، يحاكيها ، ويبدو أنه يشبهها ، وكان يستدرجنى خلال شوارع لمدن غريبة وخلال محطات السكة الحديد ، وفى القطارات ، كأننى فى حلم ملغز .

ثمة أيام أخرى أدركت خلالها عبثية بحثى . عندئذٍ كنت أجلس مسترخياً فى مكان ما فى منتزة أو فى حديقة فندق ، فى غرفة انتظار ، محاولاً أن أجعل الصورة تدب فيها الحياة بداخلى . بيد أنها أصبحت خجولاً ومراوغة . وجدت أنه من المستحيل أن أروح فى النوم . اللهم إلا أثناء السفر فى القطار . كنت أتمكن بين الفينة والفينة من أن أحظى بغفوة قصيرة . حدث فى زيورخ أن اقتربت من امرأة ، مخلوق فى غاية الوقاحة . لقد لاحظتها بالكاد وتجاوزتها وكأنها لم تكن موجودة . لقد آثرت أن أموت لحظتها عن أن أعير انتباهاً لأى امرأة أخرى ، حتى لمدة ساعة .

شعرت بقدرى يستدرجنى ، شعرت بلحظة الإنجاز تقترب وقد أصابنى الملل لدى كونى عاجزاً عن فعل أى شئ . حدث فى محطة قطارات ، فى أنسبرك ، حسب ما أعتقد ، أن لمحت امرأة ذكرتنى بها – فى قطار مقلع للتو . لقد ظللت تعيساً لعدة أيام . وفجأة عاود الشكل الظهور ذات ليلة فى حلم . إستيقظت وقد أصابتنى عبثية بحثى بالكدر والمهانة ثم أخذت القطار التالى للعودة

بعد بضعة أسابيع دخلت جامعة هـ . فألفيت كل شئ مخيباً للآمال . كانت المحاضرات فى تاريخ الفلسفة محبطة ورتيبة تماماً مثلها مثل أنشطة غالبية الطلاب . بدا كل شئ يسير وفق نظام عتيق ، كل الأشخاص كانوا يفعلون نفس الشئ . بينما بدا السرور المفرط على الوجوه الصبيانية أجوفاً بشكل يبعث على الكآبة وجاهزاً . ولكن على الأقل كنت فى حرية . فلقد كان اليوم بكامله ملكى ، كنت أقيم فى هدوء وأمان فى منزل قديم بالقرب من سور المدينة ، وفوق منضدتى بضعة مجلدات لنيتشة ، كنت أعيش بصحبته ، وأشعر بوحشة روحه ، وأستوعب القدر الذى كان يسيّره بلا رحمة ، لقد كنت أعانى معه واغتبطتُ لأن هناك رجلاً واحداً قد تتبع مصيره فى عناد شديد .

فى وقت متاخر ذات مساء كنت أتجول خلال المدينة . كان ثمة رياح خريفية آخذة فى الهبوب وتسنى لى أن أسمع لهو الإخوة فى الحانات . راحت سحب من دخان التبغ تتهادى من النوافذ المفتوحة فى وفرة من غناء صاخب ذى إيقاع . ومع ذلك كان رتيباً ومتماثلاً على نحو ممل .

وقفت فى ركن بشارع ورحت أصغى : كان المرح النمطى يرتفع أمام سكون الليل . فى كل مكان كان ثمة مشاركة خاطئة ، كل مكان كان يخلع عن نفسه تبعة القدر ، اللجوء إلى القطيع طلباً الدفء .

مر رجلان علىّ فى مهل من خلفى . سمعت بضعة كلمات من محادثتهما . قال أحدهما : أليس هذا مثل بيت الشباب فى كرال ؟ إن كل شيء يناسب الوشم الذى يعود رائجاً من جديد . انظر ! ها هى أوربا الشابة .

بدا الصوت غريباً ومألوفاً على نحو محذر . مشيت وراء الرجلين فى زقاق مظلم . أحدهما كان يابانياً ، ضئيلاً ونحيلاً . رأيت وجهه الشاحب يشرق بابتسامة فى ضوء مصباح شارع ، بينما راح الآخر يتحدث من جديد .

« أتخيل أنه بنفس السوء ، أينما فى اليابان . إن الناس الذين لا يتبعون القطيع قليلون فى كل مكان . يوجد البعض منهم هنا أيضاً »

أحسست بخليط من الإنذار والفرح لدى كل كلمة . كنت أعرف المتحدث . لقد كان دميان . تتبعته هو واليابانى خلال الشوارع العاصفة ، استطبت ، منصتاً إلى حديثهما صوت دميان كان مازال محتفظاً بوقعه المألوف . إن نفس اليقين الجميل المعهود والهدوء كان لهما تأثيرهما الكامل القديم علىَّ . الآن ، كل شيء على ما يرام . لقد عثرت عليه .

عند نهاية أحد الشوارع بالضواحى قام اليابانى بالافتراق وفتح باب منزله . عاد دميان أدراجه ، كنت قد توقفت منتظراً إياه فى وسط الشارع . غدوت متحفزاً بشدة عندما رأيته يقترب ،

منتصباً ، بخطوة لينه ، فى معطف بنى من المطاط . راح يدنو دون أن يغير من طريقة مشيته حتى توقف أمامى على بعد خطوات قليلة ثم حرك قبعته وكشف عن وجهة ذى البشرة المشرقة والفم الحاسم والوضاحة الغريبة على جبينه العريض .

ناديت « دميان »

« إذن ، هو أنت يا سينكلير ! لقد كنت أتوقعك »

« هل كنت تعرف أننى هنا ؟ »

« لم أكن أعرف ذلك بالضبط غير أننى تمنيت أن تكون هنا ، إننى لم أرك منذ ذلك المساء ، لقد كنت فى إثرنا لبعض الوقت . »

« هل عرفتنى فى الحال ؟ »

« بالطبع لقد تغيرت بعض الشئ . بيد أنك تحتفظ بالعلامة »

« العلامة ! أى علامه ؟ »

« لقد دأبنا على تسميتها علامة قابيل منذ وقت مبكر . إنها علامتنا . لقد كنت دائماً تحملها ، ومن أجل ذلك أصبحت صديقك . ولكنها الآن أكثر وضوحاً »

« لم أكن مدركاً لذلك . أو فى واقع الأمر ، حقاً ، حدث أن رسمت صورة لك يا دميان ، وكنت مندهشاً من أنها كانت تشبهنى أيضاً . هل كانت هذه هى العلامة ؟ »

« تلك كانت هى . من الجميل أن تكون هنا . سوف تُسر أمى بدورها »

أُخذت فجأة .

« أمك ؟ هل هى هنا أيضاً ؟ بيد أنها لا تعرفنى »

« لكنها على دراية بك . إنها ستعرفك حتى دون أن أقول من أنت . إننا لم نعرف عنك شيئاً منذ أمد طويل »

« أردت مراراً أن أكتب لك ، غير أن الأمر كان بلا جدوى . عرفت منذ بعض الوقت أننى سرعان ما سأعثر عليك . لقد كنت فى انتظار هذا كل يوم . »

تأبط ذراعى ومشى قدماً معى . كان محاطاً بهالة من الهدوء ، راحت تؤثر علىّ بدورها . سرعان ما كنا نتحدث مثلما اعتدنا أن نتحدث فى الماضى . عادت أفكارنا إلى حيث كنا فى المدرسة وإلى حصص التعميد وكذلك إلى تلك المقابلة التعيسة الأخيرة أثناء إجازتى . لم نذكر سوى رابطتنا الحميمة القديمة أما واقعة كرومر فلم نتطرق إليها مطلقاً .

فجأة وجدنا أنفسنا فى خضم محادثة غريبة ، متلامسة مع العديد من الموضوعات المشئومة . ملتقطين ما أسقطه دميان فى حديثه مع اليابانى ، رحنا نتناول الحياة التى كان يحياها معظم الطلبة ، ثم تطرقنا إلى شئ آخر ، شئ يبدو أنه بعيد جداً . ومع ذلك كان فى كلمات دميان صلة حميمة أصبحت واضحة . راح يتحدث عن روح أوربا وأحوال العصر .

قال أننا فى كل مكان نستطيع أن نرى عصر غريزة القطيع ،

بينما لا نرى المحبة والحرية فى أى مكان كل هذه المشاركة الخاطئة – من التآخيات إلى مجتمعات الجوقة والأمم نفسها – كانت تمثل تطوراً لا مناص منه ، كانت عبارة عن مجتمع تشكل من الخوف والرهبة ، بسبب الإرتباك ، ولكنه متعفن من الداخل ، وبالٍ وعلى وشك الإنهيار .

قال دميان : إن المشاركة الحقيقية لشئ جميل . غير أن ما نراه مزدهراً فى كل مكان لا يمثل شيئاً من هذا القبيل . إن الروح الحقيقية سوف تنبعث من المعرفة التى يكتسبها الأشخاص المستقلون عن بعضهم البعض ، وفى وقت ما سوف تقوم بتحويل العالم . إن روح المجتمع فى الوقت الحالى ليست سوى تجلى لغريزة القطيع ، إن الناس يهرعون إلى أحضان بعضهم البعض لأنهم خائفون من بعضهم البعض – الملاك على أنفسهم ، العاملون على أنفسهم ، التلاميذ على أنفسهم ! ولماذا هم خائفون ؟ إنك لا تخاف إلا إذا كنت فى عدم توافق مع نفسك . الناس يخافون لأنهم لم يعترفوا قط بأنفسهم . لقد تشكل المجتمع فى مجمله من أناس خائفين من المجهول فى قرارة أنفسهم ! إنهم جميعاً يدركون أن القواعد التى تسيرهم لم تعد صالحة ، لذا فهم يعيشون وفق قوانين بالية ، فلا دينهم ولا أخلاقهم تتماشى بأية حال مع متطلبات الحاضر . إن أوربا لم تقم بشئ على مدار مئة عام أو يزيد سوى الدراسة وبناء المصانع ! إنهم يعرفون على وجه الدقة كم

عدد وحدات البارود التى تكفى لقتل إنسان ، بيد أنهم لا يعرفون كيف يصلون للرب . إنهم حتى لا يعرفون كيف يكونون سعداء ولو لساعة رضا واحدة . فقط ألق نظرة على الحانات التى تعج بالطلبة أو على أى منتجع حيث يحتشد الأغنياء . إنه لأمر مخيب للرجاء . لا شئ يا عزيزى سينكلير يمكن أن ينبثق من كل هذا . إن هؤلاء الناس الذين يتجمعون معاً فى خوف يمتلئون بالرهبة والخبث ، لا أحد يثق فى الآخر . إنهم يتوقون إلى المثل التى لم تعد مُثلاً ولكنهم سوف يدفعون الإنسان الذى يبنى مثالاً جديداً إلى الموت . باستطاعتى أن أشعر بصراع وشيك . إنه قادم صدقنى ، وقريباً . إنه لن يحسن بطبيعة الحال من العالم . إما أن يقضى العمال على أصحاب المصانع أو تشن ألمانيا الحرب على روسيا فلن يعنى الامر سوى تغيير فى الملكية . بيد أن الأمر لن يذهب برمته أدراج الرياح ، فلسوف يميط اللثام عن إفلاس مثل العصر الحالى .

سيكون هناك اكتساح لآلهة العصر الحجرى . إن ما يريده العالم على ما هو الآن أن يموت . أن يفنى ، وسيفعل » .

« وماذا سيحدث لنا فى خضم هذا الصراع ؟ »

« بالنسبة لنا ؟ أوه ، ربما سوف نفنى بداخله . يمكن أن يفنى جنسنا بدوره . غير أننا لن نلقى حتفنا بكل تلك السهولة . فحول ما يتبقى منا ، حول هؤلاء الذين سيبقون على قيد الحياة ،

سوف تتجمع إرادة المستقبل . إن إرادة البشرية التى أخرستها قارتنا الأوربية ردحاً من الزمن بسعار التكنولوجيا سوف تملك زمام الأمور من جديد وعندئذٍ سيتضح أن إرادة البشرية – ولم تكن – متطابقة مع إرادة مجتمعات الوقت الحالى ، إرادة الدول والشعوب ، الأندية والكنائس . كلا ، إن ما تريده الطبيعة من الإنسان يظل مكتوباً بداخل الفرد ، بداخلك ، وبداخلى ، إنه يظل مكتوباً فى المسيح ، يظل مكتوباً فى نيتشه . إن تلك الميول التى تعد الميول الوحيدة المهمة والتى بطبيعة الحال تتخذ أشكالاً مختلفة كل يوم ، سوف يتاح لها مجال لكى تتنفس حالما تنهار المجتمعات الحالية .

كان الوقت قد تأخر عندما توقفنا أمام حديقة على ضفة النهر .

قال دميان : هذا هو المكان الذى نعيش فيه ، لابد أن تأتى قريباً لزيارتنا . لقد كنا فى انتظارك . مغتبطاً رحت أقطع الطريق عائداً تحت جنح الليل الذى أمسى بارداً . هنا وهناك ، كان ثمة طلاب يترنحون فى صخب إلى ثكناتهم . كثيراً ما كنت ألاحظ الفارق بين مرحهم الأجوف بعض الشئ وبين وجودى الموحش ، أحياناً بازدراء وأحياناً أخرى بشعور بالحرمان . ولكن لم أشعر قبل اليوم بمثل هذا القدر من السكينة والقوة الخفية كم أن الأمر كان يعنى لى القليل ، كم أن هذا العالم كان بعيداً وميتاً

بالنسبة لى . تذكرت الموظفين المدنيين فى بلدتى ، نبلاء عجائز جديرون تعلقوا بالذكريات التى تعود إليأيام السكر الجامعية كأنها تذكارات من الجنة . وقد راحوا يختلقون ولعاً بسنينهم الدراسية الخوالى يصنع طفولتهم كشعراء أو رومانتيكيين كان الأمر كذلك فى كل مكان ! فهم يبحثون فى كل مكان عن « الحرية » و« السعادة » فى الماضى بدافع الخوف التام من مسئولياتهم الحالية ومسار المستقبل .

راحوا يشربون ويتصاخبون بضع سنوات ثم انزووا بعيداً ليصبحوا سادة ذوى فكر جاد فى مصالح الدولة . حقاً ، لقد أصبح مجتمعنا متعفناً ، وتلك الغباءات الطلابية لم تكن فى غاية الغباء ، لم تكن فى غاية السوء مثل العديد من الأشياء الأخرى .

حالما وصلت إلى منزلى البعيد واستعددت للنوم ، كانت كل هذه الأفكار قد اختفت وراح كيانى كله يتعلق فى ترقب بالوعد الكبير الذى جلبه لى هذا اليوم . بمجرد أن تمنيت ، حتى غداً ، تقرر لى أن أرى أم دميان . فليقم الطلاب بعربداتهم السكيرة ويسمون وجوههم بالوشم ، إن العالم المتعفن بوسعه أن ينتظر هلاكه . من بين كل ما كنت أهتم به ، كنت فى ارتقاب شئ واحد - أن أرى قدرى يرفل فى مظهر جديد .

رحت فى نوم عميق حتى وقت متأخر من الصباح . أقبل اليوم الجديد مثل عيد جليل . من النوع الذى لم أجربه منذ أيام

طفولتى . لقد كنت مفعماً بقلق شديد ، ولكن بدون خوف من أى نوع . أحسست أن نهاراً جديداً قد بدأ لى ورأيت وجربت العالم المختلف من حولى ، مترقباً ، زاخراً بالمعانى ، ومهيباً ، حتى أمطار الخريف الخفيفة كان لها سحرها . لأول مرة كان العالم الخارجى يتوافق مع العالم بداخلى ، لقد كان للفرح أن يحيا . بدون منزل ، بدون فاترينة ، بدون وجه يعكر صفوى ، فكل شئ كان كما ينبغى أن يكون، بدون أى من نظرات كل يوم الرتيبة السطحية ، كل شئ كان جزءً من الطبيعة ، مترقباً وجاهزاً لملاقاة نصيبه بمهابة . هكذا كان العالم يتبدى لى فى الصباحات وقتما كنت طفلاً صغيراً ، فى أيام العيد العظيم ، فى الكريسماس أو عيد القيامة . لقد نسيت أن العالم يمكن أن يظل شديد البهاء . فلقد أصبحت معتاداً على العيش فى داخل نفسى . لقد تكشف لى أننى قد فقدت كل التقدير للعالم الخارجى حيث كان فقدى لألوانه الزاهية جزءً لا يتجزأ من فقدى لطفولتى ، وبشئ من التأكيد كان على المرء أن يدفع لقاء الحرية ونضج الروح بالتخلى عن هذه الهالة المصانة . رأيت فى فرح بالغ أن كل هذا كان فحسب مدفوناً أو عليه غشاوة ولذا فهو مازال متاحاً - حتى لو أصبحت طليقاً وأعلنت عن سعادة طفولتك - لترى العالم يتلألأ وتتذوق النشوة اللذيذة للرؤية لطفولية .

لقد حانت اللحظة عندما رحت أتلمس طريقى عائداً إلى

الحديقة التي تقع على أطراف البلدة حيث تركت دميان البارحة . خلف أشجار مبتلة عالية كان ينهض منزل صغير ، زاه ومناسب للعيش . بينما تراءت نباتات يانعة خلف زجاج سميك ، ومن خلف نوافذ مؤتلقة لاحت حوائط قاتمة بصور وصفوف من الكتب . كان الباب الأمامي يؤدي مباشرة إلى ردهة دافئة صغيرة . أدخلتني خادمة صموت ترتدي ثوباً أسود ومريلة بيضاء ثم أخذت معطفي .

تركتني بمفردي في الردهة . رحت أتطلع حولي ، في الحال انجرفت في خضم حلمي . عالياً على الحائط القاتم ذي الاطار الخشبي وفوق أحد الأبواب عُلقت لوحة مألوفة ، الطائر ذو رأس الباشق ذات الأصفر الذهبي ، يشاكس خارجاً من القشرة الأرضية . متأثراً بشدة ، وقفت هناك بلا حراك - أحسست بالفرح والألم وكأن في هذه اللحظة كل شئ قد فعلته من قبل ومررت به قد عاد إلىّ في صورة رد وإنجاز . في لمحة رأيت حشوداً من الصور تتوافد أمام عين ذاكرتي : منزل أبويّ ذو طائر شعار النبالة على المدخل ، الفتى دميان وهو يرسم الشعار ، نفسي عندما كنت صبياً تحت تأثير التعويذة المرعبة لعدوى كرومر ، نفسي عندما كنت مراهقاً في غرفتي بالمدرسة أرسم طائر حلمي على منضدة هادئة .

لقد وقعت الروح في حبال شراكها الخاصة - وكل شئ حتى

هذه اللحظة الراهنة راح يتردد مرة أخرى بداخلى ، رحت أؤكده . أجيبه ، أقر به بعينين دامعتين ، رحت أحدق فى صورتى وأقرأ فى دخيلة نفسى ثم خفضت عينى .. تحت لوحة الطائر وعلى الباب المفتوح إذ بامرأة طويلة تقف فى رداء قاتم . لقد كانت هى .

لم أستطع أن أنطق بكلمة . بوجهٍ يشبه وجه ابنها الأبدى والخالد والمفعم بقوة داخلية ، راحت المرأة الجميلة تبتسم فى رفعة . كانت نظرتها بمثابة إنجاز ، وترحيبها بمثابة عودة للغائب . مددت يدى فى صمت إليها ، فأخذتهما فى يديها الحازمتين الدافئتين .

« أنت سينكلير . لقد عرفتك على الفور مرحباً بك ! »

كان صوتها عميقاً ودافئاً . رحت أشربه بنهم كأنه نبيذ حلو . والآن رحت أطل وأتأمل وجهها الهادئ ، العينين السوداوين اللتين لا يسبر غورهما ، شفتيها الطازجتين المكتملتين ، الجبين الملكى البارز الذى كان يحمل العلامة .

قلت « كم أنا سعيد » وقبلت يدها ، « أعتقد أننى كنت فى طريقى طوال حياتى ، وها أنا الآن أعود للبيت »

إبتسمت مثل أم .

قالت « المرء لا يصل أبداً إلى البيت ، ولكن حيث تلتقى السبل التى على صلة ببعضها البعض يبدو العالم بأسره أشبه بالبيت

لوهلة من الزمن » كانت تعبر عما شعرت به فى طريقى إليها . كان صوتها وكلماتها يشبهان صوت وكلمات ابنها رغم أنها كانت مختلفة بعض الشئ . كل شئ كان أكثر اكتمالاً ، أكثر دفئاً ، أكثر جلاءً . ولكن تماماً مثلما كان ماكس دميان لا يعطى الانطباع بكونه مجرد فتى ، كذلك لم تبد أمه قط كامرأة لها إبن يافع ، يانع . جميلاً كان وجهها وشعرها ، مشدودةً وناعمةً كانت بشرتها الذهبية ، طازجاً كان ثغرها . كانت تمثل أمامى أكثر جلالاً حتى مما فى أحلامى .

إذن كان هذا المظهر الجديد الذى كشف فيه قدرى عن نفسه لى ، لم يعد قاسياً ، لم يعد مفصولاً عنى ، بل طازجاً ومرحاً ! لم أتخذ قرارات ، لم أقطع أى عهود - لقد أحرزت هدفاً ، موقعاً متقدماً على الطريق . . من هناك بدت المرحلة التالية للرحلة رائعةً وبلا عراقيل ، تفضى إلى الأراضى الموعودة ، بغض النظر عما يمكن أن يحدث لى الآن فلقد تشبعت بنشوة أن هذه المرأة موجودة فى الدنيا . وأننى أستطيع أن أشرب فى صوتها وأتنفس حضورها . لا يهم إذا ما كانت ستصبح أمى أو محبوبتى أو إلهةً ما - آه لو كان بوسعها فحسب أن تكون هنا ! آه لو كان سبيلى فقط قريباً من سبيلها .

أشارت عالياً إلى الصورة . قالت مستغرقةً .

« إنك لم تسعد ماكس دميان قط أكثر مما أسعدته بهذه الصورة

وأنا أيضاً . لقد كنا فى انتظارك وعندما وصلت اللوحة عرفنا أنك فى طريقك . عندما كنت طفلاً صغيراً يا سينكلير ، جاء إبنى يوماً ما من المدرسة وقال لى : يوجد فى المدرسة فتى يحمل العلامة على جبينه ، يجب أن يكون صديقى . كان ذلك أنت . إنك لم تحظ بوقت سعيد غير أننا كان لدينا ثقة فيك . لقد التقيت بماكس من جديد خلال إحدى إجازاتك . لابد أنك كنت فى حوالى السادسة عشرة آنذاك . لقد أخبرنى ماكس بذلك .

قاطعتها : هل أخبرك بذلك ؟ لقد كانت تلك أسوأ فترات حياتى !

« حقاً ، لقد قال لى ماكس : إن سينكلير يواجه أصعب جزء قادم الآن . إنه يقوم بمحاولة أخيرة ليجد ملاذاً بين الآخرين . لقد شرع أيضاً فى ارتياد الحانات . إلا أنه لن ينجح . إن علامته محجوبة بيد أنها تلفحه على نحو خفى . ألم يكن الأمر كذلك ؟ »

« نعم ، بالضبط ثم وجدت بياتريس ، وأخيراً وجدت معلماً من جديد . كان يسمى بيستوريوس ، فقط عندها أصبح جلياً لى لماذا ارتبط صباى ارتباطاً وثيقاً بماكس ، ولماذا لم أستطع أن أخلص نفسى منه . فى ذلك الوقت أيتها الأم العزيزة كنت أفكر كثيراً فى أننى ينبغى على أن أتقبل حياتى . هل كان الطريق صعباً هكذا علَّ أى شخص ؟ »

ربتت على شعرى . بدت اللمسة خفيفة كالنسيم .

« من الصعب دائما أن تولد . تعرف أن الفرخ لا يجد من السهل أن يشق طريقه خارج القشرة . فكر ملياً وأسأل نفسك : هل كان الطريق بكل تلك الصعوبة ؟ هل كان صعباً فقط ؟ ألم يكن جميلاً أيضاً ؟ هل كان بوسعك أن تفكر فى طريق أجمل وأسهل ؟ .

هززت رأسى .

قلت وكأننى فى سبات « لقد كان شاقاً حتى جاء الحلم »

أومأت وقد سبرت أغوارى بنظرةٍ .

« حقاً ، لابد أن تعثر على حلمك ، عندئذٍ يصبح الطريق سهلاً . ولكن ليس ثمة أحلام تستمر للأبد ، فكل حلم يجئ فى إثره آخر . والمرء لا ينبغى أن يتعلق بحلم بعينه . »

أُخذت وارتعبت هل كان ذلك تحذيراً ، نظرةً وقائية ، بهذه السرعة ؟ لكن لا يهم لقد كنت مستعداً أن أدعها تقودنى دون أن أستفسر عن غايات .

قلت : لا أعرف ، كم يفترض أن يستمر حلمى . أتمنى أن يتسنى له الاستمرار للأبد . لقد استقبلنى قدرى تحت صورة الطائر مثل عاشق ومثل معشوق . إننى أنتمى لقدرى وليس إلى قدر آخر .

راحت تؤكد بصوت ذى لهجة جادة : على قدر ما يظل الحلم قدرك يجب أن تظل مخلصاً له .

إنتابنى حزن وتوق لأن أموت فى هذه الساعة الخلابة .

أحسست بدموع - ياله من دهر مرّ على منذ آخر مرة بكيت فيها - وقد راحت تفيض فى عينى بشكل لا يقاوم وتقهرنى .

أشحت بوجهى بغتَة بعيداً عنها ، توجهت إلى النافذة ، ورحت أحدج بعماء فى المدى . سمعت صوتها من ورائى ، هادئاً ومع ذلك كان يفيض بالرقة مثل كأس يفيض بالنبيذ .

« إنك طفل ياسينكلير ! إن قدرك يحبك . فى يوم ما سيصبح ملكك كليّة - تماماً كما تحلم به - لو بقيت وفياً له »

إستعدت التحكم فى نفسى . والتفت إليها من جديد . أعطتنى يدها . قالت بابتسامة « إن لدى بضعة أصدقاء ، بضعة أصدقاء جد مقربين ينادوننى بفراو إيفا . ستكون واحداً منهم إذا شئت »

أوصلتنى إلى الباب ، فتحته وأشارت نحو الحديقة « سوف تجد ماكس هناك »

وقفت مذهولاً ومنزعجاً تحت الأشجار العالية ، ليست أدرى هل كنت فى يقظة أو فى حلم أكثر من ذى قبل . كان المطر يقطر بلطف من الأغصان . خرجت على مهل إلى الحديقة الممتدة بعض الشئ على طول النهر . أخيراً وجدت دميان . كان يقف فى منزل صيفى مفتوح ، متجرداً حتى الوسط ، يوجه لكمات إلى كيس رمل معلق .

توقفت مندهشاً . كان دميان يبدو وسيماً على نحو لافت

بصدره البارز ، وبملامحه الرجولية الحازمة ، كانت اليد المرفوعة ذات العضلات المشدودة قويّة وفعالة ، كانت الحركات تنبعث فى سلاسة من الردفين والكتفين والرسغين .

انطلقت « دميان ، ماذا تصنع هناك ؟ »

ضحك مسروراً .

« أتمرن . لقد وعدت اليابانى بمباراة ملاكمة ، إن الرفيق الصغير خفيف الحركة مثل قطة وبالطبع مراوغ على حد السواء لكنه لن يستطيع أن يهزمنى ، ثمة إهانة طفيفة للغاية يجب أن أردها إليه » .

قام بارتداء قميصه ومعطفه .

سأل : « هل رأيت أمى ؟ » .

« أجل يا دميان ، يالها من أم رائعة تحظى بها ! فراو إيفا ! إن الإسم يناسبها تماماً . إنها أشبه بأم للجميع . »

نظر باستغراق فى وجهى لبرهة « إذن فأنت تعرف إسمها بالفعل ؟ لك أن تفخر بنفسك . إنك الشخص الأول الذى تخبره به فى أول مقابلة »

من هذا اليوم رحت أدخل وأخرج من البيت مثل ابن أو أخ - ولكن أيضاً مثل شخص فى هيام . كنت بمجرد أن أفتح البوابة ، وبمجرد أن ألمح منظر الأشجار العالية ، أشعر بالسعادة والثراء . فى الخارج كان الواقع عبارة عن شوارع ومنازل ، ناس

ومؤسسات ، مكتبات وقاعات محاضرات - ولكن هنا فى الداخل كان الحب ، هنا كانت تحيا الأسطورة والحلم . ومع ذلك كنا لا نحيا على أية حال بمعزل عن العالم الخارجى ، ففى أفكارنا وحواراتنا كنا كثيراً ما نحيا فى خضمه ، ولكن على صعيد مختلف كل الإختلاف . لم نكن مفصولين عن غالبية الناس بفاصل ما ولكن بنمط مختلف من الرؤية . كانت مهمتنا أن نتمثل جزيرة فى العالم ، ربما نموذج مصغر أو على الأقل نظرة عامة لطريقة مختلفة للحياة . أنا ، الذى ظل معزولاً أمداً طويلاً . رحت أتعرف على الرفقة التى تتاح بين الناس الذين ذاقوا مرارة الوحدة التامة . لم أتق من جديد إلى طاولات الحظ وأعياد المباركة . لم يعترينى مرة ثانية الحسد والحنين عندما كنت أشاهد ملذات الآخرين الجماعية وشيئاً فشيئاً كانت تجرى مراسم دخولى فى سر هؤلاء الذين يحملون العلامة فى وجوههم .

نحن الذين كنا نحمل العلامة فى وجوهنا ربما كان العالم يعتبرنا بحق « مختلفين » ، نعم ، كذلك مجانين وخطرين . لقد كنا مدركين أو فى طريقنا لنصبح مدركين وكان كفاحنا موجها إلى تحقيق حالة من الوعى أكثر وأكثر اكتمالاً . بينما كفاح الآخرين كان عبارة عن بحث يهدف إلى ربط آرائهم ونماذجهم وحيواتهم وثرواتهم بتلك التى تخص الآخرين . كان هناك كذلك كفاح . كانت هناك أيضا قوة وعظمة . ولكن حيث كنا نحن الموسومين

نؤمن بأننا نمثل تطلع الطبيعة إلى شئ جديد ، إلى فردية المستقبل ، كان الآخرون يخلدون الوضع الراهن . إن الإنسانية - التى أحبوها كما أحببناها نحن - كانت بالنسبة لهم شيئاً مكتملاً لابد له أن يبقى وأن يصان ، بينما كانت الإنسانية بالنسبة لنا غاية بعيدة كل البشر كانوا يتوجهون نحوها ، والتى لم يعرف شكلها أحد ، ولم تكن قوانينها مدونة فى مكان ما .

بغض النظر عن فراو إيفا وماكس وأنا ، ثمة باحثين آخرين شتى كانوا على اتصال أكثر أو أقل قرباً بالحلقة . لقد بدأ القليل بالفعل فى سبل شديدة الفردية ، وقد حددوا لأنفسهم أهدافاً غير عادية بالمرة ، وراحوا يتعلقون بأفكار وواجبات بعينها . تضمنوا المنجمين والقبالة ، وكذلك تلميذ « الكونت تولستوى » ، وجميع أنواع الكائنات الرقيقة والخجولة والمعرضة للهجوم وكذلك أتباع الطوائف الجديدة ، والمتفانين الهنود فى الزهد ، النباتيين وهلم جرا . لم تكن بيننا فى واقع الأمر روابط فكرية مشتركة سوى الإحترام الذى يوليه كل شخص لنماذج الآخر . إن هؤلاء الذين كنا نشعر أننا على قرابة بهم كانوا مهتمين بالبحث فى ماضى الجنس البشرى هن الآلهة والنماذج - إن دراساتهم كثيراً ما كانت تذكرنى بيبستوريوس . كانوا يجلبون الكتب برفقتهم ، ويقومون جهاراً بترجمة نصوص بلغات قديمة و ويوضحون لنا دلالات الرموز القديمة والطقوس ويعلموننا أن نرى كيف أن مخزن النماذج العام

للبشرية قد تشكل بدرجة كبيرة من الأحلام التى انبعثت من اللاشعور ، ومن الأحلام التى تفتش فيها البشرية عن تلميحاتها الخاصة المتعلقة باحتمالات المستقبل وهكذا تقف على حقيقة التشابك الرائع ذى الألف رأس الخاص بآلهة ما قبل التاريخ إلى فجر التحول المسيحى . رحنا نسمع عن عقائد المقدسين ، وعن انتقالات الأديان التى يتحملونها فى هجراتهم من شعب إلى آخر . وبالتالى ، اكتسبنا من كل شئ جمعناه فى هذا الصدد فهماً انتقادياً لعصرنا ولأوروبا المعاصرة ! فمع محاولات خارقة بدرجة كبيرة تم اختراع أسلحة جديدة للجنس البشرى بيد أن النهاية كانت مخزية ، الخراب الشديد الذى حل بالروح . لقد استولت أوروبا على العالم بأسره لا لشئ إلا لتخسر الروح الخاصة بها .

كانت حلقتنا أيضاً تتضمن مؤمنين ، ومؤيدين لبعض الأمنيات وللعلاج بالمعتقدات . كان هناك بوذيون يسعون إلى تحويل أوروبا ، تابع تولستوى الذى كان يعظ بعدم مقاومة الشر ، بالإضافة إلى طوائف أخرى . لقد كنا نصغى نحن الذين فى الحلقة الخاصة ولكن لا نتقبل أياً من هذه التعاليم كأى شئ سوى المجازات . نحن الذين حملنا العلامة لم نكن نشعر بقلق فيما يتعلق بالشكل الذى ينبغى للمستقبل أن يكون عليه . فكل هذه المعتقدات والتعاليم بدت بالنسبة لنا بالفعل ميتة ولا طائل من ورائها فالواجب والمصير الوحيد الذى نقر به هو أن كلاً منا يجب

أن يصبح نفسه كليّة ، ووفياً مطلق الوفاء للبذور النشطة التى زرعتها الطبيعة بداخله والتى عند إنجاز نموها لم يكون له أن يُفاجأ بحدوث شئ غير معلوم .

رغم أننا ربما لم نكن قادرين على التعبير عن ذلك ، فقد كنا جميعاً نشعر بوضوح أن ثمة ميلاد جديد من بين أنقاض العالم الحالى كان قاب قوسين أو أدنى وملموساً بالفعل . كثيراً ما قال لى دميان : إن ما سيأتى يفوق التصور . إن روح أوروبا بمثابة وحش ظل مقيداً فترّة طويلة على نحو سرمدى . وعندما يتم تخليصه لن تكون حركاته الأولى هى الأكثر لطفاً . بيد أن الوسائل ليست مهمة لو أن الحاجات الحقيقية للروح - التى قد تقلص نموها وتم تخديرها لأمد طويل على نحو متكرر - خرجت للنور . عندئذٍ سوف يأتى يومنا ، ثم تكون الحاجة إلينا . ليس باعتبارنا قادة أو مشرعى قوانين - فلن نكون هناك حتى نرى القوانين الجديدة - ولكن كهؤلاء الذين يتمنون ، كرجال مستعدين للتقدم وباقين على أُهبة الاستعداد حيثما كان القدر فى حاجة إليهم . يجب أن تعرف أن كل الناس على استعداد لتحقيق ما لا يصدق إذا تم تهديد نماذجهم . ولكن ليس من أحد مستعداً عندما يجعل نموذج جديد ، حافز جديد وربما خطير ومشئوم ، يجعل من نفسه ملموساً . إن القلة الذين سيكونون مستعدين آنذاك والذين سوف يتقدمون - هم نحن . لهذا السبب نحن

موسومون – كما كان قابيل – ليثيروا الذعر والضغينة ويسرقوا الناس من خارج مكامن الأمان إلى مجاهل أكثر خطورة . إن كل الرجال الذين كان لهم تأثير على مسار التاريخ البشرى ، جميعهم بلا استثناء كانوا قادرين ومؤثرين فقط لأنهم كانوا مستعدين لتقبل ما لا مناص منه . إن هذا يصدق على موسى وبوذا ، على نابليون وبسمارك . إن أى انتقال معين يقوم به المرء وأى قطب يتم توجهه منه هى أمور خارج نطاق اختياره المحض . فلو أن بسمارك قد فهم الديمقراطيين الاجتماعيين وتوصل إلى حل وسط معهم لكان أصبح مجرد رجل ثاقب الفكر وليس رجل مصير . نفس الشئ ينطبق على نابليون وقيصر ولويولا وكل الناس من نفس النوع فى واقع الأمر .

لابد باستمرار أن نفكر فى هذه الأشياء بمضمون تطورى وتاريخى . عندما قذفت الانقلابات المفاجئة لسطح الأرض بمخلوقات البحر على الأرض وبمخلوقات الأرض فى البحر ، كانت عينات الأوامر المتنوعة التى كانت جاهزة لتتبع مصيرها ، كانت هى العينات التى تحقق ما هو جديد وما هو غير مسبوق ، عن طريق القيام بتكيفات بيولوجية قادرة على إنقاذ أجناسها من الهلاك . نحن لا نعرف هل كانت تلك نفس العينات التى ميزت نفسها فيما سبق بين أترابها باعتبارها محافظة وداعمة للوضع القائم ، أو باعتبارها إلى حد ما شاذة وثائرة ، بيد أننا بالفعل

نعرف أنها كانت جاهزة وتستطيع بناءً على ذلك قيادة أنواعها إلى مسارات جديدة من التطور . لهذا السبب نريد أن نكون مستعدين .

كثيراً ما كانت فراو إيفا تتواجد أثناء هذه المحادثات ومع ذلك لم تكن تشارك كليةً بنفس الطريقة . كانت مستمعة ، وكلها ثقة وتفهم ، كانت صدى لكل واحد منا كان يقوم بشرح أفكاره . كان الأمر يبدو وكأن التفكير برمته ينبعث منها وفى النهاية يعود إليها ، كانت سعادتى تكمن فى جلوسى بالقرب منها ، مستمعاً لصوتها بين الفينة والفينة ومشاركاً فى الطقس الزاخر الروحانى المحيط بها .

كانت تدرك على الفور أى تغيير ، اى شقاء أو أى تطور جديد يطرأ بداخلى . لقد بدا أيضاً أن أحلامى بالليل كانت توحى لى بها . كنت كثيراً ما أرويها لها وكانت تجدها مفهومة وبديهية ، إذ لم يكن بها منحى غريب لم تستطع أن تتبعه . لبعض الوقت راحت أحلامى تكرر نماذج من حواراتنا النهارية . كنت أحلم أن العالم برمته فى اضطراب وذلك بمفردى أو بصحبة دميان ، كنت أنتظر فى ترقب اللحظة الكبرى . ظل وجه القدر محجوباً غير أنه بطريقة ما كان يحمل ملامح فراو إيفا أى يكون محل اختيارها أو ازدرائها . كان ذلك القدر .

أحياناً كانت تقول بابتسامة : « إن حلمك ناقص ياسينكلير ،

لقد نسيت أفضل جزء » وعندئذٍ كنت أتذكر الجزء الذى نسيته ولا أفهم كيف تسنى لى أن أنساه .

أحياناً كنت غير راض عن نفسى وكنت أتعذب بالرغبة ، كنت أعتقد أنه لم يعد بوسعى أن أتحمل وجودها بالقرب منى دون أن آخذها بين ذراعى . كانت تدرك هذا بدورها على الفور . حدث عندما بقيت بعيداً لعدة أيام وعدت متحيراً أن انتحت بى جانباً وقالت : يجب عليك ألا تبدى رغبات أنت لا تؤمن بها . أعلم ما ترغب فيه . على أنك أيضاً يجب أن تتمكن من التخلى عن هذه الرغبات أو تكون مبرراً فى امتلاكك لها . وفى وقت ما تتكمن من اقتراح رغبتك بذلك الأسلوب الذى ستكون به على يقين تام من إنجازها ، عندئذٍ سوف يتم الإنجاز . ولكنك فى الوقت الحالى تتراوح بين الرغبة والتبرؤ منها وخائف طوال الوقت . لابد أن ينتابك كل هذا . دعنى أخبرك بقصة .

وراحت تحدثنى عن شاب وقع فى غرام كوكب . كان يقف على شاطئ البحر ، يبسط ذراعيه ويصلى للكوكب ، يحلم به ويوجه إليه كل أفكاره بيد أنه كان يعرف أو كان يدرك أنه يعرف ، أنه لا يمكن لكائن بشرى أن يحتضن نجمة . لقد اعتبر أن من المقدر له أن يحب جرماً سماوياً دون أى أمل فى التحقق وبسبب هذه البصيرة قام بإنشاء فلسفة من التخلى والمعاناة المخلصة التى كانت تحسنه وتطهره . ومع ذلك وصلت كل هذه الأحلام إلى

الكوكب . حدث أن وقف من جديد بالليل على الصخرة العالية المشرفة على البحر وراح يحدق فى الكوكب ويتحرق بالحب من أجله . وفى ذروة شوقه قفز فى الفضاء باتجاه الكوكب ، ولكن فى لحظة القفز « إنه مستحيل » ومضت مرة أخرى فى عقله . ومن ثم هوى على الشاطئ ، محطماً . لم يفهم كيف يحب . فلو كانت لديه فى لحظة القفز قوة الإيمان بالتحقيق المتعلق بحبه لانطلق إلى الأعالى واتحد بالنجم .

أضافت « إن الحب لا يجب أن يستعطف أو يطلب . فالحب يجب أن تكون له القوة حتى يصبح يقيناً داخل نفسه . عندئذٍ يتوقف أن يكون فحسب مجذوباً ويبدأ فى الجذب . إن حبك يا سينكلير منجذب لى . وحالما يبدأ فى جذبى سوف أنجذب . لن أجعل من نفسى هدية ، بل يجب ان يتم الفوز بى » .

فى وقت آخر أخبرتنى بقصة مختلفة ، تتعلق بعاشق كان حبه من طرف واحد . راح ينسحب كليّة داخل نفسه ، معتقداً أن حبه سوف يأتى عليه . لقد أصبح العالم تيهاً له ، لم يعد يرى السماء الزرقاء والغابة الخضراء ، لم يعد يسمع خرير الماء فى الجدول ، وأصبحت أذناه لا تسمع نغمات الهارب ، لم يعد شئ مهماً ، لقد أصبح مسكيناً وملعوناً . ومع ذلك راح يزيد وكان يؤثر الموت أو الهلاك على التنازل عن تملك هذه المرأة الجميلة . ثم أحس أن عاطفته قد أتت على كل شئ آخر بداخله وأصبحت شديدة

البأس ، شديدة الجذب لدرجة تحتم على المرأة الجميلة أن تستجيب لها . ذهبت إليه وكان يقف بذراعين ممدودين مستعدين لضمها إليه . عندما مثلت المرأة أمامه راحت تتحول كليّة ، وبرهبة راح يلمس ويرىَ أنه قد أستعاد كل ما فقده فيما سبق . مثلت أمامه وقامت بتسليم نفسها له ، بينما السماء والغابة والغدير راحت جميعها تتهادى إليه فى ألوان قشيبة ومتألقة ، راحت تنتمى له وتتحدث إليه بلغته الخاصة . وبدلاً من أن يفوز فقط بامرأة راح يحتضن العالم بأسره ، وكانت كل نجمة فى السماء تلمع بداخله وتتألق بسعادة فى روحه . لقد أحب وعثر على نفسه ولكن معظم الناس يحبون ليفقدوا أنفسهم .

إن حبى لفراو إيفا بدا أنه يملأ علىَّ كل حياتى . بيد أنه كان يظهر نفسه كل يوم بشكل مختلف فتارّة كنت متأكداً أنها لم تكن هى باعتبارها شخصاً انجذبت إليه ورحت أشتاق إليه بكل كيانى ، ولكنها كانت تتواجد فحسب باعتبارها مجازاً لنفسى الداخلية . مجازاً كان غرضه الأوحد أن يجعلنى أتوغل أكثر فى مجاهل روحى . كانت الأشياء التى تقولها تبدو أشبه بردود قادمة من وعيى الباطن على أسئلة كانت تعذبنى . ثمة لحظات أخرى كنت أجلس بجانبها وأتحرق بالرغبة الحسية وأقبل الأشياء التى لمستها . وشيئاً فشيئاً ، بدأ يتطابق الحب الحسى والحب العفيف ، الحقيقة والرمز . ثم كان يحدث عندما أفكر فيها فى حجرتى بالبيت فى

اتصال هادئ كنت أشعر بيدها فى يدى وشفتيها تلمس شفتىَّ . أو كنت أصبح فى منزلها ، كنت أنظر فى وجهها وأسمع صوتها ، ومع ذلك لا أعرف هل كانت حقيقة أو حلماً . بدأت أدرك كيف يتسنى للمرء أن يتملك حباً دائماً وللأبد . كانت لدى بصيرة أثناء قراءة كتاب - وكان هذا يبدو مثل قبلة إيفا . كانت تداعب شعرى وتبتسم لى فى مودة وكان هذا يبدو أشبه بخطوة للأمام فى دخيلة نفسى ، إن كل شئ ذو مغزى ومفعم بالقدر بالنسبة لى كان يتشكل فى صورتها . كانت تستطيع أن تحول نفسها إلى أيٍ من أفكارى وكلٍ من أفكارى كان يمكن أن يتحول إليها .

لقد كنت فى رهبة من إجازة الكريسماس - أن يتم قضاؤها فى منزل والدى - لأننى كنت أعتقد أنها ستصبح معاناة ان أكون بعيداً عن فراو إيفا طيلة أسبوعين كاملين . ولكن الأمر لم يبد على ذلك النحو - لقد كان من الرائع أن أكون بالبيت ومع ذلك قادر على التفكير فيها . عندما وصلت من جديد إلى هـ . انتظرت يومين آخرين قبل الذهاب لرؤيتها ، حتى أستطيب هذا الأمن ، هذا الاستغناء عن وجودها المادى . حلمت أحلاماً أيضاً ، حيث كان يتم اتحادى بها فى أفعال رمزية جديدة . كانت محيطاً انسبت فيه . كانت نجمة وأنا نجمة أخرى فى طريقى إليها ندور حول بعضنا البعض . لقد أخبرتها بهذا الحلم فى أول زيارة لها من جديد . قالت فى هدوء « إن هذا الحلم لجميل فلتقم بتحقيقه » .

ثم جاء يوم فى بداية الربيع لم أنسه مطلقاً .دخلت القاعة ، ثمة نافذة كانت مفتوحة ، فسمح تيار الهواء بدخول عبير مركز من الناردين . على اعتبار أنه لم يكن أحد بالداخل ، صعدت لأعلى إلى مكتب ماكس دميان . طرقت طرقاً خفيفاً على الباب ، وكما كانت عادتى و دخلت دون أن أنتظر رداً . كانت الحجرة مظلمة ، جميع الستائر مسدلة . كان الباب المؤدى إلى الحجرة المجاورة مفتوحاً . هناك قد أقام ماكس معملاً كيميائياً . حيث كان ينبعث منه الضوء الوحيد . إعتقدت ألا أحد بالداخل ورفعت إحدى الستائر . عندئذٍ رأيت ماكس منهاراً على كرسى بجانب الشباك ذو الستارة المسدلة . كان يبدو مختلفاً على نحو غريب ، ومر فى مخيلتى : لقد رأيت ذلك من قبل ! كانت ذراعاه مرتخيتين ، ويداه فى حجره . ورأسه منحنية بعض الشئ للأمام . وعيناه رغم أنهما كانتا مفتوحتين إلا أنهما كانتا غير مبصرتين وميتتين ، ففى إحدى عينيه كما فى كسرة من الزجاج أطبق خيط رفيع وحاد من الضوء القزحية غالقاً إياها ثم فتحها ، أطبقها ثم فتحها . كان الوجه الشاحب مستغرقاً فى نفسه بلا تعبير ، اللهم إلا من قسوته الشديدة ، كان يشبه قناع حيوان طاعن على باب معبد . لم يكن يبدو عليه أنه يتنفس .

مصعوقاً بالرهبة غادرت الحجرة فى هدوء وهبطت إلى أسفل . قابلت فراو إيفا فى القاعة ، كانت شاحبة وعلى ما يبدو متعبة . حيث

لم أعهدها على هذا النحو من قبل . مرت فى التو ظلال على النافذة ، بينما انزوى فجأة وهج الشمس الأبيض . همست بسرعة : كنت فى حجرة دميان ، هل حدث مكروه ؟ إنه إما نائم أو مستغرق فى نفسه ، لا أعرف على وجه التحديد ، فلم يحدث أن رأيته على هذه الحالة من قبل .

سألت مسرعة : أنت لم توقظه ، أليس كذلك ؟

- كلا ، إنه لم يسمعنى . لقد غادرت الحجرة على الفور . أخبرينى ، ما الذى حل به ؟

مسحت بظاهر يدها على جبينها .

- لا تقلق يا سينكلير ، لن يحدث له شئ لقد انسحب وسرعان ما سيمر الأمر .

قامت وخرجت إلى الحديقة - رغم أن السماء كانت تشرع فى الهطول . شعرت أنها لم تكن ترغب فى اصطحابى لها ، فرحت أحدق فى صورة طائرى المعلق على باب المدخل ، وأتنفس الجو الخانق الذى كان يعج به المنزل فى ذلك الصباح .

ماذا كان هذا ؟ ما الذى حدث ، عادت فراو إيفا قبل أن يمر وقت طويل . كانت بعض قطرات المطر عالقة بشعرها الأسود . جلست فى مقعدها الوثير . توجهت إليها ، وانحنيت على رأسها ، وقبلت حبات المطر فوق شعرها . كانت عيناها لامعتين وهادئتين غير أن قطرات المطر كان لها طعم الدموع .

سألت هامساً – هل أذهب وأطمئن عليه ؟

ابتسمت فى وهن ، وراحت تعنفنى ، بصوت عالٍ كأنها كانت تحاول أن تفض تعويذةً بداخلها .

– لا تكن ولداً صغيراً يا سينكلير ، انصرف الآن وعد فيما بعد . لا يمكننى أن أتحدث إليك الآن .

بين المشى والعدو رحت أفر من المنزل والمدينة ، باتجاه الجبال . كان المطر الخفيف ينحدر على وجهى ، بينما راحت سحب منخفضة تركض قريبّة وكأنها مثقلة بالخوف . وبالقرب من الأرض بالكاد كانت ثمة رياح بينما فى الأعالى كان ثمة عاصفة بدت تحتدم . لعدة مرات راحت الشمس المتوهجة تتكسر بسرعة خلال شقوق حادة فى سحب بلون الفولاذ الرمادى .

ثم راحت سحابة حرة صفراء تنساب عبر السماء ، وتصطدم بالحرف الآخر الرمادى للسحابة . صنعت الرياح فى بضعة ثوان شكلاً من هذه الكمية الكبيرة من الأصفر والأزرق الرمادى ، طائراً هائلاً راح يحرر نفسه من الهيولى ذى الأزرق الفولاذى ، منطلقاً فى السماء بخفقات شديدة من جناحيه . ثم أصبحت العاصفة مسموعة وراح المطر يخشخش بترحاب . فرقعت زمجرة رعدية خاطفة مرعبة وهائلة عبر مشهد سقوط المطر . بعد ذلك بزغ على الفور شعاع من الشمس . بدا الثلج الشاحب مشوباً بالزرقة على الجبال المجاورة ووهماً فوق الأحراش البنية .

عندما عدت بعد ساعات ، مبتلاً ومشعثاً ، فتح دميان بنفسه الباب . أخذنى لأعلى إلى حجرته . كانت نافورة غاز مشتعلة فى معمله بينما قد تبعثرت بعض الأوراق على الأرض . لقد كان يشتغل على ما يبدو .

دعانى قائلاً : إجلس ، لابد أنك مجهد ، لقد كان طقساً لا يطاق . يستطيع المرء أن يدرك أنك كنت بالفعل بالخارج . سوف يكون الشاى هنا فى لحظة .

بدأت فى تردد : ثمة شئ يعكر الصفو اليوم ، لا يمكن أن يكون الأمر مجرد عاصفة رعدية .

نظر إلى مستفسراً : هل رأيت شيئاً ما ؟

– نعم ، رأيت صورةً فى السحاب ، كانت لوهلةٍ واضحةً تماماً .

– أى نوع من الصور ؟

– صورة طائر .

– طائر الباشق ؟ الطائر الخاص بحلمك ؟

– نعم . كان طائرى الباشق . كان أصفر اللون وهائلاً ، منطلقاً فى سحب زرقاء داكنة .

أطلق دميان تنهيدة عميقة .

ثم كانت هناك طرقة على الباب ، قامت الخادمة العجوز بإدخال الشاى .

- تفضل يا سينكلير . لا أعتقد أنك رأيت الطائر بمحض الصدفة .

- صدفة ؟ هل يتسنى للمرء أن يرى مثل هذه الأشياء بالصدفة ؟

- معك حق . كلا ، بالفعل . إن الطائر له دلالة . هل تعرف ما هى ؟

- كلا . لم أشعر سوى بأنه يدل على حدث هائل . نقله إلى مستوى المصير . أعتقد أنه يتعلق بكل منا .

كان يخطو جيئة وذهاباً فى اهتياج .

راح يصيح : نقلة على مستوى المصير ! لقد حلمت البارحة بشئ من نفس القبيل ، بينما انتاب أمى بالأمس هاجس يحمل نفس الرسالة . حلمت بأننى كنت أصعد سلماً كان مستنداً إلى شجرة أو برج ، عندما وصلت للقمة رأيت المنظر كله مشتعلاً . . سهل شاسع يعج بعدد لا يحصى من المدن والقرى . لا أستطيع أن أخبرك بالحلم كاملاً بعد . فمازال كل شئ مشوشاً إلى حد ما .

- هل تعتقد أن الحلم يتعلق بك شخصياً ؟

- بالطبع ، لا أحد يحلم بأى شئ لا يتعلق به شخصياً ، ولكنه لا يتعلق بى وحدى ، معك حق إننى أميز بوضوح تام بين الأحلام التى تكشف عن تحركات داخل نفسى الخاصة والأحلام الأخرى النادرة للغاية والتى يتناول فيها قدر الجنس البشرى برمته .

لقد حلمت بالقليل من هذه الأحلام ولم أحلم من قبل بحلم أستطيع أن أقول أنه يمثل نبوءة تحققت . إن التفسيرات غير مؤكدة للغاية . ولكنى لاشك أعلم أننى قد حلمت بشئ لا يتعلق بى وحدى . لكون هذا الحلم يرتبط بأحلام أخرى سابقة حلمت بها حيث جاء نتيجة لها .هذه يا سينكلير هى الأحلام التى ملأتنى بالهواجس التى حدثتك عنها . كلانا يعلم أن العالم متعفن تماما بيد أن ذلك لم يمثل أى سبب للتنبؤ بانهياره الوشيك ، أو بشئ مماثل . ولكن على مدار عدة سنوات حلمت بأحلام أستنتج من خلالها ، أو تجعلنى أشعر أن انهيار عالم عتيق وشيك بالفعل . فى بادئ الأمر كانت هذه إيحاءات بعيدة واهية ولكنها أصبحت شيئاً فشيئاً أقوى وأكثر جلاءً . إننى بالفعل لا أعلم سوى أن شيئاً سيحدث على نطاق واسع ، شيئاً رهيباً سأكون نفسى متورطاً فيه . إننا يا سينكلير سوف نشترك فى هذا الحديث الذى تناولناه مراراً وتكراراً . العالم يريد أن يجدد نفسه . ثمة رائحة موت فى الهواء . لا شئ يمكن أن يولد دون أن يموت أولاً ، ولكن الأمر أكثر بشاعة مما اعتقدت .

تفرست فيه مذعوراً ، سألت على استحياء : هل يمكنك أن تخبرنى ببقية حلمك ؟

هز رأسه قائلاً : كلا

انفتح الباب لتدخل فراو إيفا .

- آمل ألا تكونا حزينين ؟

كانت تبدو وقد استعادت حيويتها ، بينما اختفت كل آثار التعب .

ابتسم لها دميان واقتربت منا مثل أم تدنو من أطفالها المفزوعين .

- كلا ، لسنا حزينين يا أمى . إننا فحسب حاولنا أن نحل لغز هذه النذر الجديدة ، ولكن لا فائدة على أية حال . فدائماً ما يحدث سوف يصل هنا على الفور ، عندها سنعرف مباشرة ما نحتاج إلى معرفته .

لكننى أصبت بالإحباط وعندما انصرفت واجتزت الردهة بمفردى بدت رائحة الناردين الفاسدة أشبه برائحة الميتة . لقد خيمت علينا ظلال ما .

بداية النهاية

أقنعت والدىّ أن يسمحا لى بقضاء أجازة الصيف فى هـ . فكنا نقضى أنا وأصدقائى تقريباً كل وقتنا فى الحديقة على ضفة النهر بدلاً من المنزل .

لقد رحل اليابانى الذى انهزم كما كان ينبغى فى مباراة الملاكمة ، كما رحل تابع تولستوى بدوره . أما دميان فقد اقتنى حصاناً . وراح يمتطيه فى جولات طويلة يوماً بعد يوم . أما أنا فكثيراً ما كنت أبقى بمفردى مع أمه .

مرت على أوقات اندهشت فيها بشدة كم أن حياتى أصبحت آمنة . لقد اعتدت طويلاً على كونى وحيداً ، وعلى عيش حياة المنكر لذاته ، وعلى الصراع الشاق مع متاعبى المضنية ، لذلك بدت هذه الشهور فى هـ . بالنسبة لى على وجه العموم مثل جزيرة حلم سحرية ، كنت أحيا عليها وجوداً خلاباً ، يبعث على الراحة فى أحضان بيئة جميلة وسائغة . كان لدى هاجس بأن هذا كان نكهة المجتمع الجديد والأسمى الذى كنا نتفكر فيه ملياً . ومع ذلك كان يمكن لهذه السعادة عند أى لحظة أن تحدث بداخلى أمر كآبة ممكنة ، لأننى كنت أعرف جيداً أن الأمر لا يمكن له أن

يدوم ، فلم يكن من نصيبى أن أتنفس الشبع والسلوى ، إذ كنت فى حاجة إلى حث السرعة المعذب . كنت اشعر أننى يوماً ما سوف أستيقظ من صور الجمال المحببة هذه ، لأقف وحيداً من جديد ، فى الكون البارد . حيث لا شئ فى انتظارى سوى العزلة والصراع . . حيث لا سكينة ولا راحة ، ولا حياة مريحة نحياهها مع بعضنا البعض .

فى تلك الأوقات كنت أستكين بالقرب من فراو إيفا فى مودة مضاعفة ، مغتبطاً لأن قدرى مازال يحمل هذه القسمات الوادعة الجميلة .

انقضت أسابيع الصيف فى عجل ودون أن تحفل بأحداث ، كانت الإجازة على وشك الإنتهاء وسرعان ما سيحين الوقت الذى أرحل فيه . لم أقدم على التفكير فى ذلك ولكن رحت أتعلق بكل يوم جميل كما تتعلق الفراشة بزهرتها ذات الرحيق . كان هذا بمثابة وقتى السعيد ، التحقق الأول للحياة ، قبولى فى هذه الحلقة الحميمة المختارة . . ماذا يمكن أن يحدث فى أعقاب ذلك ؟ سوف أقاتل من جديد ، أكابد الأشواق القديمة ، وأحلم أحلاماً ، وأصبح وحيداً .

إنتابنى ذات يوم هاجس بقوة شديدة حيث أخذ حبى لفراو إيفا بغتةً يحتدم مؤلماً بداخلى . يا إلهى ، كيف يتحتم على أن أرحل قريباً من هنا ، ولا أعود أراها ، ولا أسمع خطواتها العزيزة

الواثقة تتردد فى جنبات المنزل ، ولا أعود أطالع أزهارها فوق منضدتى ، وماذا حققت ؟ لقد حلمت واستفضت فى الأحلام والتعفف ، بدلاً من الفوز بها ، بدلاً من أن أجاهد كى أضمها إلىّ للأبد ! إن كل ما أخبرتنى به عن الحب الحقيقى كان يتردد على بالى ، مئة من التوبيخات الرقيقة ، كذلك العديد من الإغراءات اللطيفة ، والوعود ، ربما . . ماذا فعلت بها لاشئ . لاشئ بالمرة ! توجهت إلى وسط الحجرة ووقفت ساكناً ، محاولاً تركيز كل وعيى على فراو إيفا ، مستحضراً كل القوى لدى روحى كى أجعلها تشعر بحبى وأستدرجها إلى . لابد أن تستجيب ، لابد أن تتوق إلى عناقى ، لابد أن ترعش قبلتى بنهم على شفتيها اليانعتين .

وقفت وركزت كل الطاقة حتى استطعت أن أشعر بالبرودة تتسلل إلى أصابع قدمى . رحت أشعر بالطاقة تنبعث منى . أحسست لبضعة لحظات بشئ ينكمش بداخلى ، شئ ناصع ورطب كان يبدو أشبه ببلورة . . كنت أعرف أنها ذاتى الخالصة . أخذت البرودة تزحف إلى صدرى .

مستريحاً من وطأة هذا التوتر الرهيب أحسست أن شيئاً ما على وشك الحدوث . كنت مجهداً لدرجة الموت غير أننى كنت مستعداً لمشاهدة إيفا تخطو داخل الحجرة متألقّة ونشوانة كان يمكن سماع نقر حوافر تقترب على إمتداد الشارع . بدت قريبة ومعدنية ، ثم

توقفت فجاة . قفزت إلى النافذة ورأيت دميان تحتها مترجلاً . نزلت مسرعاً .

- ماذا هنالك يا دميان ؟

لم يعر اهتماماً إلى كلماتى ؟ كان شاحباً بينما راح العرق يتصبب على وجنتيه . ربط فى سور الحديقة لجام فرسه الذى كان ينفث البخار وأخذ ذراعى وراح يسير معى فى الشارع .

- هل سمعت بالأمر ؟

- لم أسمع شيئاً .

ضغط دميان على ذراعى والتفت بوجهه نحوى وفى عينيه نظرة عابسة بغرابة ومع ذلك كانت مشفقة .

- حقاً . لقد بدأ الأمر . لقد سمعت عن المشاكل مع روسيا .

- ماذا ؟ هل هى الحرب ؟

تحدث بهدوء شديد رغم أن أحداً لم يكن قريباً منا بالمرة .

- لم يتم الإعلان عنها بعد ، بيد أنه ستكون هناك حرب . يمكنك أن تأخذ كلامى مأخذ الثقة . أنا لاأريد أن أزعجك غير أننى رأيت نذراً فى ثلاث مناسبات مختلفة منذ ذلك الوقت . إنها لن تكون نهاية العالم ، لن يكون هناك زلزال ، ولا ثورة ، بل الحرب . سوف ترى أى حدث مثير سوف يقع ! الناس سوف يحبونه . إنهم حتى هذه اللحظة يستطيعون بالكاد أن ينتظروا ليبدأ القتال . . إن حيواتهم على هذا القدر من الرتابة ! ولكنك سترى

يا سينكلير أن هذا ليس سوى البداية . ربما ستكون حرباً كبيرة جداً ، حرباً على نطاق واسع . بيد أن ذلك أيضاً لن يكون سوى البداية . لقد بدأ العالم الجديد سيكون بشعاً بالنسبة لهؤلاء الذين يتعلقون بالماضى . ماذا ستصنع ؟

كنت مصعوقاً ، بدا ذلك كله غريباً ومستبعداً .

- لاأعرف وأنت ؟

هز كتفيه

- سيتم إستدعائى بمجرد أن تصل أوامر التعبئة . إننى ملازم أول .

- أنت ضابط ! لم تكن لدىَّ فكرة .

- أجل كان ذلك أحد الوسائل التى ارتضيتها فأنت تعرف أننى أكره لفت الإنتباه إلى نفسى وأكاد أصل إلى النقيض ، فقط لأعطى انطباعات صحيحة . أعتقد أننى سوف أذهب إلى الجبهة خلال أسبوع .

- يا إلهى .

- هيا لا تكن عاطفياً . بالطبع ليس مزاحاً على أية حال أن تأمر الرجال أن يطلقوا النار على كائنات حية ، غير أن ذلك سيكون عرضياً. إن كلاً منا سوف يتورط فى السلسلة الكبيرة للأحداث . فأنت بدورك سوف تلتحق بالجيش بالتأكيد .

- وماذا عن أمك يا دميان ؟

الآن فقط عادت أفكارى إلى ما حدث من قبل بريع ساعة . كيف تغير العالم فى غضون تلك المدة ! لقد استجمعت كل قوتى لأسترجع الصور الأجمل فراح القدر يتطلع إلىّ بغتة وقد تقنع بالوعيد والرهبة .

- أمى ؟ لا يجب أن تقلق عليها . فهى فى مأمن ، إنها فى مأمن اليوم أكثر من أى شخص آخر فى العالم . هل تحبها بهذا القدر ؟

- ألم تكن تعرف ؟

ضحك بخفة . . مستريحا .

- كنت أعرف بالطبع . لم يقم أحد بمناداة أمى بفراو إيفا ولم يقع فى حبها . إنك أيضاً ناديتنى أو ناديتها اليوم .

- بالفعل ، لقد ناديتها .

- لقد أحسست بهذا . فأرسلت لى على وجه السرعة ، قائلة بأنه ينبغى أن أطمئن عليك . لقد أخبرتها للتو بالأنباء الخاصة بروسيا . استدرنا وتبادلنا بضعة كلمات أخرى .

فك دميان حصانه وامتطاه .

- لم يتسن لى إلا بعد ما صعدت إلى حجرتى أن أدرك أن أخبار دميان وأكثر منها التوترات التى سبقتها قد أصابتنى بالإعياء . بيد أن فراو إيفا قد سمعتنى ! فلقد وصلت أفكارى إلى قلبها . كانت ستأتى بنفسها - لو . . . . كم كان هذا مثيراً

للفضول ، وبشكل أساسى كم كان فاتناً ! والآن كانت هناك الحرب .إن ما قد تحدثنا عنه كثيراً كان عليه أن يبدأ . كان دميان مدركاً للأمر منذ وقت مبكر . كم كان غريباً أن مجرى أحداث العالم لم يعد عليه أن يتجنبنا ، فهو الآن يمر مباشرة من خلال صدورنا . والآن أو فى القريب العاجل سوف تجئ اللحظة التى يكون العالم عندها فى حاجة إلينا ، والتى سوف يسعى فيها إلى تحويل نفسه .

كان دميان على حق لا يمكن للمرء أن يكون عاطفياً إزاء ذلك . الشئ اللافت الوحيد هو أنه كان علىّ أن أشارك فى الشأن الشخصى المحض المتعلق بقدرى مع آخرين كثيرين ، مع العالم برمته فى واقع الأمر . حسن ، فليكن ذلك !

استعددت . عندما رحت أجول خلال البلدة فى المساء كان كل منعطف يعج بالطنين ، فى كل مكان لم يكن سوى الكلام عن الحرب .

ذهبت إلى منزل فراو إيفا . تناولنا العشاء فى المنزل الصيفى . كنت الضيف الوحيد . لم ينبس أحد ببنت شفة عن الحرب . فقط فيما بعد ، قبل أن أنصرف قالت فراو إيفا : عزيزى سينكلير ، لقد دعوتنى اليوم . أنت تعرف لماذا لم آت بنفسى . ولكن لا تنسى أنك الآن تعرف النداء ومتى كنت فى حاجة لشخص يحمل العلامة ، يمكنك أن تناشدنى . وقفت على قدميها

وسبقتنى إلى غسق الحديقة . راحت تخطو فارغة ومهيبة بين الأشجار الواجمة .

ها أنا الآن فى طريقى إلى نهاية قصتى . فكل شىء من الآن فصاعداً راح يسير بسرعة شديدة . سرعان ما قامت الحرب . تركنا دميان ، كان يبدو غير مألوف بشدة فى زيه العسكرى . ثم قمت باصطحاب أمه إلى المنزل . لم يمر وقت طويل حتى ودعتها أنا بدورى .قبلتنى فى فمى وضمتنى لحظة إلى صدرها . كانت عيناها الواسعتان تومضان بثبات وعن قرب فى عينىّ .

بدا كل الرجال وقد أصبحوا إخوة ، كانوا يتحدثون طوال الليل عن « الوطن » و « الشرف » غير أن ما كان يقبع خلف ذلك ، قدرهم الخاص الذى لمحوا وجهه السافر لوهلة قصيرة واحدة . غادر الشباب ثكناتهم وراحوا يتكدسون فى قطارات ، وفوق العديد من الوجوه رأيت علامة - ليست علامتنا - بل علامة جميلة وسامية رغم أن ذلك كان يعنى الحب والموت . أنا بدورى راح يعانقنى أناس لم أرهم من قبل وفهمت هذه اللفتة وتجاوبت معها . لقد دفعتهم النشوة لفعل هذا ، ليس من قبيل التوق إلى مصيرهم . بل كانت هذه النشوة مقدسة ، لأنها كانت نتيجة أنهم جميعاً نظروا هذه النظرة القصيرة والمقلقة البشعة فى عينىّ قدرهم .

كان الشتاء يقترب عندما أُرسلت إلى الجبهة . وبغض النظر

عن الإثارة لكونى تحت القصف للمرة الأولى ، فلقد أصابنى كل شئ فى البداية بخيبة أمل .

فى وقت ما فكرت ملياً فى سبب أن الناس كان من النادر بشدة أن يتمكنوا من أن يعيشوا مثلاً أعلى . الآن رأيت الكثير من الرجال ، ليس كلهم كانوا مهيئين للموت من أجل مثل أعلى . ومع ذلك لم يكن مثلهم الشخصى المختار بحرية ، إذ كان مثلاً تم الإتفاق عليه على نحو مشترك . وبمرور الوقت رغم أننى أدركت أننى قد استخففت بهؤلاء الناس ، على أن الخدمة المشتركة الكثيرة والخطر جعل منهم كتلة متجانسة . لقد رأيت بالفعل الكثير منهم يقتربون من إرادة القدر برفعة عظيمة . فالكثير ، الكثير جداً ليس فقط فى أثناء الهجوم ولكن عند كل لحظات اليوم كانت تشيع فى عيونهم نظرة وحشة وتصميم ونظرة ملتبسة بعض الشئ ، لا تعرف شيئاً عن الأهداف ، وتوحى بالتسليم التام لما لا يصدق . كانوا بغض النظر عن معتقداتهم أو إيمانهم مستعدين ، كانوا جاهزين للإستخدام ، فلقد كانوا الصلصال الذى يمكن أن يتشكل منه المستقبل . كلما كان العالم مركزاً كهدف محدد على الحرب والبطولة ، على الشرف ومثل أخرى قديمة ، كلما بدت أى مسحة للإنسانية الحقيقية بعيدة وغير محتملة . . كل ذلك كان مجرد شئ على السطح ، وعلى نفس المستوى ظل السؤال عن الأهداف السياسية والخارجية للحرب سطحياً . بينما تحت فى الأعماق ، ثمة شئ ما كان يتشكل ، شئ

مشابه لإنسانية جديدة . لأننى كنت أرى العديد من الرجال – والعديد ماتوا بجانبى – الذين بدأوا يشعرون بشدة أن الكراهية والإهتياج ، الذبح والإبادة لم تكن متعلقة بتلك الأهداف . كلا ، فهذه الأهداف والغايات ، كانت عرضية تماماً . إن أكثر المشاعر بدائية ووحشية أيضاً لم تكن موجهة للعدو ، فمهمتها الدموية لم تكن سوى إخماد الروح ، الروح التى انقسمت على نفسها ، حيث ملأتهم بالتحرق للهياج والقتل ، للإبادة والموت لذلك ربما يولدون من جديد .

فى إحدى الليالى فى بداية الربيع وقفت حارساً أمام مزرعة قمنا باحتلالها . كانت رياح متوانية آخذة فى الهبوب على نحو متقطع . بينما راحت جيوش السحاب عبر السماء الفلمنكية ترتفع عالياً ، وفى مكان ما خلفها كان إيحاء بقمر . كنت مرتبكاً طوال اليوم ، ثمة شئ ما كان يقلقنى بشدة . الآن فى نقطة حراستى المظلمة رحت أسترجع بحماس صور حياتى وأفكر فى فراو إيفا ودميان .

وقفت مستنداً إلى ساق شجرة حور ، محدقاً فى السحب المتوافدة التى سرعان ما راحت بقعها الضوئية الملتوية على نحو غامض تتحول كليّة إلى سلاسل هائلة من الصور الدوامة . ومن خلال الوهن الغريب لنبضى ، وحساسية جلدى للرياح والمطر ، وحالة وعيى الحادة استطعت أن أستشعر أن سيداً كان على مقربة منى .

كان يمكن رؤية مدينة هائلة فى السحب وقد راحت ملايين البشر تتدفق منها فى حشد فى مساحات كبيرة . وفى وسطهم كانت تمشى هيئة هائلة إلهية ، ضخمة مثل سلسلة جبلية ، وفى شعرها نجوم متلألئه ، كان لها ملامح فراو إيفا . راحت صفوف البشر تنسحب داخلها كما تنسحب داخل كهف لعملاق وتختفى عن النظر . جثمت الإلهة على الأرض ، والعلامة تلمع على جبينها . كان يبدو أن حلماً يسيطر عليها بشدة : إذ أغمضت عينيها وطفق وجهها يتلوى من الألم . صرخت بغتة ومن جبينها إندفعت نجوم ، عدة آلاف من النجوم اللامعة راحت تقفز فى أقواس وأنصاف دوائر عبر السماء المعتمة . إنطلقت إحدى هذه النجوم مباشرة فى اتجاهى برنين واضح وبدا أنها تبحث عنى . ثم انفجرت منشطرة فى زمجرة إلى ألف شرارة ، قذفتنى عالياً ثم رطمتنى بالأرض ثانيّة . . راحت الدنيا تتصدع من فوقى فى قهقهة رعدية .

وجدونى بالقرب من شجرة الحور ، مغطى بالطين ومصاباً بالعديد من الجراح .

استلقيت فى سرداب ، بينما راحت المدافع ترعد من فوقى . ثم استلقيت فى عربة شحن مترجرجاً عبر الحقول الخاوية . كنت نائماً فى أغلب الوقت أو فاقداً وعيى . ولكن كلما تعمقت فى النوم كلما شعرت بشدة أن شيئاً ما كان يستدرجنى ، حيث كنت أتبع قوةً ضربت سيطرتها علىّ . استلقيت فى اسطبل ، على

القش . كان الوقت ليلاً وقد داس شخص ما على يدى . بيد أن شيئاً ما فى دخيلتى أراد أن أستمر فى السير وكنت مسحوباً بقوة أكبر من ذى قبل . استلقيت من جديد فى عربة شحن وبعد ذلك على نقالة أو سلم . بقوة أكبر من ذى قبل أحسست أنى كنت مستدعىً إلى مكان ما ، لم أشعر سوى بالرغبة الملحة فى ضرورة الوصول فى نهاية الأمر إلى هناك . عندما وصلت إلى غايتى كان الوقت ليلاً . وكنت فى كامل وعيى . أحسست بالرغبة الملحة تنسحب بشدة فى داخلى . الآن كنت فى قاعة طويلة ، مُمدداً على الأرض . شعرت أننى وصلت إلى غايتى التى كانت تستدعينى . أدرت رأسى : بالقرب من فراشى بسط فراش آخر ، كان عليه شخص مُنحنى للأمام وينظر إلىَّ . كان يحمل العلامة على جبينه ، لقد كان ماكس دميان . كنت عاجزاً عن الكلام وهو لم يستطع أو لم يرد بدوره . اكتفى بالنظر إلىَّ . كان ضوء المصباح المعلق فوقه على الحائط يرفرف على وجهه . ابتسم . راح يحدق فى عينى فيما بدا أنه زمن لانهائى . قرَّب وجهه ببطء من وجهى حتى كدنا أن نتلامس .

قال هامساً : سينكلير ،

أخبرته بإيماءة أننى أسمعه .

ابتسم من جديد فى شفقة بعض الشئ .

قال مبتسماً : أيها الرفيق الصغير . . .

كانت شفتاه تقر بالقرب من شفتى . راح يواصل كلامه فى رفق :

- هل تستطيع أن تتذكر فرانز كرومر ؟

أومأت إليه وابتسمت أيضاً .

- إسمع ، يا صغيرى سينكلير : يجب علىّ أن أرحل بعيداً ، ربما ستكون فى حاجة إلىّ من جديد ، فى مواجهة كرومر ، أو شىء ما . إذا ناديتنى لن أجىء ببساطة ، على صهوة حصان أو مستقلاً قطاراً . سيكون عليك أن تصغى فى دخيلة نفسك ، عندها سوف تدرك أننى بداخلك . هل تفهم ؟ وهناك شىء آخر . إن فراو إيفا أخبرتنى حينما تكون فى وضع سىء فإنه علىّ أن أمنحك قبلةً منها أرسلتها معى .... أغمض عينيك يا سينكلير ..... !

أغمضت عينى فى امتثال . فشعرت بقبلة خفيفة على شفتى حيث ظل هناك دائماً قليلٌ من الدم الطازج لا يختفى ابداً . وعندئذٍ رحت فى النوم .

فى الصباح التالى أيقظنى شخص ما ، إذ كان يجب أن تُضمد جراحى . عندما أصبحت أخيراً فى كامل يقظتى التفت بغتةً إلى الفراش المجاور . كان يرقد عليه شخص غريب لم أره من قبل . كان تضميد الجراح يؤلمنى . وكل شىء حدث لى منذ ذلك الحين كان يؤلمنى . ولكن أحياناً عندما أجد المفتاح وأوغل فى نفسى

حيث تستلقى صور القدر غافيةً فى المرآة المعتمة ، ليس علىّ سوى أن أنحنى فوق تلك المرآة المعتمة كى أطالع صورتى الخاصة ، ها هى الآن تشبهه تماماً ، أخى ، وسيدى .

المؤلف : هرمان هيسه

« ١٨٧٧ - ١٩٦٢ »

* أرسله والده فى طفولته للدراسة فى مدرسة تبشيرية ليصبح رجل دين مثله ولكنه هرب من الدراسة وعندما حاولوا إرجاعه حاول الانتحار ، كما هرب أيضاً من التعليم العام وعمل فى محلات بيع الكتب حتى عام ١٩٠٤ عندما أصبح كاتباً حراً .

* نشر فى بداياته مقالات فى الأدب والفن والموسيقى وكتب الخواطر والقصائد وأصدر روايته الأولى « بيتر كامينزند » فى ١٩٠٤ التى يتناول فيها حياة كاتب فاشل منغمس فى الملذات وفى ١٩٠٦ أصدر « تحت العجلة » وهى رواية عن تلميذ فشل - أيضاً - فى التواصل مع أبناء جيله مع جنوح لتدمير ذاته .

* عاش أثناء الحرب العالمية الأولى فى سويسرة المحايدة وانضم إلى دعاة السلام وكتب كثيرا ضد القومية والنزعة العسكرية وحرر جريدة عن الأسرى والمعتقلين الألمان .

* صدمة الحرب ومرض ابنه الأصغر وموت زوجته الأولى ووالده ، كل ذلك إلى جانب عذاباته الخاصة أدى به إلى مصحة

وجلسات علاج نفسى ظهر أثرها فى رواية « دميان » (١٩١٩) كما سبق أن ظهرت معاناة ابنه فى رواية « روسهالدى » (١٩١٤) .

* أثمر اهتمامه بالشرق وزيارته للهند رواية بعنوان « سد هارتا » وهى رواية غنائية عن الحياة الباكرة لبوذا . (صدرت فى ١٩٢٢) .

* من أعماله الشهيرة « ذئب البوادى » ١٩٢٧ و« نرسيس وجولدماند » ١٩٣٠ التى ترجمت إلى الإنجليزية بعنوان « الموت والعاشق » و« رحلة إلى الشرق » ١٩٣٢ وآخر وأطول رواياته « لعبة الكريات الزجاجية » ١٩٤٣ التى كانت أحد العوامل القوية فى حصوله على جائزة نوبل للأداب عام ١٩٤٦ .

المترجم

- عبده عبد العزيز أحمد
- شاعر ومترجم مصرى من مواليد المنصورة (١٩٧١)
- تخرج فى جامعة المنصورة (١٩٩٧)
- صدر له مجموعة شعرية بعنوان « فقط يربى حماما ويصنع برجاً حصيناً من العزلة » (٢٠٠٠) .

صدر من آفاق عالمية

١ - تنبؤات

شعر : بيفر / زجراجن

ترجمة : د . يسرى خميس

يوليو ٢٠٠١

٢ - اعتراف منتصف الليل

رواية : چورچ ديهامل

تعريب : د . شكرى عياد

أغسطس ٢٠٠١

٣ - الزيتونة والسنديانة

نصوص شعرية مترجمة ودراسة عن الشاعر :

عادل قرشولى

د . عبد الغفار مكاوى

سبتمبر ٢٠٠١

٤ - بلبل واحد لا يصنع ربيعا
مختارات من القصة العالمية
ترجمة د . حمادة إبراهيم
أكتوبر ٢٠٠١

٥ - شراك القدر
مسرحية : أنطونيو بوريو بييخو
ترجمة : د . طلعت شاهين
نوفمبر ٢٠٠١

٦ - الأرض الخراب وقصائد أخرى
شعر : ت . س . إليوت
ترجمة : د . لويس عوض
تقديم : د . ماهر شفيق فريد
ديسمبر ٢٠٠١

٧ - فى البحث عن ڤاليرى (رواية)
تأليف : ليج مايكلز
ترجمة : مى رفعت سلطان
يناير ٢٠٠٢

٨ - زديج أو القضاء (قصة شرقية)

تأليف : فولتير

ترجمة : د . طه حسين

تقديم : نبيل فرج

فبراير ٢٠٠٢

٩ - قصائد امرأة سوداء بدينة

شعر : جريس نيكولز

ترجمة : نانسى سمير

مارس ٢٠٠٢

١٠ - عاشق من مونت كارلو (مختارات قصصية)

تعريب وتقديم : عبد القادر حميدة

إبريل ٢٠٠٢

١١ - الحب والأسى (مسرحية صينية)

تأليف : (باى فنجكس)

ترجمة وتقديم : سمير عبد ربه

مايو ٢٠٠٢

١٢ - ذلك العالم المدهش
(حوارات مع كتاب عالميين)
ترجمة وتقديم : حسين عيد
يونيو ٢٠٠٢

١٣ - شعر السبعينيات فى إسبانيا (دراسة ومختارات مترجمة)
د . حامد أبو أحمد
يوليو ٢٠٠٢

١٤ - المسرح الهندى (التراث والتواصل والتغير)
تأليف : د . نيميتشاندا جين
ترجمة : د . مصطفى يوسف منصور
مراجعة : أ . د . منى أبو سنة
أغسطس ٢٠٠٢

١٥ - مختارات من روائع المسرح العالمى
ترجمة وتقديم د . نعيم عطية
سبتمبر ٢٠٠٢

١٦ - الأغنية الأخيرة
مختارات من الشعر الصينى
تأليف : تشانج شيانج - هو
ترجمة : زكريا محمد
أكتوبر ٢٠٠٢

١٧ - أفضل صديقاتى (مختارات من القصة العالمية)
ترجمة : مفـرح كريم
نوفمبر ٢٠٠٢

١٨ - الطاغية (ومسرحيات أخرى)
ترجمة د . جمال عبد الناصر
ديسمبر ٢٠٠٢

١٩ - يقظة امرأة (رواية)
تأليف : كيت شوبان
ترجمة : د . أحمد الشيمى
يناير ٢٠٠٣

٢٠ - مختارات من حكايات الشعوب
ترجمة وتقديم : رأفت الدويرى
فبراير ٢٠٠٣

٢١ - خمس مسرحيات نو حديثة
تأليف : يوكيو ميشيما
ترجمة : عبد الغنى داود
: أحمد عبد الفتاح
مارس ٢٠٠٣

٢٢ - سر بين اثنين
(مختارات من القصة القصيرة العالمية)
ترجمة : محمد رجب
أبريل ٢٠٠٣

٢٣ - ملحمة جلجاميش
ترجمها عن الألمانية : د . عبد الغفار مكاوى
راجعها على الأكدية : د . عونى عبد الرءوف
مايو ٢٠٠٣

٢٤ - شعراء وقصائد

باقة من بستان الشعر اليونانى الحديث

ترجمة عن اليونانية ودراسات : د . نعيم عطية

يونيو ٢٠٠٣

٢٥ - فى الحب والحرية والمقاومة

مختارات من الشعر العالمى

ترجمة وتقديم : د . حسن فتح الباب

يوليو ٢٠٠٣

٢٦ - الحجر ليس بريشة

مختارات من شعر بيثنته ألكساندر

ترجمة وتقديم : عبد الهادى سعدون

أغسطس ٢٠٠٣

٢٧ - تدابير ضد السلطة

مختارات من القصة الألمانية فى القرن العشرين

ترجمة وتقديم : د . محسن الدمرداش

سبتمبر ٢٠٠٣

٢٨ - **تحولات الجحش الذهبى**
تأليف : لوكيوس أبوليوس المداورى
ترجمة : د . على فهمى خشيم
أكتوبر ٢٠٠٣

٢٩ - **مسرحية « حسن البغدادى »**
تأليف : چيمس الروى فليكر
ترجمة وتقديم : محمود محمد مكى
نوفمبر ٢٠٠٣

٣٠ - **صورة للبقاء**
شعر وترجمة : روديكا فيرانيسكو
ديسمبر ٢٠٠٣

٣١ - **ممنوع اللمس**
وقصص أخرى من إسبانيا وأمريكا اللاتينية
ترجمة : أحمد عبد اللطيف
يناير ٢٠٠٤